مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير

الدكتور حسين أمين

الأمين العام

لاتحاد المؤرخين العرب

٢٤

العدد الرابع والعشرون

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مجلة تصدرها

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

بغداد - العراق

مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات العدد الرابع والعشرون

م	الموضـــــوع	الصفحة
	مقدمة العدد	٧
	للدكتور حسين أمين الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب	
١	ـ العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد فى العصر العباسى	٩
	للدكتور حسين أمين الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب	
٢	ـ مكانة الخليج العربى التجارية ومصادرها خلال العصور الاسلامية الوسطى	١٩
	بحث مقدم إلى مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية	
	بقلم الدكتور لبيد ابراهيم أحمد ـ كلية الآداب ـ جامعة البصرة	
٣	ـ السنة النبوية فى مواجهة شبهات الاستشراق	٣٧
	للأستاذ أنور الجندى جمهورية مصر العربية	
٤	ـ الرأى العام فى صدر الإسلام ـ معانيه وبواكيره واتجاهاته	٤٩
	للدكتور عادل محيي الدين الألوسى ـ كلية التربية جامعة بغداد	
٥	ـ المحكمة العليا فى الإسلام أو النظر فى مظالم الرعية	٦٣
	للدكتور عبدالرزاق على الأنبارى ـ كلية التربية جامعة بغداد	
٦	ـ سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزواته مع اليهود	٩١
	للدكتور احسان ثريا تركيا	
٧	ـ صفحات من تاريخ الانتفاضة الشعبية اللبنانية	١٠٣
	للأستاذ صادق حسن السودانى ـ كلية الآداب جامعة بغداد	

م الموضـــــــوع الصفحة

٨ ـ ابو اسحق ابراهيم بن هلال الصابئ مؤرخاً ١٧٧

للأستاذ عبدالرحمن حسين العزاوي ـ كلية الآداب جامعة بغداد

٩ ـ قبيلة بكر بن وائل وحروبها في الإسلام ١٩٩

للدكتور رمزية محمد الأطرقجي ـ جامعة بغداد

١٠ ـ الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية ٢٤٣

تأليف الدكتور عبدالله سلوم السامرائي

عرض د . ناجية عبدالله ابراهيم

١١ ـ مطالعات في الكتب التي صدرت حديثا ٢٥٥

بقلم الأستاذ محمد جاسم حمادي

١٢ ـ سليمان أفندي قائمقام الحلة سنة ١٨٦٧ .... ٢٦١

للأستاذ مير بصري ـ زميل الجمعية الاسيوية الملكية لندن

●●●●

مقدمة

بكل فخر واعتزاز تقدم الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربى وهى طافحة بالبحوث القيمة التى كتبها الباحثون والمؤرخون العرب وهذا يعبر عن الجهود المتواصلة والتقدم الواضح الذى حققه اتحاد المؤرخين العرب فى تحقيق أهدافه العلميه وفى التعريف بالمؤرخ العربى وإبرازه مثلاً حياً للنشاط العلمى وعنواناً للتقدم الحضاري.

إن مجلة المؤرخ العربي والتى برزت فى الساحة الثقافية العالمية وأصبحت أهم المجلات العلمية التى تعنى بالدراسات التاريخية، ستستمر بإذن الله تعالى فى طريقها المرسوم وهى تعكس الأصالة التاريخية للأمة العربية وتبرز روح الحضارة التى أقامها العرب والمسلمون فى هذه المعمورة، وستكون المرآة الصادقة لتراثنا الخالد.

اننا ندعو جميع الأخوة المؤرخين العرب للإسهام فى تحرير مجلتهم التى أصبحت من أهم مصادر البحث التاريخى ومقصد كل الباحثين وطلبة العلم فى العالم، وان مساهمتهم فى الكتابة إثراء للمجلة ومشاركة فعّالة فى دعم اتحاد المؤرخين العرب.

وختاماً لابد وأن اتقدم بالشكر العظيم لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى المملكة العربيه السعودية على تفضلها مشكورة بطباعة هذا العدد دعماً للاتحاد وتشجيعاً للمؤرخين العرب وتعضيدا لعملية البحث العلمى.

وفقنا الله إلى ما فيه الخير
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدكتور حسين امين

العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد

في العصر العباسي

د/ حسين أمين

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

الأندلس وبغداد، مركزان مهمان من مراكز الحضارة الإنسانية امتازا بالتطور والازدهار في جميع ميادين العلم والمعرفة والفن والعمران كما امتازا بالمعاصرة، وتبادلا معظم وسائل الثقافة، فتلاحمت الأفكار وتبودلت الخبرات والمعارف وكان حصيلة ذلك كله ذلك التراث العظيم لبغداد والأندلس، الذى يتغنى به القريب والغريب وينهل من معانيه السامية كل طلاب العلم والمعرفة.

وما من شك فان العصر العباسي الذى شهده العالم كان صفحة مشرقة من صفحات تاريخ الأمة العربية والإسلامية. وفيه غدت بغداد قبلة القصاد وكعبة طلاب الثقافة والتجارة والفن كما كانت في عصرها الأول الحصن الحصين للعالم الإسلامي ومنطلقا لجيوشها الظافرة.

وقد سادت بين الأندلس وبغداد علاقات نابعة من أصالة الروابط الاجتماعية والدينية والسياسية، وكانت لتلك العلاقات نتائج ذات أثر واضح في تطور مختلف مظاهر الحياة العربية الإسلامية بوجه خاص والتقدم الإنساني بوجه عام ولعل أبرز تلك الصلات هي العلاقات الثقافية.

وفي عهد ازدهار بغداد والأندلس والتطور الكبير الذى رافق مسيرة كل منهما، انتقلت الكثير من عوامل الحضارة في ميادينها المختلفة، وقام العديد من الرواد العلماء والأدباء والفنانون بزيارة المشرق والمغرب والأندلس وتمت عملية الامتزاج وانتقال التأثيرات الحضارية والتي كان لها دورها الإيجابي في ربط وتعميق العلاقات بين الأخوة في المشرق والمغرب والأندلس، وكان لذلك فعله الواضح في تعريف التراث بشكله الشامل لجميع العرب والمسلمين والعمل على حفظه من الضياع والنسيان

ويعتبر الفنان البغدادى المعروف بزرياب هو من أولئك الرواد الذين كان لهم دورهم الفاعل في نقل الفن والترف والتقدم الاجتماعى من بغداد إلى الأندلس. وزرياب هو علي بن نافع مولى المهدى العباسي من الموسيقيين المشاهير في عصره، وكان شاعرا موهوبا، كان على معرفة بأحوال الملوك والخلفاء والأمراء وآداب مجالستهم، وكان حسن الصوت وهو الذى جعل العود في خمسة أوتار بعد أن كانت أربعة. استاذه في الغناء اسحق الموصلي، الذى كان عالما باللغة والموسيقى والتاريخ ونادم الرشيد والمأمون والواثق العباسيين، وانتقل زرياب إلى الشام ومنها الى الأندلس وسبقته اليها شهرته واستقبله الأمير عبدالرحمن بن الحكم الأموى بن

الحكم ورحب به وجعله من المقربين في بلاطه وخصص له في كل شهر مئتي دينار، واستغنى به عمن عداه من الندماء والمغنين، وأقام في قرطبه وبها اخترع مضراب العود من الخشب، وفي رأى المؤرخين أن زرياب يعتبر المؤسس الحقيقي لمدرسة الغناء والموسيقى الأندلسيه. كما كان لزرياب أثره الواضح في الأندلس حيث صار قدوة المجتمع الأندلسي، فأحدث تبدلا واضحا في الملبس والمأكل، كما طعّم الحياة الاجتماعية العامة في الأندلس وآداب المحادثة والمجالسة بكثير من التقاليد البغدادية. وأنه نقل الحان بغداد وأغانيها إلى الأندلس، وأدخل فنونا جديدة في الموسيقى والغناء، وعلى ذلك أخذ الشعراء في نظم الشعر الملائم لهذه الموسيقى وذلك الغناء وظل زرياب مقيما في قرطبة حتى توفي سنة ٢٣٠ هـ ٨٤٥م.

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجرى دخل الأندلس رجل من بغداد كان له الأثر الثقافي في الأندلس ودخل قرطبه في نفس الوقت من بغداد أيضا كتاب كان له تأثيره الأدبي الرائع والذى صار المنهل العذب لكل أديب ودارس ومرجع لكل مثقف يرتشف منه روائع الأدب وأخبار المثقفين من شعراء وأدباء وفنانين. والرجل هو اسماعيل بن القاسم المعروف بأبي علي القالي، احفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب، تعلم في بغداد حيث أقام بها خمساً وعشرين سنة، ورحل إلى المغرب، ودخل قرطبة سنة ٣٣٠ هـ ٩٤١م أيام الخليفه عبدالرحمن الناصر وقد أكرمه الحكم المستنصر بن الناصر وبالغ في رعايته والعناية به تقديرا لعلمه وتكريما لمكانته وفي قرطبة املى كتابه المعروف (الأمالي) كما أنه وضع في تلك المدينة معظم تآليفه التي صارت مطلب كل المثقفين في الأندلس، وكان للقالي مكانة مرموقة بين كبار الأدباء والعلماء.

وقد مدحه شاعر قرطبة ابو عمر يوسف بن هارون الكندى المعروف بالرمادى بقصيدته التي مطلعها : -

من حاكم بيني وبين عذولي   الشجو شجوى والعويل عويلي

إلى أن يقول : -

يا سيدى هذا ثنائي لم أقل   زورا، ولا عرضت بالتنويل
من كان يأمل نائلا فانا امرؤ   لم أرج غير القرب في تأميلي

ويذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة أن الرمادى روى عن أبي علي القالي كتابه النوادر

وكان تأثير أبي علي القالي كبيرا في نقل علوم اللغة والشعر والأدب في الأوساط والمجالس الثقافية الأندلسية، وانتفع به خلق كثير، ولعل أبرز من أفاد منه عالم الأندلس الكبير أبوبكر محمد بن الحسن الزبيدى الاشبيلي والذى يعتبر أوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة وكان أخير أهل زمانه بالاعراب والمعاني والنوادر ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه، درس الأدب واللغة على أبي على القالي وكان أهل الأندلس يلقبونه بالبغدادى لمجيئه اليهم من بغداد، وقد توفي أبوعلي القالي سنة ٣٥٦ هـ/١٩٦٧م في حاضرة الأندلس قرطبة.

وفي نفس الفترة التي كان فيها أبوعلي القالي يعطي بسخاء من علومه وآدابه ومعارفه، وصلت الأندلس نسخة خاصة من كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني إلى الحكم المستنصر، وكان هذا الكتاب من أبرز الأدب، كتبه أبوالفرج في بغداد بمدة خمسين سنة، وذكر ابن خلكان أن الصاحب ابن عباد كان يستصحب في أسفاره حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب، فلما وصل إليه هذا الكتاب لم يكن بعد ذلك يستصحب غيره لاستغنائه به عنها. وقال المؤرخ ابن خلدون (ان كتاب الأغاني، هو ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الأديب ويقف عندها وانى له بها).

لقد صار لهذا الكتاب العربي الذى أوفدته بغداد إلى الأندلس مكانته المرموقة، فأقبل على قراءته الأدباء والعلماء وتلقفه الشعراء والمغنون وانتهله منه كل طالب علم يحتاج إليه من الأدب والمعرفة وبقى الكتاب ولما يزل تحفة التراث العربي ومتعة كل المثقفين والدارسين. هذا وقد توفي ابوالفرج الأصفهاني في بغداد سنة ٣٥٦ هـ/٩٦٧م في نفس السنة التي توفى فيها أبوعلى القالي البغدادى في قرطبة كما ذكرنا.

وانتقلت كتب بغداد إلى الأندلس في شتى مواضيع العلم والمعرفة وأقبل على تناولها روادها وانكبوا عليها درسا وفحصا ونقدا وتعليقا، وانتقلت تلك التآليف من الأندلس العربية الإسلامية إلى الامارات المسيحية في الشمال ومنها إلى أوربا.

وهكذا أصبحت الأندلس معبر الحضارة الإنسانية والطريق الصالح لنقل تراث العرب والمسلمين إلى أوربا، وترجمت الكتب العلمية والأدبية إلى اللغة اللاتينية، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد ترجم كتاب القانون لابن سينا في القرن الثاني عشر كما ترجم كتاب الحاوى

للرازي كما تمت ترجمة كتب ابن الهيثم ومؤلفات الإمام الغزالي وبخاصة كتاب احياء علوم الدين، وتعرفت أوربا عن طريق العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد على الكثير من المعارف والتجارب والمكتشفات العلمية مما سهل على الأوربيين الكثير من الجهد والوقت، وصارت آراء البيروني وابن الهيثم وابن سيناء وجابر بن حيان والرازي في صلب معارف وأعمال رجال العلم في أوربا، كما أصبحت كتب العرب والمسلمين هي الأولى للتدريس في جامعاتها.

كما وصل علماء رواد من المشرق إلى المغرب والأندلس فكان هناك نخبة من العلماء الأجلاء قاموا بزيارة بغداد وكانت وقتذاك، كعبة القصاد ومنار العلم ومتعة الدنيا، تستقطب الناس على مختلف الوانهم وأحواهم لما وصلت إليه من التقدم والازدهار في كافة ميادين الثقافة والحضارة، ومن أبرز من زار حاضرة العباسيين، الأديب الحافظ محمد بن الوليد بن محمد الأندلسي المعروف بأبي بكر الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦م، دخل بغداد والبصرة وتفقه على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي مدرس المدرسة النظامية، والمدرسة النظامية هي أم المدارس العراقية شيدها الوزير نظام الملك لتدريس فقه الشافعية والتي تعتبر من أشهر المدارس الإسلامية في العصر العباسي ودرس بها كبار العلماء أمثال (أبواسحق الشيرازي) و (أبوحامد الغزالي) وغيرهما من أجلة فقهاء المسلمين، كما زار الطرطوشي مدينة البصرة واتصل بعلمائها وأدبائها ومن ثم عاد إلى الشام واستوطن مصر.

وممن زار بغداد من الأندلسيين أبوالوليد سليمان بن خلف التجيبي الأندلسي الباجي وهو من شرق الأندلس، رحل إلى بغداد فأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث ولقي بها سادة من العلماء كأبي الطيب الطبري الفقيه الشافعي والشيخ ابي اسحق الشيرازي صاحب المهذب وأول مدرسي المدرسة النظامية، كما أقام بالموصل مع أبي جعفر السناني عاما يدرس عليه الفقه، ومن ثم عاد إلى الأندلس وولى القضاء هناك وتوفى أبوالوليد التجيبي بالمريه سنة أربع وسبعين وأربعمائة للهجرة.

ومن الذين دخلوا بغداد من أهل الأندلس أبومحمد عبدالعزيز بن احمد القيسي الأندلسي، من أهل العلم باللغة العربية، فاتصل بعلماء بغداد فاستفاد وأفاد وتوفي هذا العام سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٦م.

ومن مشاهير الأندلسيين الذين وفدوا بغداد، أبوالخطاب عمر بن الحسن ابن على

الأندلسي البلنسي الحافظ ، وهو من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث النبوى، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، زار العراق وسمع ببغداد من بعض أصحاب ابن الحصين وسمع بواسط من أبي الفتح محمد بن أحمد ابن الميداني. وزار اربل في سنة أربع وستمائة فرأى صاحبها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين. فاعجب من اهتمام هذا الملك بمولد النبي (ص) عظيم الاحتفال به، فعمل له كتابا بأسماء (كتاب التنوير في مولد السراج المنير) وقرأه عليه بنفسه، وقد منحه الملك مظفر الدين مبلغ الف دينار مكافأة له على تصنيفه الكتاب، وتوفى ابوالخطاب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة.

وزار بغداد رجل له شهرته الواسعة وهو معروف عند جميع المثقفين العرب والمسلمين صاحب الرحلة المشهورة محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي وتعتبر زيارة ابن جبير لبغداد ثروة في أخبار بغداد وتراثها، فقد امدنا ابن جبير معلومات وافرة ومثبتة عن طرقات بغداد ودروبها وأسواقها ومتنزهاتها وقصورها ومساجدها ورُبُطِها كما اعطانا تصويرا غاية في الأهمية لطريقة التدريس المتبعة في المدرسة النظامية فمن يرجع إلى ما كتبه هذا الرحالة العربي العالم، يقف على حسن النظام والتقدم التدريسي في تلك المدرسة العظيمة والتي أدت دورها الكبير في خدمة التراث والحضارة الإنسانية

ولعل من أبرز مظاهر الارتباط العضوى ورموز عمق العلاقات بين بغداد والأندلس ذلك العالم المؤرخ المحدث الأندلسي محمد بن فتوح الميورقي والمعروف بالحافظ الحميدى، أصله من قرطبة من ربض الرصافة، صاحب بن حزم وتتلمذ عليه، رحل إلى مصر ودمشق ومكة سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦م وأقام ببغداد فتوفى فيها سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م كتب الحميدى العديد من المؤلفات ولعل أشهرها كتاب (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس) وأخباره كثيرة في كتب التاريخ، وتوفى ببغداد ودفن في مقبرة باب أبرز والتي ضمت معظم قبور الفقهاء والعلماء البغداديين ومن أبرزهم الشيخ ابن اسحاق الشيرازى والذى دفن بالقرب من قبره، وصلى عليه الفقيه الشافعي الكبير ومدرس النظامية ابوبكر الشاشي في جامع القصر وفي سنة ٤٩١ هـ نقل إلى مقبرة باب حرب ودفن عند قبر بشر بن الحارث المعروف بالحافي المتصوف البغدادى المشهور... وهكذا يؤكد الحميدى الأندلسي في حياته وموته على عمق العلاقات ومتانة الصلات بين بغداد والأندلس.

ومن الأندلسيين الذين كان لهم دورهم الكبير في التأثر والتأثير نتيجة الصلات المباشرة العالم ابوبكر محمد بن عبدالله المعافرى الأندلسي والذى قال عنه ابن بشكوال في كتاب الصلة: (هو الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس وآخر ائمتها وحفاظها)

بدأ عالمنا رحلته الى المشرق سنة خمس وثمانين وأربعمائة زار بغداد مرتين، وصحب الامام الغزالي أشهر فقهاء الشافعية في عصره والمتوفى سنة خمس وخمسمائة للهجرة والشيخ الفقيه ابابكر الشاشي الذى تولى تدريس النظامية بعد الإمام الغزالي، وغيرهما من علماء بغداد وأدبائها، ثم عاد الى الأندلس سنة ثلاث وتسعين واربعمائة، ويقول ابن بشكوال:
(انه قدم إلى اشبيلية بعلم كثير لم يدخل أحد قبله بمثله مما كانت له رحلة الى المشرق)

ان ابا بكر المعافرى الأندلسي يؤكد هو الآخر على اصالة الصلات التي كانت قائمة بين الأندلس وبغداد والافادة من تلك الصلات من أجل تطوير العلم وازدهار الآداب والفنون، كما يؤكد على أهميـة تلك العلاقات بين الأندلس العربيـة والمشرق العربي وتبادل المعلومات والخبرات وذاك وايم الحق هو الطريق الأصوب لوحدة الثقافة والفكر وتوفى المعافرى بالعدوة ودفن في فاس سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة للهجرة.

وانتشرت كتب الأندلسيـين في بغداد كما انتشرت كتب البغاددة، فقد انتشرت كتب المفسرين والمحدثين وكبار العلماء من بغداد أمثال الرازى وابن سينا والغزالي/ وكتب الأدباء والمؤرخين والجغرافيين والمتصوفة وسائر فروع العلم والمعرفة، كما انتشرت كتب الأندلسيين، وتعرف البغداديون على الكثير من المؤلفات والنتاجات العلمية والأدبية لعلماء وأدباء الأندلس ولعل أشهر الكتب التي تداولها الناس في بغداد لتقاربها من أذواقهم وحياتهم وتراثهم كتاب العقد الفريد لابن عبدربه الذى أفرد فى كتابه هذا الشيء الكثير من أدب المشارقة وجمع فيه من فنون الأخبار وروائع الحكايات وباسلوب أدبي رفيع مما جعل أهل بغداد يقبلون على قراءة الكتاب والتعرف على ما فيه من الأدب الرفيع والفن الذى يستهوى عامة الناس. ومن الغريب أن هذا الكتاب الذى يحكي في معظمه عن أدب وأخبار المشارقة مقتبسا ذلك من علماء بغداد أمثال الأصمعى والشعبي وابن قتيبة والجاحظ وغيرهم مما يدل على الارتباط وقوة الصلات الثقافية بين بغداد والأندلس، وكما كان لكتاب الأغاني دوره الكبير في نقل تراث بغداد الى الأندلس نجد كتاب العقد الفريد يظهر نتاج الأندلس على أهل بغداد ليتعرف

العلماء والأدباء والمثقفون وعامة الناس على الجهود الثقافية لعلماء العرب والمسلمين في بغداد والأندلس.

ولعل من أبرز العوامل التي ساعدت على تطوير العلاقات الثقافية وتعميقها تشجيع الخلفاء والأمراء والحكام على طلب العلم وتيسيره، وان المؤسسات الدينية والعلمية مثل المساجد والربط والخانقاهات المنتشرة في العالم الإسلامي كانت عوامل مساعدة للرحالة العلماء والأدباء في اتخاذ تلك المراكز أمكنة للاستراحة والإقامة.

والاطعام لأولئك العلماء ومن يطالع كتب الرحلات يجد أخبارا مفيدة عن تلك الأمكنة وما كانت تقدمه من تسهيلات كبيرة للرحالة العلماء. كما كانت المدارس الإسلامية التي تأسست في المشرق وبغداد بخاصة، كان لها دورها العظيم في استقطاب العلماء والمثقفين، فان تلك المدارس كانت تستقبل العلماء وتسهل لهم عملية إكمال تعليمهم وتوفير الإقامة الكريمة لهم. وهناك أسماء عديدة من العلماء من مختلف العالم الإسلامي جاؤا إلى بغداد ودخلوا مدارسها كالنظامية والمستنصرية وعاشوا فيها منتهلين من علوم تلك المدارس ومتعرفين على مجتمع بغداد وتقاليد وعادات الناس ومن ثم يعودون إلى أوطانهم والكثير منهم صار لهم شأن كبير في التاريخ.

هذه لقطات حية من تراث العلاقات الثقافية التي كانت قائمة بين بغداد والأندلس في العصر العباسي والتي تبرز دور العلم والعلماء في حياة المجتمع وتقوية الروابط بين العرب والمسلمين في عصر كانت فيه وسائل النقل في غاية التخلف ولكنها كانت صفحة مشرقة من صفحات الكفاح من أجل تحقيق الأهداف النبيلة التي يستهدفها العلم ويطلبها رجاله الكرماء.

د . حسين أمين

مكانة الخليج العربي التجارية ومصادرها
خلال العصور الإسلامية الوسطى

بحث مقدم إلى مؤتمر الدراسات التاريخية
لشرقي الجزيرة العربية
للفترة من ٢١ - ٢٧ آذار ١٩٧٧
الدوحة - قطر

بقلم

الدكتور لبيد ابراهيم أحمد
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بكلية الآداب - جامعة البصرة

الخلفية التاريخية لمنطقة الخليج العربي في عالم التجارة

لم تكن أهمية الخليج الاقتصادية مقتصرة على الحاضر بل انها تمتد الى أعماق التاريخ القديم للمنطقة. فالنصوص الآشورية والبابلية تحدثنا عن عظمة وأهمية هذه المنطقة في العلاقات التجارية مع الدولتين الآشورية والبابلية اللتين تعتبران من الدول الكبرى في تاريخنا القديم، وعن طريق هذه الصلات التجارية تحصل تلك الدول على منتجات وبضائع الخليج من أحجار ثمينة ونحاس ورصاص وحديد وبخور ولؤلؤ ومسك وتمور، وكل ما هو ضروري للتطور الحضاري الذي شهده العراق خلال تلك الفترات.

وفي المتحف العراقي ببغداد نماذج من قوارب شراعية معمولة من الفخار تذكرنا بتلك التي كانت تمخر عباب مياه الخليج، كما أن هناك اشكالا اخر من تلك القوارب والسفن الملائمة للتجارة الخارجية، وهي بدورها تعكس الحركة التجارية الفعالة للمنطقة في التاريخ القديم(١).

وهناك نصوص ترجع الى فترات مختلفة كفترة السلالة الثالثة لسرجون الاكدى وبعض الاشور من أمثال سنحاريب واشور بانيبال تلقي الضوء الواضح على متانة العلائق التجارية بينهم وبين مناطق الخليج العربي المختلفة. وفي كتاب التجارة الخارجية للفترة البابلية القديمة(٢) نصوص قديمة عن استيراد النحاس والعاج والأحجار الثمينة والتمور سواء كانت من انتاج مناطق الخليج العربي المختلفة أو بضائع مستوردة من بلدان أخر الى منطقة الخليج.

ومما لاشك فيه أن نشاط العلاقات التجارية في المنطقة يرجع بالدرجة الأولى الى الاستقرار السياسي الملحوظ الذى شهدته المنطقة خلال فترة هيمنة الدولتين الآشورية والبابلية على أجزاء واسعة من الشرق. يضاف إلى ذلك الحاجة الى استيراد المواد والبضائع نتيجة للتحولات والقفزات الحضارية التى شهدتها هاتان الامبراطوريتان.

---

(١) انظر: Leemans ; Foreign TKRADE IN Old Babylonian Period (1960) P. 2, 4, 5

طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج ١ ص ٤٣٨ ـ ٤٤٠

(٢) Leemans, op. cit. P. 2, 121

Phillips; History of oman (1964) PP. 1 - 8

كذلك طه باقر: علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب، مجلة سومر، المجلد ٥ ج ٢ (١٩٤٩) ص ١٣٣ ـ ١٣٦

أريد القول أن هذه العوامل مجتمعة أدت الى انعاش ملحوظ للمنطقة عموما كما أدت الى بروز عدد من المراكز والمدن احتلت مواقع تجارية واستراتيجية هامة واستفادت من هذا التطور الاقتصادي فأخذت تنمو بسرعة وذاعت شهرتها من أمثال منطقة (دلمون) أو تلمون و (مكان) أو (مغان) أو (مجان).

ودلمون حسب ما اتفقت أقوال المختصين بالتاريخ القديم هي البحرين الحالية وكانت تعد من الأسواق العالمية المشهورة في عالم التجارة إذ كانت تجلب اليها البضائع المختلفة من افريقيا والهند فضلا عما تصدره من تمور جيدة ولؤلؤ وأحجار ثمينة ونحاس ومواد غذائية. وفي هذه المنطقة اشتهرت مدينة (جرها) أو الجرعاء في حقل التجارة، ويقول فؤاد جميل أن سكانها كانوا أغنى سكان العالم القديم ويرجع فضل ذلك الى التجارة، فهم كانوا يصدرون البخور بكثرة الى بابل وكانت البخور من البضائع التجارية الهامة(٣).

ويحدثنا المختصون أن مغان أو مجان هي عمان الحالية التي لعبت دوراً «فعالا» في الحركة التجارية القديمة بما تصدره من لؤلؤ وعاج وأحجار ثمينة، ويذكر ليانز أن شهرتها متأتية باعتبارها مصدرا «رئيسا» للنحاس(٤).

استمرت أهمية الخليج العربي التجارية والاقتصادية بشكل بارز وفعال حتى مجيء الأخمينين وتصارعهم مع اليونان حول السيطرة على مناطق نفوذهم مما أدى بدوره الى حالة من الارتباك والقلق السياسي في المنطقة بشكل عام وهذا بدوره شكل خطرا «جسيا» على النشاطات التجارية وتجارة الخليج خاصة ويبدو أن الخطوط التجارية خلال فترة القلق السياسي هذه قد تحولت من الخليج الى البحر الأحمر، لكن هذا التحول لايعني بأية حال موت الحركة التجارية في منطقة الخليج، وتتضح هذه الأهمية في المخطط الذى رسمه الاسكندر المقدوني إذ أنه على الرغم من وضوح هدفه السياسي في السيطرة على الشرق والوصول الى الهند لكنه انما أراد أيضا السيطرة على منابع التجارة التي كانت خاضعة آنذاك للتجار العرب، وبذلك فانه أراد أن يضم المنطقة كي يوجه ضربة الى السيادة العربية على التجارة العالمية

---

(٣) فؤاد جميل: الخليج العربي فى مدونات المؤرخين والبلدانيين الاقدمين مجلة سومر مجلد ١٩٦٦/٢٢ ص ٥٢، ٥٤، محمد أمين واصف. الجرعاء أو الجرعة. مجلة لغة العرب ج ٧ (السنة الرابعة) ص ٤١٧ ـ ٤١٩، صفحة من تاريخ الخليج العربي، مجلة لغة العرب (السنة الثانية) ج ١ ص ١٢٥

(٤) Leemans, op. cit P. 2

ويتجلى ذلك في تأسيسه المدن التي لها صفات وسمات تجارية (٥)،وكانت منطقة الخليج العربي من المناطق البارزة في هذا المخطط

غير أن الصراع الفارسي البيزنطي السياسي هو الآخر يعد عاملا من عوامل اضعاف النشاطات التجارية في منطقة الخليج العربى، ومن الممكن القول انه بعد أن تم اكتشاف الرياح الموسمية والوصول الى الهند دون وساطة التجار العرب انكمشت مكانة الخليج التجارية الى حد ملحوظ ، وانتعشت الطرق التجارية على البحر الأحمر.

ومع هذا فان دور التاجر العربى في نقل التجارات عبر الخليج العربى ثم الى منطقة البحر المتوسط ظل مستمرا، فكانت مراكز أمثال يتلوس، وجرها، وغيرها تمثل مراكز تجارية هامة، ففي جرها عثرت بعثة تنقيبية على بقايا لقبور تعكس الى حد كبير مكانة تلك المدينة (٦).

وقد جاء الفتح العربي الإسلامي للمنطقة بتطورات بالغة الأهمية ليس فقط على الصعيدين الديني والسياسي بل وكذلك على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادى، فقد استطاعت الجيوش الإسلامية خلال فترة خلافة أبي بكر (رض) أن تدمر حركة الردة التي شهدها ساحل الخليج العربي الغربي وبذلك اخضعت سيطرتها للدولة الإسلامية، وقد لعبت بعض القبائل العربية في منطقة الخليج كقبيلة عبدالقيس وبكر بن وائل دورا «بارزا» في المشاركة في فتوح العراق، وقد تم للعرب السيطرة على منطقة الخليج زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) هذا من الجانب السياسي.

أما من الجانب الاقتصادى والتجارى، فان منطقة الخليج العربي ظلت تشهد مرحلة انكماش واضحة، وان الفعالية التجارية كانت متمثلة بالطرق التي تمر عبر البحر الأحمر الى البحر المتوسط سواء كانت بحرية أو برية عبر مكة الى منطقة البحر المتوسط وقد يرجع السبب الى أن موقع السلطة المركزية السياسي كان في المدينة ومكة خلال فترة الخلفاء الراشدين ثم في

---

(٥) انظر أسد رستم : تاريخ اليونان ص ٣١، ارنولد ولسن : الخليج العربي (ترجمة د. عبدالقادر يوسف) الكويت ص ١٢١

(٦) جزيرة تيلوس وارادوس : مجلة لغة العرب (السنة الرابعة) ج ٧ ص ٤٢٠، رزوق عيسى: قبور غريبة، لغة العرب ص ٢٧٤

بلاد الشام زمن الأمويين، وكان لهذا الموقع السياسي أثر واضح في تركز العلاقات التجارية ووجهتها.

فالعلاقات التجارية اتجهت صوب هذه المنطقة ثم نحو الغرب. ولكن منطقة الخليج العربي شهدت للمرة الثانية تحولا واضحا في مكانتها التجارية، ودورها في عالم التجارة والاقتصاد برز بعد أن استقرت الدولة العربية الإسلامية واخضعت المناطق المختلفة الواسعة تحت سلطاتها في زمن العباسيين. ان العباسيين كما هو معروف اتخذوا بغداد عاصمة لملكهم، وانهم شجعوا التجارة والاستيراد نتيجة للتحولات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي.

ولهذا فان اتجاه العباسيين نحو استيراد البضائع والمواد تلبية للاحتياجات الكبيرة للبلاط والطبقة الغنية من جهة والتطور الحضارى والعمراني الواضح من جهة ثانية ساعد على نشاط الحركة التجارية وتشابك العلاقات التجارية ليس مع المدن العراقية فقط بل ومع أقطار الخليج والعالم الخارجي أيضا. ان مجرد تصفح للكتيب المنسوب للجاحظ «التبصر بالتجارة» يرينا سعة العمليات التجارية وضخامتها فقد كانت تأتي الى بغداد مواد وبضائع لا تحصى من الهند والصين وافريقيا ومصر والحجاز واليمن والغرب. فمن الهند كان يؤتى بالتمور على اختلاف انواعها والفيلة والياقوت، ومن الصين المنسوجات الحريرية والتوابل والحبر وأواني الذهب والفضة ومن الجزيرة العربية الخيول، ومن اليمن الجلود المدبوغة والروائح والصمغ والبن أما ماء الورد والمفروشات الكتانية فكان مصدرها بلاد فارس ومن عمان وساحل الخليج اللؤلؤ[٧].

وقد أخذت العمليات التجارية المتعلقة بالمصارف ونشاط مركز التجار واتساع علاقاتهم، وذلك بالتبادل البضائعي يسير سيرا «سريعا» بمرور الزمن، وعلى الرغم من أن المجال هنا لا

(٧) كتاب التبصر بالتجارة المنسوب للجاحظ في مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ١٣ (١٩٣٢) ص ٣٢٦ ـ ٣٥١
وعن انتعاش الخليج في عالم التجارة زمن العباسيين انظر كتاب التبصر بالتجارة المنسوب للجاحظ في مجله المجمع العلمي العربي. مجلد ١٢ (١٩٣٢) ص ٣٢٦ ـ ٣٥١؛ المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٣٨، ٤٠٥؛ جورج فضلو حوراني.
العرب والملاحة في المحيط الهندى (ترجمة د. يعقوب بكر) ص ١٧٣، ١٧٤؛ ارنولد ويلسون. الخليج العربي ص ١٢١ ـ ١٢٣
د. عبدالعزيز الدورى. تاريخ العراق الاقتصادى
Thompson; Economic and Social history of the Middle Ages (1928) P. 355.

يتعلق بهذا الأمر إلا أنه من الممكن القول بأن منطقة الخليج العربي شهدت طفرات وقفزات واسعة في تشابك العلاقات التجارية مع الخارج لاستيراد الحرير والعاج والروائح والأخشاب والعبيد والذهب والفضة من أجزاء مختلفة من الامبراطورية الاسلامية.

ان الباحث في العلاقات التجارية الخاصة بأقطار الخليج العربي يجد بأن هناك العديد من الكتابات التي توضح عمق تلك العلاقة ومتانتها. إذ انه عن طريق البصرة مثلا كانت بغداد تتصل بالبحرين بحراً «وبرا»، وكذلك تتصل باليمامة عن الطريق البرى، وبعمان عن طريق البر والبحر أيضا «فضلا» عن الطرق البرية والبحرية الاخر التي توصل بغداد بالحجاز واليمن والاجزاء الجنوبية والغربية الأخرى من الجزيرة العربية(٨).

لقد استمرت هذه النهضة التجارية في منطقة الخليج العربي خلال قرون متعددة وحتى القرن الحادى عشر والثاني عشر للميلاد تقريبا.

فكانت الحصيلة المهمة التي تولدت من جراء هذا التطور استعادة المراكز التي كانت تتمتع في الماضي القديم زمن الآشوريين والبابليين من أهميتها ومكانتها وسمعتها التجارية، فضلا عن ظهور مراكز ومدن أخر برزت بسبب وقوعها على الطرق التجارية الآتية من الهند والصين وافريقيا الى بغداد، أهمها مدينة البصرة ثغر الخليج ومدينة هجر وصحار ودبا ودارين ونزوة... الخ.

ولم يقتصر دور هذه المراكز التجارية والمدن على ما تقوم به كمناطق ترانسيت لنقل المواد والبضائع وأخذ الضرائب على السفن المارة بها، بل تعدته الى مرحلة المشاركة الفعلية في انتاج المواد التجارية وفي خلق العديد من التجار العرب الذين ساهموا مساهمة فعالة في العملية التجارية، أو عن طريق ما تنتجه من انتاجات اقتصادية زراعية أو صناعية، أو عن طريق النشاطات التجارية التي قامت بها.

ان هذه النهضة التجارية الكبيرة التي تولدت نتيجة للاستقرار السياسي والحاجة الماسة

(٨) ابن حوقل المسالك والممالك ص ٢١، ٣٥، ٣٨. الاصطخرى، الأقاليم (١٨٣٩) ص ١٥؛ ابن الفقيه الهمداني: البلدان (ليدن) ص ٣٠؛ ابن رسته: الاعلاق النفيسة ص١٨٠، ١٨٤؛ ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٥١. وعد الطرق بين البصرة وأقطار الخليج العربي د. عبدالجبار ناجى: البصرة وأقطار الخليج العربي مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٧٣ ص ١٤٣.

الى الاستيراد ولدفع الحركة الحضارية والعمرانية التي تشهدها المنطقة أعادت منطقة الخليج الى أهميتها السابقة القديمة وهيأت مجالات فكريا وعلميا «واسعا» يتمثل بالاشارات والنصوص والكتابات المركزة على منطقة الخليج العربي وأهم المراكز والمدن الواقعة عليه، وهي في حقيقتها تمثل مصدرا «رئيسا» للتحدث عن مكانة هذه المنطقة وسماتها الاقتصادية.

مصادرنا عن مكانة الخليج العربي التجارية

ان أكثر ما يواجهه الباحث في التاريخ الاقتصادى للفترة الاسلامية في العصور الوسيطة ان كان في العراق أو في منطقة الخليج العربي على السواء مشكلة رئيسة تتمثل بقلة الوثائق على عكس ما هو موجود من وثائق عن الفترة التاريخية الحديثة والمعاصرة بل وعلى العكس مما هو موجود من وثائق البردى ووثائق الجنيزة فى مصر خلال العصور الاسلامية الوسطى، تلك الوثائق التي امتدت زمنيا حتى فترات تاريخية إسلامية مبكرة، والتي من نتائجها انها غيرت وابتت العديد من الأمور التاريخية في الكتب التاريخية المعروفة(٩).

ومع هذا كله فان هناك عددا من وثائق الجنيزة قد تعدت حدود مصر فشملت المعلومات التي وردت فيها مراكز خليجية كالبصرة والبحرين مثلا.

والمعروف ان وثائق الجنيزة هذه عبارة عن وسائل متبادلة بين التجار المسلمين واليهود في أجزاء مختلفة من الامبراطورية بشأن الأعمال التجارية، وانها حفظت حماية لاسم الله تعالى من التلف أو الضرر. وهي كما درسها واختص بها البروفسور كويتاين (Goitein) تتناول قضايا متعددة أهمها النواحي التجارية والاقتصادية كتسمية البضائع التي يحتاجها التجار في كل منطقة يتاجرون بها، أو أنواع ومقادير الضرائب المفروضة على التجارات والمصاعب التي يواجهها التجار في تنقلاتهم وغيرهـا من المواضيع الاقتصادية(١٠).

---

(٩) انظر Bernard Lewis; scurces for the Economic History of Middle East in Islam in history (London) 1973) P. 83.

(١٠) عن هذه الوثائق انظر:
Goitein ; studies In Islamic history and institutions (1966) P. 238; idem the Commercial mail service in Medieval Islam, in JAOS (1964) idem article (Geniza) in EI. (2) idem Commercial and family partnerships in the countries of medieval Islam, in IS (Islamic studies) 1964 P. 315.

ولكن القليل من هذه الوثائق متعلق كما قلت أعلاه بمنطقة الخليج وهي تحتاج الى جمع وتصنيف وترتيب ودراسة كي يمكن الاستفادة منها.

فهناك بضعة رسائل صدرت من عدد من الشخصيات في الخليج العربي وعدن الى اخوان لهم في القاهرة والهند بشأن أمور تتعلق بمشاركتهم التجارية وبارسال بعض البضائع كالكافور أو المواد الأخر[١١].

والى جانب وثائق الجنيزة القليلة هذه فان وثيقة أخرى تشير الى مكانة التجار في منطقة الخليج العربي والتي احتواها كتاب السجلات المستنصرية، وهي عبارة عن الرسائل التي كان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يرسلها الى دعاته في شتى الأرجاء لأمور تتعلق بالدعوة الاسماعيلية ولكنها في نفس الوقت تعكس لنا أموراً لها أهميتها في هذا المجال. ففي رسالة ترجع الى سنة ٤٨١ هـ ورد ما يلي: «ثم شفعت ذلك بما اعتمده المعروف باسماعيل ابن ابراهيم الداعي كان بعمان من التخلي عن الخدمة والركان في طلب التجارة»[١٢].

وفي هذا الصدد يمكننا ذكر كلمة عن مصدر آخر لم تستكمل الاستفادة منه على الوجه الأكمل بالرغم من استمرار العمل فيه ذلك هو نتائج التنقيبات الأثرية في منطقة الخليج العربي. والمعروف أن العلماء الأثريين قد أفادوا الى درجة كبيرة من النتائج المهمة التي تحققت بفعل التنقيبات التي جرت وتجرى في مناطق مختلفة من الخليج بالنسبة للتاريخ القديم للمنطقة. فالبعثة التنقيبية العراقية التي قامت بتنقيبات في مستوطن الدريحانية في امارة رأس الخيمة في دولة الامارات العربية المتحدة قد عثرت على فخاريات ملونة ومحززة ومزججة، وعلى أواني معدنية ونحاسية وعلى مجموعة من المسكوكات تقدر بمائتي مسكوكة بينها أربعة فضية والباقي نحاسية.

كما عثرت البعثة التنقيبية العراقية التي زاولت تنقيباتها في اقليم عجمان واقليم المنامة،

---

(١١) انظر

S. shaked; A tentative bibliograpgy of Geniza documents (1964) P. 78, 102, 106, 117,

(١٢) السجلات المستنصرية (تحقيق عبدالمنعم ماجد) (١٩٥٤) ص ١٦٨

واقليم مصفوت على فخاريات واثار ومسكوكات(١٣).

كما تمت تنقيبات أثرية في كاظمة في الكويت. وفي البحرين تم العثور على فخاريات واثار ترجع ـ كما يرى الأستاذ جيفرى بيبي (Bibby)في كتابه (Looking for Dilmun)(١٤) ـ الى القرن الثاني عشر للميلاد.

وهناك اثار أخر وجدت في موضع (كلوا) ترجع الى القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. هذه النتائج مجتمعة تحتاج الى دراسة وبحث لكونها تمثل صفحات مشرقة من تراث هذه المنطقة وبذلك يصبح من الميسور الاستفادة منها في الكتابة عن تاريخ المنطقه الاقتصادى. فالنقود مثلا «تعد مصدرا حيويا ومهما» لكل باحث فى التاريخ الاقتصادى لأية منطقة فهي تعكس أمورا هامة تتصل بالحياة التجارية والوضع الاقتصادى لمنطقة الخليج العربي وسعة العلاقات التجارية مع الأقطار الأخر.. كما أن دراسة قطع الفخار والأواني المعدنية والزجاجيات تمثل بدورها قطاعا «اقتصاديا» واضحا متمثلا بالصناعات الموجودة في المنطقة. ان أبرز مثال عن شمولية الاستفادة من الملقى والاثار الناتجة عن التنقيبات، ما تم العثور عليه فى البحرين. فلقد عثر على مجموعة من القبور القديمة وخاصة فى مدينة جرها أو الجرعاء حيث استطاع الباحثون في التاريخ القديم لهذه المدينة أن يستنتجوا من هذه المكتشفات أمورا تتعلق برفاهية المدينة وغناها وكثرة الذهب والمعادن فيها وبأنها سوق تجارية مشهورة(١٥).

وإذا ما كان استغلال الباحثين للوثائق وأثار التنقيبات في مجمل دراساتهم عن الحياة الحضارية والاقتصادية قليلا لمنطقة الخليج العربي فانهم بالمقابل قد استفادوا فائدة غير قليلة من الأعمال المجيدة والتأليف الكثيرة التي ألفها الكتاب المسلمون القدامى.

(١٣) ربيع القيس : تحريات وتنقيبات أثرية في دولة الامارات العربية المتحدة (الخليج العربي)، منير يوسف طه: تنقيبات في مستوطن الدريجانية في امارة رأس الخيمة/ دولة الامارات العربية المتحدة، في مجلة سومر مجلد ١، ٢، مجلد ٣١ ص ٢٨٣ ـ ٣٠٩، ص ٧٥ ـ ١٥٥

(١٤) انظر J. Bibby; looking for Dilmun (1969) P. 107

(١٥) رزوق عيسى : قبور غريبة قديمة، مجلة لغة العرب، السنة الثانية ج ٧ ص ٢٧٤

والحمد لله فان المكتبة العربية غنية بأمثال هذه التآليف سواء كانت تاريخية أو أدبية أو جغرافية أو كتب رحلات كتبها مؤرخون عرب مشهورون ولم يكن هدفهم التحدث عن اقليم من الأقاليم أو جزء من الامبراطورية الاسلامية دون غيره من الأجزاء وإنما كان هدفهم التحدث عن أجزاء الامبراطورية عموما «بصورة متساوية وبمنهج متماثل تقريبا». وبالتأكيد فقد توفرت لنا معلومات كثيرة خاصة بمنطقة الخليج العربي من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

فالمؤرخون الرواد من أمثال أحمد بن يحيى البلاذرى المتوفى سنة ٨٩٢/٢٧٩ وأحمد بن واضح اليعقوبي المتوفي ٨٩٧/٢٨٤ وخليفة بن خياط المتوفى ٢٤٠ هـ/٨٥٤ والطبرى المتوفى ٩٢٢/٣١٠ ومسكويه المتوفى ١٠٣٠/٤٢١ وصاحب كتاب العيون والحدائق وابن الجوزى المتوفى ١٢٠٠/٥٩٧ وابن الأثير المتوفى ١٢٣٢/٦٣٠ ويوسف بن يعقوب ابن المجاور المتوفى ١٢٩١/٦٩٠، وسليل بن رازق وغيرهم من المؤرخين، يقدمون لنا صورا سياسية متفرقة عن الأحداث التي شهدتها الدولة الاسلامية عبر قرون بعضهم يذكرونها حسب السنوات. فالباحث في التاريخ السياسي للبحرين أو عمان أو العراق مثلا «يجد بالتأكيد أخبارا» ومعلومات متناسقة الى حد كبير في تلك المؤلفات الضخمة، ومع هذا كله فان فائدتها قليلة عن الوضع التجارى والاقتصادى للخليج العربي خلال العصر الوسيط أو عن المكانة الاقتصادية للمراكز التجارية الواقعة على الخليج من أمثال البصرة والبحرين وعمان. غير أن هذا لا يعنى بأية حال خلو تلك المصادر التاريخية من أية اشارة مفيدة عن تلك الأمور إذ أن هناك روايات غير قليلة عن بعض الأحداث السياسية ولكنها تلقي بصورة غير مباشرة أضواء مختلفة عن أمور اقتصادية مختلفة من أمثال:

فرض انواع من الضرائب أو الغائها، وارتفاع وارد أية منطقة أو انخفاضه، والوضع المالي للدولة، والوضع النقدي، ومدى تشجيع الدولة للتجار أو بالعكس مدى الاساءة اليهم والتضييق على نشاطاتهم، وارتفاع أسعار بعض المواد الغذائية او انخفاضها، وندرة السلع وشحتها أو وفرتها، وذكرهم الجفاف وحوادث الطاعون والفيضانات... الخ والأمثلة عن هذه المواضيع كثيرة منها على سبيل المثال أن اليعقوبي يذكر في تاريخه أن الخليفة العباسي الواثق «فرق على قوم من التجار أموالا» جمة، وبنى لقوم فاسقط ما كان يؤخذ ممن يرد من بحر الصين

من العشر[١٦] ويذكر االصابي في كتابه الوزراء، ومسكويه في تجارب الأمم انه في سنة ٣٠١ هـ ابطل الوزير علي بن عيسى «المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر بالأهواز وحصن مهدى ونهر السدره».. الخ[١٧] ويشير ابن الجوزى في سنة ٥٥٥ هـ «اسقطت الضرائب وما كان ينسب الى سوق الخيل والجمال والغنم والبيع في جميع أعمال العراق»[١٨]

أن شح المعلومات المفصلة المتعلقة بالأوضاع التجارية والاقتصادية في منطقة الخليج العربي لم تقتصر على الكتب التاريخية فقط بل وتعدتها الى الكتب الخاصة بالأمور الأدبية وكتب التراجم. فالهدف الرئيس لمثل هذه الكتب لم يكن مركزا على «الشؤون الاقتصادية وانما على مشاركات الشخصيات الأدبية والعلماء والمفكرين الذين يترجم لهم، وكذلك عن اثارهم ومؤلفاتهم وعن جوانب شتى من حياتهم. ومع كل ذلك فاننا دون شك نجد في أعمال ضخمة ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أو معجم الأدباء لياقوت الحموى، أو في العقد الفريد لابن عبد ربه حكايات ونصوصا» تسلط أضواء هامة على بعض الأمور الاقتصادية ويمكن أن تقدم لنا فائدة غير قليلة عن تلك الأمور.

ومن الأمثلة على مدى الاستفادة من هذه الكتب في الكتابة عن التاريخ الاقتصادى ما أشار إليه البروفسور برنارد لويس من اشارات طريفة لبعض النصوص الواردة في كتاب الأغانى ولبعض الأشعار وما تعكسه من جوانب اقتصادية فضلا عن الأحوال الاجتماعية[١٩]. وهناك بالاضافة الى ذلك عدد غير قليل من تلك النصوص في أمثال تلك الكتب الأدبية تفيدنا في موضوع الأحوال الاقتصادية في الخليج العربي منها: يقول الأصفهانى فى حديثه عن الرماح الخطية ما يلى ..
«رماح تنسب الى الخط وهي من جزيرة بالبحرين ترفأ اليها سفن الرماح»[٢٠]

وفي مجال آخر يورد رواية عن تاجر قدم من هجر وكان «يبيع الخمر قدم بها من هجر»[٢١].

(١٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ليدن ١٨٨٣، ص ٥٩٠
(١٧) الصابى، الوزراء ص ٢٨٥، مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ٢٨
(١٨) ابن الجوزى: المنتظم ج ١٠ ص ١٩٤
(١٩) Bernard LEWIS : op . cit. P 90
(٢٠) ابو الفرج الأصفهاني: الأغاني (١٩٣٨) ج ١٠ ص ٣٠٣
(٢١) نفس المصدر ج ٦ (١٩٢٥) ص ١٢٨

وفيما يتعلق بهجر أيضا «يقول الأصفهاني ان شخصين أقبلا من البحرين ومعهما» انواط ـ أي جلل ـ من تمر هجر»(٢٢) وفي رواية أخرى يشير الاصفهاني خلال حديثه عن العنبر فيقول «اختير عنبرها من شجر عمان»(٢٣) ويتحدث البكري في كتابه معجم ما استعجم عن قطر فيقول انها تشتهر بالابل الجياد ويستشهد بقول جرير:

لدى قطـريات إذا ما تغولت

بناء البيد غاولن الحزوم القياقيـــــــا

ويذكر أيضا «انها تشتهر بالخمر مستشهدا» بالشعر الاتى :

تذكـــر ســـاداتـــا أهلهـــم

وخافـــوا عمان وخافـــوا قطر(٢٤)

ان الاشارات المارة الذكر ربما ليست جديدة كل الجدة إذ اننا نجد أمثالها بالكتب الجغرافية مثلا، لكن المهم ان هذه الاشارات تثبت لنا تلك المعلومات وتعطيها وجها «مصدريا جديدا».

ومما يجب قوله في هذا المجال أن المعلومات الجيدة والمفصلة الخاصة بالأمور التجارية والاقتصادية لمراكز ومدن الخليج العربي المشهورة تأتي بصورة خاصة من الكتب والمصادر الجغرافية. والحقيقة فان هناك مكتبة جغرافية إسلامية ضخمة يمكننا تصنيفها الى مايلى: مجموعة كتب المسالك والطرق وهي مجموعة من الكتب الفت عن طريق البريد والتجارة والنقل لابد لأى باحث عن التجارة في منطقة الخليج العربي وغيرها من المناطق أن يرجع اليها للتأكد من المسافات بين أجزاء الامبراطورية والطرق التي تربـط بينهـا من أمثـال: مسـالك الممالك للاصطخرى ومسالك الممالك لابن حوقل ومسالك الممالك لابن خرداذبـه ومسـالك الممالك للبلخي وغيرها. والمجموعة الثانية هي المعروفة بالكتب الجغرافية الوصفية وهي بدورها تقدم لنا صورا مختلفة عن النشاطات والأحوال التجارية وعن انتاجات المراكز والمدن الواقعة على

(٢٢) نفس المصدر ج ٢ (١٩٢٨) ص ٣٨٩. ج ٣ (١٩٢٩) ص ٥٤

(٢٣) الأغاني ج ١٦ (١٩٦١) ص ٢٥٩

(٢٤) البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع تحقيق مصطفى السقا (١٩٤٩) ج ٣ ص ١٠٨٢

الخليج العربي وعن العلاقات التجارية بين هذه المراكز والعالم الخارجي وتتطرق أيضا الى انواع الضرائب والمكوس المفروضة على التجارات ومقاديرها، فضلا عن تناولها لبعض الملامح الاجتماعية كتسمية القبائل العربية القاطنة في الخليج مثلا، ومن بين هذه الكتب كتاب الأقاليم للاصطخرى المتوفى ٩٥٧/٣٤٦ وصورة الأرض لابن حوقل المتوفى ٩٧٧/٣٦٧ والخراج لقدامة بن جعفر وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي المتوفى ٩٨٥/٣٧٥ ومروج الذهب ومعادت الجوهر لأبي الحسن المسعودى المتوفى ٩٥٧/٣٤٦ ومعجم ما استعجم لأبي عبدالله البكرى المتوفى ١٠٩٤/٤٨٧ ومعجم البلدان لياقوت الحموى المتوفى ١٢٢٨/٦٢٦. وهذه المجموعة مهمة لأى باحث عن الأمور الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية بشكل خاص .

أما المجموعة الثالثة فهي المتمثلة بكتب الرحلات، وهي مجموعة لها قيمة عملية كبيرة إذ أن الأوصاف التي تقدم من قبل الرحالة لها من الواقعية والإيجابية، خلال فترة زيارة الرحالة الى هذه المدينة أو تلك، قدر كبير. فملاحظات ومذكرات سليمان التاجر في الرحلة المشهورة برحلة السيرافي عن الطريق التجارى البحرى عبر الخليج العربي الى الهند والصين لها أهميتها في المجال الاقتصادى والتجارى.

وملاحظات ناصر خسرو في كتابه سفرنامه عن البحرين خلال أيام القرامطة، والبصرة، لها قيمة علمية وعملية أيضا، وكذلك الحال بالنسبة الى ملاحظات ابن بطوطة عن جزيرة (مصيرة) وعن عمان والبحرين والبصرة، والمعلومات الواردة في كتاب الرحالة الصيني (جان جوكوا) المتعلقة بالتجارة العربية الصينية في القرن الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، والمعلومات الواردة في كتاب شرف الزمان للمروزى عن الصين والترك والهند.

ولعل من المفيد أن تستشهد بعدد من أقوال كل مجموعة من المجاميع الثلاثة المذكورة أعلاه بالنسبة للحياة الاقتصادية والتجارية في منطقة الخليج العربي فالاصطخرى في المسالك يذكر المسافات فيقول. «بين عبادان والبحرين (١٥)مرحلة وبين البحرين وعمان حوالي الشهر»[٢٥] ومن ملاحظاته الطريفة عن الطرق يقول ان طريق عمان طريق «يصعب سلوكه في البرية لكثرة القفار بها وقلة السكان وانما طريقهم في البحر الى جدة فان سلكوا على السواحل

(٢٥) الاصطخرى : مسالك الممالك ص ٧٩

من مهره وحضرموت الى عدن(٢٦). ويستمر قائلا «وكذلك ما بين عمان والبحرين فطريق شاق يصعب سلوكه لتمانع العرب فيما بينهم بها»(٢٧) ويقول عن طريق عبادان ـ البحرين «وأما ما بين البحرين وعبادان فغير مسلوك وهو قفر والطريق فيها على البحر»(٢٨).

والاصطخرى يفضل الطريق الساحلي بين البصرة والبحرين قائلا «انه يبلغ (١٨) مرحلة» في قبائل العرب ومياههم مسلوك عامر غير انه مخوف»(٢٩) ويكرر ابن حوقل في كتابه المسالك نفس المعلومات السابقة.

والاصطخرى اضافة الى تلك المعلومات يقدم لنا أوصافا «بعضها هام فيما يتعلق بالمنطقة فيقول عن (خارك) انها من بين الجزائر التي يضمها البحر(٣٠). اى الخليج. وعن جزيرة بني كاوان انها المعروفة بـ (لافت) وبها مدينة(٣١).

ويقول عن عمان انها «كثيرة النخيل والفواكه الجرمية ـ اى فواكه المناطق الحارة ـ من الموز والرمان والنبق. وقصبتها صحار وهي على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب» ويتحدث عن أهمية صحار وعمرانها وغناها(٣٢). أما عن البحرين فيقول ان مدينتها هجر وهي كثيرة التمور(٣٣). وابن خرداذبه يذكر الطريق من البصرة الى عمان مع ذكر المحطات والمراكز التي يمر بها المسافر(٣٤). وهو في نفس الوقت يقدم لنا معلومات اقتصادية جيدة، اذ يقول أن وارد اليمامة والبحرين كما جاء في سنة ٢٣٧ هـ ٥٠٠،٠٠٠ من العين و ١٠،٠٠٠ دينار وارتفاع عمان ٣٠٠،٠٠٠ دينار(٣٥) ويكرر المقدسي نفس المعلومات التي أوردها ابن خرداذبه.

ونشير من المجموعة الثانية الى ابن حوقل في صورة الأرض إذ يقول عن (اوال) في

---

(٢٦) الاصخرى : الأقاليم ص ١٥، ابن حوقل : المسالك ص ٣٥

(٢٧) الأصخرى : الأقاليم ص ١٥، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٤٧

(٢٨) الاصطخرى الأقاليم ص ٥: ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٣٥؛ صورة الأرض ص ٤٧

(٢٩) ابن حوقل : المسالك ص ٣٥

(٣٠) الاصطخرى : المسالك ص ٧٠

(٣١) ن . م . ص ٧٠

(٣٢) ن . م . ص ٢٧

(٣٣) ن . م . ص ٢٣

(٣٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٦٠، ١٩٣

(٣٥) ن . م . ص ٢٤٩، ٢٥١. المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٠٥

البحرين انها «جزيرة لأبي سعيد بها الضريبة العظيمة على المراكب المجتازة بهم وبها أموال وعشور ووجوه مرافق وقوانين ومراصد وضروب مرسومة من الكلف الى ما يصل اليهم من بادية البصرة والكوفة وطريق مكة[٣٦]. وعن جزيرة (خارك) يقول ابن حوقل انها تقع مقابل جنابة «وبه موضع اللؤلؤ يخرج منه الشيء اليسير إلا أن النادر إذا وقع من هذا المكان فاق في القيمة. ويقال ان الدرة اليتيمة وقعت من هذا المعدن[٣٧].

ويذكر أيضا «قوله .

«بعمان وبسرنديب في هذا البحر معدنان للؤلؤ[٣٨].

وابن الفقيه الهمداني يذكر في كتابه البلدان نقلا «عن رحلة سليمان التاجر عن الرحلة من البصرة الى عمان في سفن تسمى بالسفن الصينية فيقول «فاذا عبى المتاع استعذبوا الماء الى موضع يقال له مسقط وهو آخر عمان... وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بني الصفاق وجزيرة ابن كاوان..»[٣٩].

ويشترك ابن الحائك الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب بوصف البحرين ومدينة القطيف فيقول عنها انها «سوق بني محارب من عبدالقيس ومنازلها مادار بها من قرى البحرين فالقطيف موضع نخل وقرية عظيمة الشأن وهي ساحل»[٤٠] وهناك معلومات مهمة في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي منها انه يتكلم عن اللؤلؤ فيقول «المعادن اللؤلؤ في هذا الاقليم بحدود هجر يغاص عليه في البحر بازاء اوال وجزيرة خارك..»[٤١] فيتحدث عن البحرين فيقول انها كثيرة النخيل وعامرة وهي معدن البحر[٤٢]. أما عن مدينة صحار بعمان فيقول انها قصبة عمان «ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه عامر أهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات... اسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر... دهليز الصين

---

(٣٦) ابن حوقل : صورة الأرض (بيروت) ص ٣٣

(٣٧) ن . م . ص ٥٢

(٣٨) ن . م . ص ٥٢

(٣٩) ابن الفقيه الهمداني : البلدان (١٨٨٥) ص ١١

(٤٠) الهمداني : صفة جزيرة العرب، تحقيق الأكوع (١٩٧٤) السعودية، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠

(٤١) المقدسي : المصدر السابق ص ١٠١

(٤٢) ن . م . ص ٩٣ ـ ٩٤

وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن»(٤٣).

وللبكرى في معجم ما استعجم أقوال كثيرة عن قرى ومدن الخليج العربى ومنها انه يقول عن دارون أو دارين بأنها مرفأ سفن الهند يأتيها أنواع الطيب فيقال مسك دارين وطيب دارين وفيها خمر(٤٤).

ويشير الى قطر بأنها بين البحرين وعمان واليها تنسب الابل الجياد(٤٥). وأخيرا» قال لابد من الاستشهاد ببعض ما قاله ياقوت الحموى وأبو الفداء في تقويم البلدان عن بعض مراكز الخليج العربى فيقول عن الاحساء انها بلدة ذات نخل كثير(٤٦). والقطيف على خط البحر وفيها مغاص اللؤلؤ وفيها نخيل أيضا»

«وللقطيف خور من البحر يدخل فيه المراكب الكبار الموسقة»(٤٧) ويكرر ما سبق قوله المقدسي عن صحار، ويذكر مسقط بقوله انها من نواحي عمان مما يلي اليمن على ساحل البحر(٤٨) وعن (دبا) في عمان يقول انها مدينة قديمة مشهورة وتعتبر سوقا» من اسواق العرب(٤٩).

ويشير ابو الفداء الى ظفار فيقول انها «مدينة على ساحل خور... ولا تخرج المراكب من ظفار في هذا الخور والا بريح البر... وظفار قاعدة بلاد الشحر ويوجد في أراضيها كثير من نبات الهند مثل النارجيل»(٥٠).

ومن المجموعة الثالثة والأخيرة نذكر رحلة سليمان التاجر الذى يصف الطريق من سيراف الى مصر فيقول «ومراكب أهل سيراف إذا وصلت في هذا البحر المقيا من عن بحر الهند فصارت الى جدة أقامت بها ونقل ما فيها من الأمتعة التى تحمل الى مصر فى مراكب

(٤٣) ن . م ص ٩٢ ـ ٩٣
(٤٤) البكرى : معجم ما استعجم ج ٢ ص ٥٣٩
(٤٥) ن . م . ج ٣ ص ١٠٨٢
(٤٦) ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٩٩
(٤٧) ن . م . ص ٩٩
(٤٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٥٢٩
(٤٩) ن . م . ج ٣ ص ٣٦٩
(٥٠) ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٩٣

لقد جاءت الحملة الضارية على السنة النبوية كجزء من خطة واسعة من مخطط التغريب والغزو الفكرى الواسع المركز الذى يستهدف سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والشريعة الإسلامية والقرآن الكريم والذى كشفت عنه مخططات التبشير منذ أكثر من قرن من الزمان، وقد جُنِّد له عدد ضخم من خصوم الإسلام من المستشرقين ومن دعاة التغريب وأتباع مدارس الإرساليات في المشرق في محاولة يائسة لتدمير هذه المنابع الأصيلة من الفكر الإسلامي وخاصة في مجال العقائد والقيم الأساسية التي قام عليها المجتمع الإسلامي.

«لقد جند الاستعمار بعض المستشرقين - كما يقول الدكتور مصطفى السباعى - لتسميم هذا المنبع الروحي، فنصبوا الفخ باسم البحث العلمي والتفكير الحر، وجاء نفر فوقعوا في الفخ، وراحوا يروجون بضاعة الغزاة، إما عن جهل بحقيقة التراث الإسلامي، أو عن انخداع بالأسلوب العلمي المزعوم، وإما عن رغبة في الظهور بمظهر التحرر العقلي وشجاعة الرأى، وإما عن انحراف فكرى ووجداني بتأثير الاستهواء».

ويشير الباحثون في هذا المجال إلى أن الحملة على السنة كانت قديمة، وأن الذين جددوها من المستشرقين ودعاة التغريب لم يزيدوا عن أن أعادوا ترديد الشبهات القديمة التي رددتها المجوسية والشعوبية ودعاة التأويل والتشبيه والمتاجرون بالشبهات والمفتريات من قديم.

ان هدف الغزو الفكرى وحركة التغريب هي هدم مفهوم الإسلام الصحيح الجامع المترابط من القرآن والسنة: بين النص القرآني المنزل، وبين السنة التي يتمثل فيها التطبيق العملي من حيث عمل الرسول وبيانه وتفصيل لما أجمل، وتوضيح ما بلغ أو تقييد لمطلق، أو تخصيص لعام: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم».

ولقد تعددت جوانب الشبهات المثارة حول الشريعة وحول سيرة الرسول، وحول القرآن، وقد تولى علماء كثيرون دحض هذه الشبهات وكشف زيفها، ثم جاءت فى السنوات الأخيرة: تلك الدعوى الزائفة التي تحاول أن تقول «ان القرآن وحده يكفي» وقد دأب قوم في السنوات الأخيرة إلى توجيه الاتهامات إلى مصادر السنة ورجالها.

وقد كتب هذه الأشياء مستشرقون لهم ولاء سياسى وولاء دينى معارض ومخالف للإسلام وللمسلمين وقد اعتمدوا في ذلك على خيوط جمعوها من فكر المعتزلة وغلاة الشيعة وحكايات

الأدب التي كان مؤلفوها موضع الشبهة في أمرهم وتخريجهم للحقائق، وكانت أبرز مقاتلهم هي الاعتماد على كتب النوادر والمحاضرات والحكايات التي لم تؤلف لتأريخ الرجال ولم تصنف للتحقيق العلمي والتي جمعت من المجالس وكانت مادة التفكهة والتسلية. وهذه لا يمكن أن تؤخذ منها الأدلة والشواهد، وقد صدق من قال: ان علم الحديث لا يؤخذ من كتب الفقه وعلم التفسير لا يؤخذ من كتب اللغة لأن لكل علم مصادره التي تعرف منها حقائقه وقضاياه. أما الاعتماد على حياة الحيوان للدميرى، أو ثمار القلوب للثعالبى أو مقامات بديع الزمان للفصل في قضايا السنة فذلك هو التزييف الشديد.

ولقد كانت ظاهرة تسجيل أحاديث القصاص ونوادر المجالس من السموم الناقعات التي أفسدت العلم الصحيح واعتمد عليها أهل الباطل حتى قال ابن الجوزى: أنه ما أمات العلم إلا القصاص وللسيوطي كتابه «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» وقد أورد منه فصلا في إنكار العلماء على القصاص ما أوردوه من أباطيل.

وحين تراجع تلك الشبهات المثارة حول السنة فيما أورده محمود أبو ريه أو حول الشريعة الإسلامية فيما أورده علي عبدالرازق، تجد واضحا أن النصوص كلها المعتمد عليها مستمدة من كتب الروايات، ونوادر المجالس، لا من كتب السنة أو الفقه. وذلك هو المنهج العلمي الذى قدمه المستشرقون وأتباعهم لتزييف المفاهيم الأساسية والأصيلة بالاعتماد على كتب ألف ليلة والأغاني وغيرها من كتب الشعوبيين واعتبارها مراجع لمضاهاة العلم الصحيح، وإثارة الشبهات في وجه الحقائق العلمية الأصيلة ونحن نجد أن كل الذين حملوا لواء الشبهات حول السنة النبوية قد اعتمدوا على مصدر أساسي هو كتاب جولدسيهر (العقيدة والشريعة في الإسلام) الذى ترجم وطبع بتوجيه الدكتور طه حسين إبان إشرافه على دار الكاتب المصرى اليهودية، وقد نقل أحمد أمين كثيرا من شبهات عن الحديث النبوى في كتابيه فجر الإسلام وضحاه كما نقل عنه الدكتور علي حسن عبدالقادر في كتابه نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي.

وقد رددت هذه الشبهات كتب عدة: منها جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن.. الإسلامي، وابراهيم اليازجي في كتابه حضارة الإسلام في السلام وفيليب حتى في كتابه (تاريخ العرب) المطول وردد هذه الأفكار: كتاب دائرة المعارف الإسلامية، وكارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية ومؤلف كتاب السيادة الغربية وكريمر في كتابه الحضارة الإسلامية.

ولا ريب أن هذه المؤلفات كلها تحمل أهواء الاستشراق والغزو الفكرى في محاولة انتقاض السنة النبوية، إلى جانب الشريعة والقرآن وتاريخ الرسول والفكر الإسلامي كله، ولا ريب أن دعوتها إلى إثارة الشبهات حول الحديث النبوى والدعوة إلى الاكتفاء بالنص القرآني عمل خطير. هو محاولة للفصل بين النص والتطبيق، والتطبيق في الإسلام أخطر الجوانب وأهمها: هذا التطبيق المتمثل في «الاسلوب الذى أتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم في تنفيذ النص القرآني، ومن هنا فان النص القرآني وحده لا يكفي المسلمين اليوم، ولا يحقق لهم إسلاما حقيقيا، هذا فضلا عن أن السنة جزء من القرآن بنص القرآن «ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» فهذا البيان الذى يفسر للناس ويطبق، هو بإقرار القرآن نفسه جزء أساسي وحين يراجع الباحث كتابات المستشرقين يجد أن موقفهم من السنة هو جزء من موقفهم من القرآن وسيرة الرسول تماما، فان السنة هي جزء من حياة الرسول، وهي تفسير القرآن، فلابد أن تنالها الشبهات وتصل إليها السموم وعوامل التزييف. يقول العالم الفرنسي المسلم: اتيان دينيه: انه من العسير أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول أو يدرسون سنته. وقد صرح في مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد). انه من المتعذر بل من المستحيل أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم المختلفة، وانه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم مبلغا غطى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية وذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي المحايد، وقد عرض اتيان دينيه لكثير من اتهاماتهم للنبي ورد عليها واتخذ من (لامنس) مثالا واضحا على صحة ما ذهب إليه وحكم به.

تتركز شكوك المستشرقين في السنة حول تأخر تدوين الحديث فهم يرون أن تأخر تدوين الحديث الذى بدأ في المائة الثانية للهجرة قد أعطى فرصة للمسلمين ليزيدوا وينقصوا في الحديث وفي وضع أحاديث لخدمة أغراضهم.

يردد هذا جولدزيهر ودوزى وسبرنجر

وقد شك جولد زيهر في صحة وجود صحف كثيرة في عهد الرسول، راميا من وراء ذلك الى أضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور وهو يرمى أيضا إلى وصم السنة.... (أو أغلبها) بالاختلاق والوضع على ألسنة المدونين وهو يزعم أن هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الأحاديث إلا ما يوافق هواهم، ويرى سبرنجر في كتابه (الحديث عند العرب) ان الشروع في

التدوين وقع في القرن الهجرى الثاني وان السنة انتقلت بطريق المشافهة، أما دوزى فهو ينكر نسبة هامة (التركة المجهولة) كما يسميها من الأحاديث إلى الرسول.

وقد رد عليهم كثير من الباحثين المسلمين داحضين هذه الأهواء الموغلة في الحقد والخصومة، رد عليهم مصطفى السباعي، وأبوالحسن الندوى وصبحي الصالح وعشرات

أولا ـ ما أورده الدكتور مصطفى السباعي حين قال :

حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله ونقله، وحرص رجال التابعين وتابعي التابعين من بعدهم على نقل هذا الحديث وجمعه وتنقيته من شوائب التحريف والتزيد وما قام به علماء السنة من جهود جبارة في تتبع الكذابين والوضاعين وفضح نواياهم ودخائلهم وبيان مازادوه في السنة من أحاديث مكذوبة حتى جمعت السنة في كتب صحيحة وأشبعها النقاد بحثا وتمحيصا ثم خرجوا من ذلك إلى الاعتراف بصحتها والتسليم بها، إذا امعنت النظر في ذلك كله أيقنت أن هؤلاء المستشرقين يتخبطون في أودية الأوهام وأنهم متأثرون بأوهامهم وعبثهم بكثير من الحقائق وخضوعا إلى الهوى والبغض.

ثانيا ـ ما أشار إليه السيد أبوالحسن الندوى من أن الصحابة بدأوا في تدوين الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكانت هناك مجموعات من الأحاديث لعدد من الصحابة منها الصحيفة الصادقة لعبدالله بن عمرو بن العاص، وكان لعلي بن أبي طالب صحيفة وكان لأنس ولعبدالله بن عباس وعبدالله بن منصور وجابر بن عبدالله لكل منهم صحيفة، وهناك صحيفة همام بن منبه، فاذا جمعت هذه الصحف والمجاميع كونت العدد الأكبر من الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث، وقد تحقق أن المجموع الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه ونسخه من غير نظام وترتيب في عصر الرسول وفي عصر الصحابة وقد شاع في الناس حتى المثقفين والمؤلفين أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا في القرن الثالث الهجرى... وأحسنهم حالا من يرى أنه كتب في القرن الثاني وما نشاهد هذا الغلط إلا عن طريقين: ـ

الأول : أن عامة المؤرخين يضطرون إلى ذكر مدوني الحديث في القرن الثاني ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التي كتبت في القرن الأول لأن عامتها فقدت أو ضاعت مع أنها اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة.

الثاني : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون في هذه المجاميع الصغيرة التي كتبت في القرن الأول مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتحررة من المتابعات لايزال قليلا فحديث (انما الأعمال بالنيات) مثلا يروى من سبعمائة طريق فلو جردنا مجاميع الأحاديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث، فالجامع الصحيح للبخارى لا تزيد الأحاديث التي رويت بالسند الصحيح فيه عن ألفين وستمائة وحديثين وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة آلاف حديث ومعظم هذه الثورة الحديثية قد كتب ودون بأقلام رواة العصر الأول وقد يزيد ما حفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا في العصر النبوى وفي عصر الصحابة على عشرة آلاف حديث إذا جمعت صحف ومجاميع أبي هريرة وعبدالله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك وجابر بن عبدالله وعلي وابن عباس.

وبذلك يمكن أن يقال: أن ما ثبت من الأحاديث الصحاح وما احتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودوّن في عصر الصحابة قبل أن يدون (الموطأ) و (الصحاح) بكثير.

وكانت الخطوة التالية أن قام المحدثون فنقبوا في البلاد في البحث عن الروايات.. المختلفة والأسانيد الصحيحة وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يعرف عن أمة من الأمم للعلم في التاريخ يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من التجول في البلاد والسفر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ولم يقتصروا على جمع الحديث وتدوينه بل تعدت عنايتهم إلى الوسائط التي وقعت في رواية الحديث وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم في الأمانة والصدق والحفظ . وهكذا ظهر علم أسماء الرجال إلى الوجود وكان مفاخر هذه الأمة التي لا يشاركها فيها أمة من الأمم كما قال الدكتور اسبرنجر في مقدمته على كتاب الاصابة: وكان هؤلاء المحدثون أقوياء وعلى جانب عظيم من الصبر والجلد واحتمال المشاق وقوة الذاكرة وكانت عندهم نهامة للعلم وحرص زائد على اقتباسه والتقاطه من موضعه.

وهكذا نجد أن الشبهة التي اعتمدوا عليها في مهاجمة السنة كانت فاسدة ومضللة ولم يكن لها أى أساس علمي أو تاريخي.

ولعل من الخرافات التي جرى وراءها المستشرقون وأتباعهم فرحين بأنهم التقطوا شيئا ما، هو ما أطلقوا عليه (معراج ابن عباس) والكتاب مكذوب. لا يتداوله إلا عامة الناس، وليس له سند يربطه به، ولا رواية ترقى إليه وقد احتفل به المستشرقون ثم تبين لهم زيفه.

ولقد عرف عن هؤلاء المستشرقين طابع التحامل الواضح وتزييف النصوص، في محاولة دعم شبهاتهم، ومن أقوى الأمثلة على ذلك: أن جولد زيهر حرف عبارة الإمام الزهرى «أن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث» إلى لفظ (على كتابة أحاديث) فضلا عن إتهامه الإمام الزهرى بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبدالملك بن مروان ضد ابن الزبير، مع أن الزهرى لم يلق عبدالملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل الزبير.

أما القول الذى يتردد على ألسنة أصحاب الشبهات مثل قولهم :

«لترجع إلى القرآن الكريم ولكن يجب ألا نجعل من أنفسنا متعبدين للسنة فان هذا القول، كما يقول ـ العلامة محمد أسد (ليوبولد فاليس) يكشف بكل بساطة عن جهل بالإسلام، ان الذين يقولون هذا القول يشبهون رجلا يريد أن يدخل قطرا ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلى الذى يستطيع به وحده أن يفتح الباب ويتساءل: هل هناك مبرر علمي لرفض الحديث على أنه مصدر يستند إليه الشرع الإسلامي ثم يجيب: انه على الرغم من جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحدى الحديث على أنه نظام ما، فان أولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفي الخالص بنتائج من البحث العلمي، لأن الجامعين لكتب الحديث الأول، خصوصا الإمامين البخاري ومسلما، وقد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضا أشد كثيرا من الذى يلجأ إليه المؤرخون الأوربيون عادة عند النظر في مصادر التاريخ القديم ويكفي أن نقول أنه نشأ من ذلك «علم تام الفروع» غايته الوحيدة البحث في معاني أحاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها. وأن رفض الأحاديث الصحيحة جملة واحدة أو أقساما ليس حتى اليوم إلا قضية ذوق، وان السبب الذى يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه إلى مصدره، ان السبب يرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الإسلام الصحيح. ولكي يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم، فانهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بامكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما

يشاؤون على أوجه من التفكير السطحي أى حسب ميول كل واحد منهم وطريقة تفكيره هو. ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للإسلام على أنه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي تنتهي بهذه الطريقة الى التهافت والاندثار، وان الذين خلبتهم المدنية الغربية لا يجدون مخرجا من مأزقهم إلا برفض السنة على أنها غير واجبة الاتباع بين المسلمين. ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها، وبذلك يصح تحريف تعاليم القرآن الكريم لكي تظهر موافقته لروح المدنية الغربية أكثر سهولة».

وهذا هو الخطر الكامن وراء مهاجمة السنة وإثارة الشبهة حول الحديث النبوى.

لا مشاحة أن السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن باعتباره... عقيدة وباعتباره تشريعا وباعتباره أخلاقا وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في قوله الشريف: (ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه)، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله).

وقد كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن: قال الإمام الشافعي: «وسنن رسول الله مع كتابه وجهان: احدهما نص كتاب ما تبعه رسول الله كما أنزل القرآن، والآخر جملة ما بين رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة، وأوضح كيف فرضها عاما أو خاصا. وكيف أراد أن يأتي به العباد وكلاهما اتبع فيه كتاب الله.

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبين للناس القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقا على وجوه شتى وعلى أنحاء مختلفة وعلى أساليب متعددة، يبين لهم ذلك بسلوكه وبقوله وباقراراته يقول: ما تركت شيئا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ولا تركت شيئا مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه.

وقد علم النبي الناس بثلاث طرق : تعليماته الشفوية التي هي أقواله، وسلوكه الشخصي الذى هو أعماله وسكوته الذى يعني موافقته الحكيمة على أفعال غيره من الناس، يقول الدكتور محمد عبدالله دراز: ان الأحاديث النبوية مرتبطة في الإسلام بالقرآن كما ترتبط قوانين

الدولة بدستورها، فالقرآن يأمرنا بالرجوع مباشرة للحديث النبوى لأخذ التعليات المفصلة منه فيا يتعلق بأكبر فرضين أساسين: الصلاة والزكاة (الصلاة واجبنا تجاه الله والزكاة تجاه مجتمعنا) والقرآن يقر السنة ويمنحها حق إيضاح فرائض القرآن العامة والتعريف بها ولولا السنة لظلت النصوص القرآنية غير مفهومة ولبقيت مجمله.

ويقول الدكتور عبدالحليم محمود: كان بيان رسول الله يشتمل على بيان ما احمل فى كتاب الله احمل القرآن الصلاة والزكاة والحج وفصلها رسول الله. بين ما فرض من الصلـوات ومواقيتها وسننها وعدد ركعاتها، والزكاة ومواقيتها وكيف عمل الحج والعمرة، كان يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله: صلوا كما رأيتمونى أصلي وفي الحج: خذوا عني مناسككم وفرض الله سبحانه الزكاة ولم يبين مقاديرها ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والأموال التي تجب فيها وقد بينت السنة أن القاتل لا يرث وأن الوصية لا تكون في أكثر من الثلث وأن الدين يقوم على الوصية.

ومما يروى أن عمران بن حصين قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنة: انك امرؤ أحمق، أتجد في كتاب الله الظهر أربعا لا تجهر فيها بالقراءة، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا.

وقد أشار القرآن إلى مكانة السنة وإلى مهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفصيل ما أجمل القرآن وذلك في آيات بينات:

* ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .
* ما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا .
* وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول .
* من يطع الرسول فقد أطاع الله .
* لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا.
* الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم ويقول الدكتور عبدالجليل شلبي: ان الآية الكريمة: (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم).

تدل على أن من وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضح للناس الأحكام التي نزلت اليهم في القرآن الكريم وكان لابد أن يفعل رسول الله وإلا لم يكن مبلغا من عند الله. وقد كان هذا البيان بالقول والعمل معا. فالسنة إذن مرجع الشريعة الكامل وبيانها الموضح كما أن السنة جزء مكمل للقرآن وهي من عند الله تبارك وتعالى كما أن القرآن من عنده.

وقد أشار الأئمة الأعلام إلى أنه لا يرى قول لامام من أئمة المذاهب في القرنين الثاني والثالث إلا وقد سبقه إليه صحابي أو تابعي، وان مكانه السنة النبوية والحديث من الشريعة الإسلامية لا تخفى وأثرها في الفقه الإسلامي منذ عصر النبي والصحابة حتى عصور الاجتهاد.. واستقرار المذاهب وأن من يطلع على القرآن والسنة يجد أن للسنة الأثر الأكبر في اتساع دائرة التشريع الإسلامي وعظمته وخلوده، هذا التشريع العظيم الذى بهر أنظار علماء القانون في جميع أنحاء العالم هو ما حمل ويحمل أعداء الإسلام في الماضي والحاضر على مهاجمة السنة والتشكيك في صحتها ورواتها من أعلام الصحابة.

هذا وبالله التوفيق ، ، ،

«أنور الجنـــدى»

الرأي العام في صدر الإسلام

معانيه وبواكيره واتجاهاته

الدكتور عادل محي الدين الألوسي

مدرس في كلية التربية

جامعة بغداد

تعريف الرأي العام

الرأي العام ظاهرة اجتماعية وتاريخية تتكون من تفاعل الفرد بالمجتمع(١)، يخضع لعامل الوراثة، كما يخضع لعامل التغير والتطور(٢)، فالزمن يعمل على تنامي قوته وتبلور مفاهيمه، كما أن الظلم الاجتماعي والشعور به، يخلقان فيه قابلية التأثير المباشر والتغير الثوري، وما التغيرات والتحولات التي مرت بها الحضارة الإنسانية إلا أدلة واضحة لتلك القابلية التي عليها الرأي العام.

ومع أن الزمن يشكل عاملا مهماً في تكوين الرأي العام، سواء ما يتعلق منه بفهم الماضي أو الوقوف على تطوراته في الحاضر او استشراف أبعاده في المستقبل، فان هناك مؤثرات خارجية تعرف بالحوادث الجديدة ترتبط بمتغيرات الحياة والسلوك وبروز ظاهرة القادة لها نصيب يذكر في بلورة الرأي العام(٣). وهذا يعني أن الرأي العام ينبت في ظرف ووقت معينين وقد يستمر متوارثا مع شيء من التحوير والتطور والتبدل شأنه في ذلك شأن الحياة الإنسانية

أن وقوع أية جماعة من الناس تحت ظروف موضوعية متشابهة أو متقاربة، يولد لديها رأيا عاما له صفة الغلبة على أي رأي آخر وله قابلية التطور والحركة وفاعلية التغيير الاجتماعي إذا ما اتخذ موقفا معيناً. والتاريخ حافل بالأدلة التي تعزز قولي هذا، فسوء أوضاع العرب قبيل الإسلام في ظل القبيلة والوثنية خلقت رأيا ناقما ورافضاً لذلك الواقع، ومتحفزاً ومتهيئاً وقادراً في نفس الوقت لقبول حالة جديدة من الانبعاث القومي تتمثل في رسالة الإسلام وشخصية الرسول العربي (صلى الله عليه وسلم)، وبذلك تمازجت عوامل القدرة في الأمة مع الظواهر السلبية لتكوين أرضية صالحة لانبعاث وقبول الإسلام(٤).

---

(١) جوفان دجور جفتش : «الرأي العام في النظام الاشتراكي»، ترجمة صادق الاسود بغداد، ١٩٧٠ ص ٤٦

(٢) حسنين عبدالقادر «الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة» الطبعة الأولى لرسالة ١٩٥٧، ص ١٦

(٣) سيروت : «علم النفس الاجتماعي»، ترجمة حافظ الجمالي جـ ١، دمشق ١٩٦٠، ص ١٨٨

(٤) صدام حسين : رئيس الجمهورية العراقيه «حول كتابة التاريخ»، نص الحديث في الاجتماع الموسع لمكتب الاعلام القومي بتاريخ ١٩٧٧/١٢/١

كما أن الأوضاع الفاسدة التى عاشتها فرنسا إبان القرن الثامن عشر الميلادى وما رافق ذلك من وعي جماهيري متحسس لتلك الأوضاع، خلقت رأيا عاما ساخطاً وثوريا أطاح بالملكية والاقطاع.

معنى الرأي العام في الإسلام

يرجع الاهتمام بالرأي العام، بمفهومه الحديث، الى القرن الثامن عشر الميلادي(٥)، وعلى وجه الدقة إلى عهد الثورة الفرنسية ونمو الحركات الشعبية والأدبيات المرتبطة بها(٦).

وما صار إليه من قوة وتأثير في ظل التجمعات السكانية الكبيرة في المدن بعد الثورة الصناعية، وما رافقها من تطور اجتماعي وتقدم علمي وتكنولوجي(٧).

ومع أن الفكر السياسي والاجتماعي قد عرفه بمفاهيم مختلفة كارادة الأمة ومشيئة الشعب والروح العامة وصوت الشعب وروح الشعب(٨) حسب مصطلحات هذا العصر فان المسلمين الأوائل قد عبروا عنه بمصطلحات عدة ذات طابع فقهي(٩)، سأتي على ذكر بعضها بشيء من الايجاز:

أ /الإجماع : وهو في اللغة العزم(١٠)، ومنه قوله تعالى «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ»(١١) أي اعزموا عليه، ومن معانيه «الاتفاق»(١٢) وهذا المعنى الأخير هو الذي يهمنا لأنه لا ينعقد إلا من اثنين فما فوقهما، فهو متعلق باتفاق الجماعة على أمر ما والذي يعبر عنه في الوقت الحاضر بالرأي الجامع (General Opinion) والاجماع تبعا لزمنه يقسم إلى نوعين:(١٣) اجماع الصدر الأول الذي لا

(٥) فؤاد دياب «الرأي العام وطرق قياسه» القاهرة ١٩٦٢، ص ١٤

(٦) الفريد شوفي «الرأي العام» ترجمة كسروان شدياق، بيروت ١٩٦٦، ص ٥

(٧) مختار التهامي «الرأي العام والحرب النفسية» مصر، ط ١ ١٩٦٧ ص ١٩

(٨) سعد الدين خضر «الرأي العام وقوى التحرك» الموصل ط ١، ١٩٦٨ ص ١٥

(٩) محمد عبدالرؤوف بهنسي «الرأي العام في الإسلام» مصر ١٩٦٦ ص ١٥ وللمزيد من التفاصيل بشأن هذه المصطلحات يمكن مراجعة رسالتي في الماجستير، بغداد ١٩٧٣

(١٠) الرازي : مختار الصحاح، بولاق ط ٤ ، ص ١١٠

(١١) سورة يونس : الآية ٧١

(١٢) الفيروزابادى «القاموس المحيط ، مطبعة البابي الحلبي ١٩٥٢، جـ ٣ ص ١٥

(١٣). وكيع القاضي «أخبار القضاة» تصحيح عبدالعزيز المراغي ، القاهرة ١٩٤٧، جـ ١ ص ١٤٣

يستند على نص فهو إجماع ولكنه ليس حجة شرعية، وإجماع متأخر يستند على نص، وقد اشتهر بين الناس على انه حجة شرعية.

ان فكرة الاجماع في الإسلام مستمدة من نظام الشورى الذي فرضه الإسلام على أولي الأمر مخافة أن يستبدوا بأنفسهم في إدارة شؤون المسلمين، وهم في ذلك يستندون إلى قوله تعالى: « فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ »[١٤]. وقوله: « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ »[١٥].

ومع اختلاف المذاهب في تفسير حقيقة الاجماع، فان «مذهب الجمهور»[١٦] الذي جاء به الطبري مرادفا للاجماع يعتبر من أقرب التعريفات إلى مفهوم الرأي العام السائد، ذلك انه قد أكد على أساسين يحدّدان الرأي العام، **أولها**: تشابه الظروف الموضوعية التي تعيشها الجماعة والتي تولد رأيا عاما كليا يطبع هذه الجماعة وهو ما عناه بمذهب الجمهور. **وثانيهما**: أخذه بمبدأ التطور الاجتماعي الذي يعني أن الرأي العام يتحدد وفق المفاهيم السائدة في المجتمع فما يعتبر إجماعاً في مجتمع من المجتمعات قد لا يعتبر كذلك في مجتمع آخر وهو ما عناه باجماع أهل كل عصر. أخذ به أكثر أهل السنة واعتبروه حجة شرعية، في حين قلل الشيعة الامامية من أهميته ومن قيمته كمصدر للعلم الديني[١٧].

ب / الاجتهاد أو الرأي : وهو الاعتماد على الفكر في استنباط الأحكام الشرعية، ومن الفقهاء من يضيف إليه القياس والاستحسان ويجمعها في معنىً واحد[١٨]. استعمله الصحابة في الوقائع التي لم يرد فيها نص شرعي، ثم توسعت دائرته لاحقاً، حتى اصبح مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي عند معظم المذاهب الفقهية[١٩]، وبخاصة الحنفية التي اعتبرته مصدراً رابعاً بعد القرآن والسنة والإجماع[٢٠].

---

(١٤) سورة آل عمران ٣ : الآية ١٥٩

(١٥) سورة الشورى : الآية ٣٨

(١٦) مصطفى عبدالرازق : «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مصر، مطبعة النهضة، ١٩٥٧، ص ١٧٢

(١٧) ابن عثمان الخياط «الانتصار» تحقيق نيبرج، دار الكتب المصرية، ١٩٢٥ ص ١٧٢

(١٨) الآمدي «الأحكام في اصول الأحكام» نشر محمد البيلاوي ، مصر ١٩١٤، ص ٢ ـ ١٥٨ وقد أوضح فيه كل ما يتعلق بالقياس من أقسام وأسانيد ومسائل

(١٩) دائرة المعارف الإسلامية، ص ٤٣٥، ، مادة «اجتهد» .

(٢٠) ابن خلدون ، «المقدمة» دار احياء التراث بيروت بلا. ص ٤٤٦

جـ / القياس : يرادف الاجتهاد ، فقد سئل الشافعي: ما القياس أهو اجتهاد أم هما مفترقان؟ قال هما اسمان لمعنى واحد»[٢١] فزع اليه الخلفاء والصحابة في الحالات التى لم يرد فيها نص من القرآن والسنة[٢٢]. معتمدين في ذلك على قوله تعالى: «فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ»[٢٣] وعلى حديث رسول الله (ص) لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن. قال له: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: اقضي بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنة رسول الله، فان لم أجد اجتهد برأي ولا آلو، فضرب الرسول صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله[٢٤].

ومع أن غالبية المذاهب الإسلامية قد أخذت به بدرجات متفاوتة فان الشيعة وأهل الحديث قد أنكروه واعتبروه ضلالاً[٢٥].

د / الاستحسان : هو في اللغة استفعال من الحُسن[٢٦]، وهو كالرأي يعتمد على الفكر في استنباط الأحكام الشرعية[٢٧]، احتج به الحنفية والحنابلة والمالكية والزيدية وأنكره الشافعية[٢٨]، ورفضه الشيعة الإمامية لأنه قائم على القياس[٢٩]. وقد استند دعاته إلى قوله تعالى: «وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم»[٣٠] وقوله: «ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ

(٢١) الشافعي «رسالة في أصول الفقه» مطبعة السعادة بمصر ص ١، ١٩٠٣، ص ٦٦

(٢٢) عبدالمتعال الصعيدي «في ميدان الاجتهاد» دار الميرات بمصر بلا، ص ٢٥

(٢٣) سورة الحشر ٥٩ : الآية ٢

(٢٤) الماوردي «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» مصر، ط ١ ، ١٩٦٠، ص ٦٧ أيضا «الملل والنحل» للشهرستاني، ق ١، ص ١٨١

(٢٥) ابن تيمية «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدني بمصر، ١٩٦٢، جـ ٢ ص ٣٧٣
أيضا الأحكام في اصول الإحكام للآمدي جـ ٤ ص ٦٣، ومقالات الاسلاميين للأشعري جـ ١، ص ١١٩ وفي اعتباره ضلالا اعتمدوا على قول (ص ٢ «تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله ثم تعمل بسنة رسوله ثم تعمل بالرأي فاذا عملوا بالرأي ضلوا وأضلوا» الجامع الصغير في أحاديث البشير للسيوطي جـ ١ ص ١٣٢

(٢٦) الأحكام في أصول الأحكام ، جـ ٤ ص ٢١٠

(٢٧) مصطفى عبدالرازق ، ص ١٣٧

(٢٨) الحيدري «أصول الاستنباط » بغداد ١٩٥٩ ، ص ٢٦٤

(٢٩) محمد ابو زهرة «الإمام الصادق» مطبعة مخيمر بلا ص ٥٢٨

(٣٠) سورة الزمر ٣٩ : الآية ٥٥

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ))[٣١] ، وقول (ص): «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسنٌ»[٣٢].

وقد برع به فقهاء العراق أصحاب مدرسة الرأي باعتباره ضرب من ضروب الحكم الشخصي يذهب بالمسألة إلى أصل خاص أو عام يرى فيـه المجتهد اتفاقا وواقع الحال. وفضلوه على القياس كما يقول محمد بن الحسن الذي يأتي بعد أبي حنيفة في مدرسة الرأي: «استحسن وادع القياس»[٣٣] لأن قياس مسألة على حكم سابق قد لا يحقق حلا مقبولا لهذه المسألة في ظرفها الآني.

هـ / الاستصلاح أو المصالح المرسلة : في اللغة استصلح شيء وجد فيه صلاحاً وهو نقيض استفسد[٣٤]. وفي الشريعة الإسلامية يعنى: الحكم في مسألة لا حكم فيها بما يخدم مصلحة الجماعة ومنافعها، ويؤمن حاجاتها ومتطلباتها. فهو بالاضافة الى كونه أحد مصادر التشريع الإسلامي، فانه أيضا عامل من عوامل ديمومة الدين ومسايرته لموكب التطور، يقابله في الوقت الحاضر «الصالح العام» و «مقتضيات المصلحة العامة»[٣٥].

وفي تاريخنا الإسلامي، تطبيقات كثيرة لهذا المبدأ، من ذلك موقف أبي بكر المتشدد من حروب الردة باعتباره استصلاحاً يخدم مصلحة الدين وجماعة المسلمين[٣٦]، وما استحدثه عمر بن الخطاب، عندما اسقط حق المؤلفة قلوبهم في الصدقات لأن الإسلام لم يعد يهاب جانبهم[٣٧]، مع أنه تشريع سماوي منصوص عليه في القرآن الكريم[٣٨].

اعترف به الحنفية والمالكية ورفضه الشافعية، وأنكره الشيعة إلا إذا صدر من الإمام المعصوم[٣٩] (في نظرهم) لأن الأئمة غير معصومين وليس هناك من البشر من هو معصوم إلا الأنبياء عليهم السلام».

(٣١) سورة الزمر ٣٩ : ١٨

(٣٢) على عبدالرازق «الاجماع في الشريعة الإسلامية» دار الفكر العربي بمصر ١٩٤٧، ص ٣٤

(٣٣) الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي ، ص ٢٠٠

(٣٤) القاموس المحيط ، جـ ١ ص ٢٤٣

(٣٥) حسين عبدالقادر ، ص ٣٥

(٣٦) المقدمة لابن خلدون ص ٢٠٣

(٣٧) أحمد أمين «فجر الإسلام» مصر ١٩٥٥ ، ص ٢٣٨

(٣٨) كما في الآية ٦٠ من سورة التوبة «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم....»

(٣٩) منهاج السنة النبوية ، جـ ٢ . ص ٣٧٩

بواكيره قبيل الإسلام

لم يكن الرأي العام في الإسلام، وليد فترة زمنية محددة، بل ان بعض صوره لا تخلو من ملامح قومية تعارف عليها العرب قبل الإسلام(٤٠)، ولذلك فان المنطق العلمي يشير على الباحث في موضوع كهذا، أن يدرس المجتمع العربى عموما والمجتمع المكي منه على وجه الخصوص، على افتراض أن المجتمع العربي في صدر الإسلام امتداد للمجتمع العربي السابق له(٤١)، فكما أن الإسلام دحض سلبيات العرب الأول فانه اكثر على الفطرة الخيرة التى جُبل هؤلاء العرب عليها كالصدق والكرم والشجاعة(٤٢) وما إلى ذلك من صفات وخصال حميدة لازلنا نتمسك بها ونحرص على بقائها.

تعتبر القبيلة الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى يقوم عليها المجتمع العربي قبل الإسلام، ووفق مفاهيم القبيلة وعاداتها وتقاليدها تتحدد أفكار الفرد العربي وتصرفاته وتطلعاته وبالتالي آراؤه التى ابتليت بشعور الجماعية وذوبان الشخصية، ذلك أن المجتمع العربي القديم أسوة بالمجتمعات البدوية كانت وحدته الأساسية هي الجماعة لا الفرد(٤٣)، فهو يشعر بأهميته وعزته مادام في كنف قبيلته وخارجها يشعر بالضعف إلى حد الضياع، وبالغربة إلى حد النبذ، وبالخوف إلى حد الخطر، ولذلك ارتبط العربي قبل الإسلام بقبيلته ارتباطا يكاد يكون مصيرياً.

تبلور الرأي العام العربي قبيل الإسلام من خلال بعض المؤسسات القبلية كمجلس الملأ أو مجلس شورى القبيلة المتكون من رؤساء الأقوام، والاسر الممثلين لقبائلهم، كدار الندوة التى اتخذت مركزا يجتمع فيه شيوخ قريش(٤٤)، وهذا الرأي يتجسد بطريقة اختيار السيد أو رئيس القبيلة، كما يتجسد في حرص شيخ القبيلة على الابتعاد عن مظاهر الاستبداد ودأبه على

---

(٤٠) فجر الإسلام ، ص ٨٠

(٤١) الفرد جيوم «الإسلام» ترجمة محمد مصطفى ، مصر ط ١ ، ١٩٥٨ ص ٥ ـ ٦

(٤٢) فجر الإسلام ، ص ٣٨

(٤٣) دافيد سانتلانا «القانون والمجتمع» بحث ضمنى «تراث الإسلام» ترجمة فتح الله جرجيس الموصل ١٩٥٤ جـ ١ ص ٣

(٤٤) اسعد طلس «عصر الانبثاق» بيروت ١٩٥٧، ص ١٢٨

استشارة مجلس القبيلة كصورة مبسطة للشورى التي أصبحت مبدأً شرعيا في الإسلام[٤٥].

ويعتبر الشعراء والخطباء والحكماء قادة الرأي العام المعبرين عنه وبخاصة الشعراء منهم الذين كانت لهم اليد الطولى في التعبير عن خلجات وهمسات الناس بشعر جيد وبعضه صادق حقا لازلنا نستعذب سماعه ولا نمل تكراره، سجلوا فيه حياة القبيلة وعاداتها وتقاليدها ودياناتها وأحداثها المهمة ولذلك قيل «الشعر ديوان العرب»[٤٦]. واتخذوا من الأسواق الكثيرة والكبيرة التي بلغ عددها العشرة أو يزيد[٤٧]، مراكز ومنابر لاعلان كل ما له أثر بالجماعة إضافة إلى وظيفتها في البيع والشراء[٤٨].

لقد كان لازدهار التجارة الداخلية والخارجية في المجتمع المكـي قبل الإسلام، أثر في تعميق التناقضات الاجتماعية التي شغلت الرأي العام العربي آنذاك كانتشار الربا والاحتكار وتجارة العبيـد وبالتالي بروز التفاوت الطبقي الذي كان مع بساطته مبعثا لتذمر المحرومين والفقراء من الناس[٤٩]. إزاء ذلك فان المجتمع العربي في تلك الفترة لا يخلو من وجود أفكار وتطلعات تعبر عن آراء فردية تخدم مصالح أصحابها في أغلب الأحيان، وآراء ذات صفة جماعية شاركت في التخفيف عن كاهل المتذمرين والمظلومين، ويبرز في هذا المجال حلف الفضول الذي عقد في مكة وشهده الرسول (ص) قبل البعثة وأثنى عليه[٥٠]، كأحد الأمثلة على تلك الأصوات الساخطة التي رفعها الرأي العام القرشي احتجاجاً وانصافاً للمظلومين والغرباء.

تطوره في صدر الإسلام

بمجيء الإسلام كدين سماوي واجتماعي ينشد الإصلاح على الأرض، تقوض شكل القبيلة والأسرة المعروفين آنذاك، وامحت الشخصية الفردية والموالاة والجماعات المتحالفة[٥١]، وأصبح

(٤٥) استناداً إلى قوله تعالى «وامرهم شورى بينهم» سورة الشورى : ٣٨
وقوله «وشاورهم في الأمر» سورة آل عمران : ١٩٥٩

(٤٦) فيليب متى «تاريخ العرب المطول» دار الكشاف، بيروت ط ١ ص ١٣١

(٤٧) جواد علي «المفصل في تاريخ العرب» دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧١ جـ ٧ ص ٣٧١

(٤٨) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨٤

(٤٩) احمد عباس صالح «اليمين واليسار في الإسلام» بيروت ١٩٧٢ ص ٢٢

(٥٠) ابن هشام «السيرة النبوية» مصر ١٩٥٥ جـ ١ ص ١٣٤

(٥١) سانتلا ، ص ٣

الفكر الإسلامي لا يعمل إلا في النطاق الذى حدده الدين الجديد المتمثل بالقران والسنه ولم يقبل المسلمون سلطة أخرى، لذلك كان العرب في صدر الإسلام ينظرون إلى تنظيمات ومؤسسات الدولة الجديدة بعين الرضى مادامت مطابقة لمبادئ العداله التى أوجبها الإسلام وبعين السخط والمعارضة لبعض التشريعات الوضعية التى اقتضتها الضرورة، فقد عارض بعض المسلمين في أمر محاربة المرتدين الذين مانعوا في دفع الزكاة، وحجتهم في ذلك قوله (ص): «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[٥٢]

تأتى الخلافة في مقدمة المسائل التى شغلت الرأي العام الإسلامي منذ وفاة الرسول (ص)، فاجتماع السقيفة وما رافقه من مناورات وأصوات تأييد واستنكار، وامتناع بعض المسلمين عن مبايعة أبي بكر أول الأمر[٥٣]، وما أعقب هذه البيعة من ارتداد بعض القبائل خارج مكة والمدينة، كل هذه الأمور تشير إلى أن المسلمين على أثر السقيفة قد انقسموا إلى فريقين: الأول يقر بأحقية وشرعية خلافة أبي بكر ويمثله الجمهور الأعظم من المسلمين، والفريق الثاني رفض هذه الخلافة بشكل أو بآخر.

وفي العصر الأموي «ظهرت طريقة أخرى لنصب الخليفة، ومن بعده اطردت، حتى أصبحت عادة، وهي أن يعين الخليفة الحاكم خليفة أو ولي عهد وهذا التعيين فى جوهره (العقاد) فان قبل أصبح عقدا، والمراسيم التي يتم فيها العقد تدعى (البيعة)»[٥٤]. ويعتبر معاوية بن أبي سفيان أول من استحدث نظام الوراثة في الخلافة عندما عهد بها لابنه يزيد من بعده، وحاول إقناع الرأي العام الإسلامي لاجابة هذا العهد[٥٥]، فأرسل الوفود إلى الأمصار، واستفتى الفقهاء، ورَغب الناس بالحيلة والدهاء. هذه الاجراءات والمستحدثات لم ترق جمهور المسلمين ووجدوا فيها استبداداً يتنافى ومبادئ العدالة والمصلحة العامة.

هكذا نرى أن مسألة الخلافة بعد وفاة الرسول (ص) وما تلاها من صراعات استهدفت

(٥٢) الجامع الصغير في أحاديث البشير، جـ ١ ص ٦٥

(٥٣) فقد زعم ابن قتيبة فى كتابه الامامة والسياسة، جـ ١ ص ١٢، ان الامام علي قد امتنع عن مبايعة ابي بكر الصديق أول الأمر

(٥٤) القانون والمجتمع لسانتلا ص ١٧

(٥٥) المسعودي «التنبيه والاشراف» دار التراث بيروت ١٩٦٨ ص ٢٦٢

هذه المؤسسة المهمة، وما تبعها من انقسام المسلمين إلى معسكرين، أحدهما شايع عليا، والآخر أيد معاوية[٥٦] وما تلا ذلك من حوادث وثورات ومناظرات فقهية ومذهبية، ولجوء السلطة الأموية إلى مجابهة خصومها السياسيين، جملة هذه الأمور تشكل الخطوط العريضة لاتجاهات الرأي العام الإسلامي طوال العصرين الأموي والعباسي.

اتجاهات الرأي العام في صدر الإسلام

نلخص هذه الاتجاهات على ضوء ما تقدم بما يأتي:

١ ـ **الانقسام السياسي** ويتمثل في مدعي النبوة الكذابين وحركة الردة والصراع على الخلافة ابتداءً باجتماع السقيفة حيث برز الخلاف بين بعضٍ من المهاجرين والأنصار والهاشميين، ثم تمثل هذا الانقسام في مجلس الستة الشورى وما رافقه من انقسامات ومناقشات والفتنة الكبرى وما تمخضت عن أحداث جسام، فحرب الجمل فموقعة صفين والتحكيم.

٢ ـ الانقسام المذهبي ويتفاوت بين:

أ ـ الثورة العارمة على الإمام علي ومعاوية متمثلة في الخوارج[٥٧] أو على الأمويين فقط في الحركات العلويه[٥٨] وكذلك نجد القدرية[٥٩] أو على شكل معارضة فكرية كما في كتابات بعض المفكرين والكتاب كأبن المقفع مثلاً[٦٠].

ب ـ وبين تبريره وقبوله متمثلاً في المرجئة[٦١]، وروح مذهب الجبر، وإن كان بعض الجبرية قد ثاروا لأسباب سياسية كالجعد بن درهم[٦٢].

---

(٥٦) محمد ضياء الدين الريس «النظريات السياسية الاسلامية» ١٩٦٠، ص ١٨

(٥٧) الملل والنحل، ق ١ ص ١٠٦

(٥٨) ولهاوزن «الدولة العربية وسقوطها» ترجمة يوسف القس دمشق ١٩٥٦، ص ٥٦

(٥٩) ضحى الاسلام لأحمد أمين ، مصر ١٩٥٦ جـ ٣ ص ٨١

(٦٠) المصدر السابق نفسه جـ ٣ . ص ٢٢٨ وما بعدها

(٦١) الملل والنحل ق ١ . ص ١٢٥

(٦٢) خالد العسلي «جهم بن صفوان» الارشاد ١٩٦٥ ص ٤٧

حـ ـ وهناك موقف ثالث هو موقف المحايــدين ويتمثل في المعتزلة بقولهم المنزلة بين المنزلتين(٦٣)، الذي يعتبره البعض حياداً سياسياً(٦٤).

٣ ـ **الانقسام الطبقي** : إذ أن الإسلام في التطبيق لم يلغ التفاوت في الملكية بالطرق المشروعة وضمن الحقوق والواجبات اللازمة على ذي المال، حتى أصبح البعض يملك من الذهب والفضة إلى حد الثراء الفاحش(٦٥)، بالإضافة إلى تملك العبيد والاماء والأراضي الزراعية، وهذه الظاهرة أصبحت ملفتة للنظر منذ عهد عثمان(٦٦)، مما أدى إلى ظهور دعوات تناوئ التملك والثراء الفاحشين، ممثلة في أبي ذر الغفاري وسواه من المسلمين الأتقياء(٦٧)، إلى جانب حركات الزهد والثورات ذات المضمون الاجتماعي المتطرف.

٤ ـ **الانقسام العنصري** أو ما يسمى بحركة الشعوبية والصراع بين الكتاب العرب والأعاجم، وقد اتجهت المناقشات والحركات هذه في اتجاهين: أحدهما ضمن الدين ومن خلال فهم أممي له(٦٨) والآخر ضده متمثلة في حركات الزنادقة التى ظهرت بدرجات ثلاث:

أ ـ الاستخفاف بالعبادات الدينية والحركات الاجتماعية

ب ـ العمل لارجاع الأديان الفارسية المجوسية

حـ ـ الشك بكل دين بمعنى الإلحاد التام وقد تمثل هذا في ابن الراوندى كما تذكر المصادر المناوئة له(٦٩).

٥ ـ **عمومية النظرية السياسية والتشريعية** فيما يتعلق بنظام الحكم الذي جاء به القرآن، مما أتاح المجال لظهور اجتهادات وآراء ونظريات حول الحكم متفاوتة غاية التفاوت،

---

(٦٣) البغدادي «الفرق بين الفرق» تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مصر، ص ١١٥

(٦٤) نالينو «أصل اشتقاق كلمة المعتزلة» ترجمة بدوى ضمن كتاب التراث اليونانى سنه ١٩٤٠ ص ١٧٤

(٦٥) طه حسين : الفتنة الكبرى ص ١٠٨

(٦٦) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٩

(٦٧) اليمين واليسار ، ص ٦٧

(٦٨) استناداً إلى قوله تعالى «ياايها الذين أمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله اتقاكم» سورة الحجرات: ١٣

(٦٩) كما في كتاب «الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد» لأبي عثمان الخياط

فنجد دعوة الخوارج للانتخاب الحر المباشر(٧٠) ونجد في مقابلها الدعوات القائمة على مبدأ الوراثة أو الوصيـة أو التعيين أو الحكم الفردي، ونجد الأمر نفسه فيا يخص نوع النظام الاقتصادي، فهناك من يذهب إلى ضرورة تحديد الملكية، ومن يذهب إلى عدم التحديد.

هذه المظاهر والسمات والاتجاهات التي برزت في صدر الإسلام كانت الأرضية التي تبلور من خلالها الرأي العام الإسلامي في العصور اللاحقة بكل أشكاله وأنواعه وصوره المتعددة.

(٧٠) فان فلوتن «السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات» ترجمة حسن ابراهيم حسن القاهرة، ١٩٣٣ ص ٦٩

المحكمة العليا في الإسلام
أو
النظر في مظالم الرعيّة

د/ عبد الرزاق علي الأنباري

جامعة بغداد - كلية التربية

(١) المقدمــــة

للنظام القضائي في الدولة العربية الإسلامية تاريخا طويلا حافلا بالحيوية والنضال في سبيل العدل والحق والإنسان، وقد وفق هذا النظام في إرساء أروع القواعد والمبادئ التي تكفل رعاية حقوق الإنسان وصيانة حقوقه وكرامته.

والسؤال هنا، كيف تطبق العدالة بين الناس؟ لا ريب ان وجود نظام قضائي يفصل في قضايا الناس وخصوماتهم وفق شرع عادل كفيل بتطبيق العدالة وإرساء قواعد أحكامها، ومثل هذا النظام وجد عند العرب بعد الإسلام.

في حاضرة الإسلام الأولى (مدينة الرسول) نزلت أول آيات حكم القضاء، قال تعالى:

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا »[١].

ومنذ نزول هذه الآية صار الرجوع إلى الرسول العظيم في الخصومات والتسليم بحكمه وتنفيذه جزءا من الإيمان. وهكذا أضفى الرسول العظيم على المبادئ الدينية الصفة القانونية، فأظهر الكيان الرسمي للقضاء[٢]، وانتهت عند ذلك مهمة التحكيم الجاهلي[٣].

بعد الرسول (ص) تابع الخلفاء الراشدون العناية بالقضاء وتطبيق العدالة في الأحكام، وفق الأسس التي وضعها القرآن الكريم، ومن ثم فقد أصبح من أهم خصائص الشرع الإسلامي شدة الحرص على بناء الأحكام وفق قواعد العدل، والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية متظافرة على التأكيد بأن «العدل قوام الشرع الإسلامي والقضاء جملة وتفصيلا»[٤].

القضاء هو: فصل الخصومات وقطع المنازعات[٥]. وقيل يعني القضاء في بعض معانيه

(١) النساء، ٤/٦٥. وعن الخصومة التي نزلت بسببها هذه الآية يراجع: الزمخشري، الكشاف ١/٥٢٥.
(٢) عن قضاء الرسول العظيم محمد (ص) يراجع: البخاري، الجامع الصحيح، ص ٣٩٦. الشافعي، الأم ٦/١٩٩.
(٣) عن التحكيم الجاهلي يراجع: نقائض جرير والفرزدق ١/١٣٦. ابن حبيب، المحبر، ص ٢٣٦.
(٤) د. صلاح الدين الناهي، النظرية العامة في القانون الموازن وعلم الخلاف، ص ٣١٠.
(٥) ابن الشحنة، لسان الحكام، ص ٣ .

الالزام، وقضى القاضي أى ألزم الحق أهله[٦]. ولكن ما عمل القاضي إذا تجاوزت السلطه في سلطاتها، على حقوق الناس وممتلكاتهم[٧]؟ في هذا المجال يظهر عمل صاحب المظالم لا القاضي.

ان ديوان النظر في المظالم ظهر أساسا لايقاف جور السلطة ممثلة في موظفيها الكبار منهم كالوزراء، وكذلك الصغار كعامل الخراج أو صاحب الشرطة.

ان محكمة المظالم واحدة من أربع خطط قضائية انيطت بها صلاحيات الادارة القضائية في الدولة العربية الإسلامية في العصر الوسيط، إلا أنها بحق أكثر هذه الخطط في صلاحياتها ونفوذها[٨]. فرئيس الدولة هو الذى يتولى مهمة ترأسها والاشراف على أعمالها[٩].

(٢) الأصول التاريخية لمحكمة المظالم :

في الجزيرة العربية، وفي مكة بالذات ظهرت أول بوادر التصدى للظلم والوقوف إلى جانب المواطن المظلوم، في مكة حيث المجتمع التجاري المزدهر، تروى المصادر خبر ذلك اليمني من زبيد، قدم مكة معتمرا مع بضاعة له، اشتراها رجل من كبار تجار قريش «العاص بن وائل» اشتراها وماطل في دفع الثمن، ثم امتنع عن تسديده، فقام هذا الرجل يستصرخ ملأ مكة في رد هذا الظلم عنه قائلا

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر

بعد هذه الاستغاثة قام ابو سفيان والعباس بن عبدالمطلب فردا عليه ماله، واجتمعت بطون قريش فتحالفوا في دار عبدالله بن جدعان «على رد المظالم بمكة وان لا يظلم أحد إلا منعوه وأخذوا للمظلوم حقه»[١٠]

---

(٦) التهانوى، موسوعة اصلاحات العلوم الاسلامية ١٢٣٤/٥ .

(٧) يشير ابن قيم الجوزية الى معارضة الشريعة للظلم، واعتبار السياسة العادلة فرع من فروعها، فالسياسة «سياسة ظالمة تحرمها الشريعة وسياسة عادلة تقرها» الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص ٥.

(٨) عن الخطط القضائية في الدولة العربيه الإسلامية، راجع: النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٥.

(٩) راجع ما كتبه النويرى في، نهاية الأرب ٢٧٠/٦ .

(١٠) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٧٩

النويرى، نهاية الأرب ٢٦٦/٦ .

هذه المؤسسة أصولها الأولى ظهرت عند العرب قبل الإسلام، ثم لم تلبث حتى تكاملت بعد الإسلام على شكل مؤسسة إدارية واضحة المعالم متكاملة الجوانب، فلا أثر لاية مؤثرات أجنبية في ظهور «ديوان المظالم» فالديوان وليد تطور وحاجة المجتمع الى هيئة قضائية عليا ترد الظلم عن الناس فتضمن حقوقهم وترسي قواعد حياة مستقرة للجميع.

ان الأصول التاريخية لهذه المؤسسة ترجع في أولياتها الى حلف الفضول، هذا الحلف شهده محمد العظيم قبل نبوته وأقر شرعيته في عصر النبوة، فالحلف «وان كان فعلا جاهليا دعتهم إليه السياسة فقد صار بحضور رسول الله (ص) وما قاله في تأكيد أمره حكما شرعيا وفعلا نبويا»(١١).

في العصر الراشدي نظر عمر في مظالم الرعية(١٢) كما نظر عليا والمصادر تؤكد أن الخليفة الرابع أمر ببناء قبة، كان يرمي الناس فيها رقاع ظلاماتهم ينظر فيها الخليفة بنفسه، وسمي هذا البناء «بيت القصص»(١٣) قصص المظالم(١٤)، فكان علي «أول من سلك هذه الطريقة واستقل بها ولم يتحرج فيها الى نظر المظالم المحض لاستغنائه عنه».

في العصر الأموي انتشر العمل بقضاء المظالم، فقد «تجاهر الناس بالظلم والتغالب، فاحتاجوا في ردع المتغلبين وانصاف المغلوبين الى نظر المظالم الذي يمتزج به قوة السلطة وانصاف القضاء»(١٥). ويعد عبدالملك بن مروان أول من خصص لمظالم الناس يوما يتصفح فيه قصص ظلاماتهم، وكان إذا احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبي ادريس الاودي، فنفذ فيه أحكامه «فكان أبو ادريس هو المباشر وعبدالملك هو الآمر»(١٦). وعلى هذا المنهج سار بقية خلفاء بني أمية، خاصة الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي ندب نفسه «للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها»(١٧).

---

(١١) الأحكام السلطانية، ص ٧٧ .

(١٢) البيهقي ، المحاسن والمساوئ، ٢٧٤/٢ .

(١٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٦٣/٥ .

(١٤) ن . م ، ٦٣/٥. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٧٨ .

(١٥) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٧٨ .

(١٦) ن . م ، ص ٧٨ .

(١٧) ن. م، ص ٧٨. راجع أيضا: الاصبهاني، محاضرات الادباء (بيروت ـ (١٩٦١) ص ٢١٦.

يتبين من هذا أن ديوان المظالم في أصوله التاريخية يرجع إلى تراث العرب القديم، يوم عقدت قريش، حلفا قاهرا على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم، ثم تنامت هذه المؤسسة أكثر في العهد الراشدي والأموي، حتى تكاملت في العهد العباسي(١٨)، شأنها في ذلك كبقية النظم العربية تظهر بسيطة ثم ما تلبث أن تتكامل استجابة لتطور وتقدم المجتمع والادارة في الدولة.

صلاحيات صاحب المظالم :

ظهر صاحب المظالم في عهد عبدالملك بن مروان، وكان أول من تحمل هذه المسؤولية، فكانت سلطاته «سلطات القضاة غير انه أفسح حالا منهم»(١٩) فهو يتمتع بحرية العمل أكثر من القضاة، لهذا اشترط فيمن يتقلد هذه الوظيفة أن يكون «جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة قليل الطمع، كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين»(٢٠).

ومع أن مؤسسة المظالم تجمع الصفة القضائية والتنفيذية معا، إلا أن المسؤول فيها عن تصريف شؤون العدالة يختلف عن القاضي بخمس نقاط جوهرية(٢١):

أولا : صاحب المظالم اعظم هيبة وأشد قوة.

ثانيا : السلطة القضائية لصاحب المظالم أوسع حالا.

ثالثا : لصاحب هذه الوظيفة من قوة الارهاب ماليس للقضاة.

رابعا : لصاحب هذه الوظيفة كامل الحرية في التعامل مع الخصمين في اتخاذ الاجراءات المناسبة كالوساطة لاجل التراضي، أو الكفالة، وفرض الاقامة الاجبارية أحيانا.

خامسا : لصاحب المظالم كامل السلطة في استدعاء الشهود واطراف الدعوى، وهذا ماليس للقضاة.

(١٨) نهاية الأرب ٢٦٨/٦٢

(١٩) القرافي ، الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، ص ٤ .

(٢٠) الأحكام السلطانية ، ص ٧٧ .

(٢١) الماوردي ، الأحكام السلطانية، ص ٨٣ ـ ٤. وهو يذكر عشرة فوارق بين القاضي وصاحب المظالم، أوجزها هنا في خمسة.

نهاية الارب ٢٧١/٦ .

والظاهر أن منح صاحب المظالم حرية التصرف المسؤول إنما كان يستهدف تحقيق عدالة القانون، مما يمكن الناس من العيش بطمأنينة بعيدا عن مظاهر الجور والظلم. كما تمكنه من ممارسة سلطته القضائية في الدعاوى التالية:

أولا : دعاوى تخص تعدى الامراء على الرعية والتعسف في ممارسة سلطاتهم، وهذه الدعاوى هي الغالبة على عمل هذه المؤسسة.

ثانيا : دعاوى ظلم وجور عمال الأقاليم فيما يجبونه من أموال .

ثالثا : دعاوى تخص موظفي الدواوين.

رابعا : تظلم الجند من نقص رواتبهم أو تأخر دفعها.

خامسا : دعاوى تخص الأملاك المغصوبة . وهذه الغصوب ضربان، غصوب سلطانية تغلب عليها ولاة الجور غصبا من أربابها. مثالا عليها نذكر أن عمر بن عبدالعزيز خرج ذات يوم الى الصلاة فاعترضه رجل ورد من اليمن متظلما فقال عمر ما ظلامتك؟ فقال : غصبني الوليد بن عبدالملك ضيعتي. فطلب عمر بن عبدالعزيز «دفتر الصوافي» فوجد فيه: اصفى عبدالله الوليد بن عبدالملك ضيعة فلان. فأمر عمر باخراجها من الدفتر وردها الى صاحبها، واعطائه مبلغا يعادل ضعف نفقته(٢٢).

سادسا : الاشراف على الوقوف .

سابعا : تنفيذ الدعاوى التي عجز القضاة عن تنفيذها لضعف عن انفاذها وعجزهم عن المحكوم عليه لقوة يده أو لعلو قدره وعظم خطره، فيكون صاحب المظالم «أقوى يدا وانفذ أمرا فينفذ الحكم على من توجه إليه بانتزاع ما في يده أو بالزامه الخروج مما في ذمته»(٢٣).

ثامنا : النظر فيما عجز عنه الناظرون في الحسبة من أمور تتعلق بالقانون العام.

تاسعا : النظر في أمور بعض العبادات .

عاشرا : النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتخاصمين.

ان تبويب الماوردي لسلطات صاحب المظالم جاء منسجما مع الواقع الفعلي لهذه المؤسسة، فالماوردي هنا يثبت ما كان واقعا فعلا، واستمر عليه العمل حتى منتصف القرن الهجري الخامس (توفي الماوردي سنة ٤٥٠ هـ).

(٢٢) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٨٣ .

(٢٣) ن. م، ص ٨٣. نهاية الأرب، ٢٧٣/٦٢ .

ديــوان مظالم الرعيــة :

الديوان هو السجل، ثم تطور هذا المعنى فصار يعني المكان الذى توضع فيه السجلات، بالاضافة إلى مجموعة الموظفين المعينين لانجاز الأعمال الخاصة بها. فديوان المظالم هنا يشمل كامل جهاز هذه المؤسسة السجلات والموظفين والمكان الذى يضمهم جميعا.

ان ديوان المظالم يضم المجموعة التالية من الموظفين :

أولا : صاحب ديوان المظالم .

يتولى هذه الوظيفة رجلا له دين وأمانة وعدل ورأفة ليكون بهذه الصفات نافعا للمتظلمين[٢٤]. ويتولى صاحب الديوان عملا خلاصات لكل المظالم مثبتة برقاع (عرايض) تعرض على رئيس الدولة، فاذا جلس للمظالم عرضت عليه «ليوقع على القصة بما يوجبه الحكم»[٢٥].

وإذا انفض مجلس المظالم أخذ صاحب الديوان جميع الدعاوى وما صدر بحقها من الخليفة ليعمل خلاصة بها محررة في سجل خاص، هو سجل المظالم، فيه اسم المتظلم ونوع ظلامته، والحكم الصادر بحقها. وإذا ما تكررت مراجعات متظلم ما في قضية لم تحسم، كان على صاحب الديوان ان يعمل خلاصة شاملة للظلامة، يعرضها على الخليفة، ويثبتها في ديوان المظالم[٢٦].

ثانيا : صاحـــب الحوائـــج

يتولى صاحب الحوائج عرض قصص المتظلمين على الخليفة مباشرة بعد استلامها من صاحب الديوان، فوظيفة صاحب الحوائج وصاحب الديوان تكاد أن تكون متقاربة، إلا أن الثاني أوسع في صلاحياته فهو يتولى الاشراف على كامل شؤون الديوان وموظفيه.

---

(٢٤) قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ورقة ٢٤ . مخطوط مصور في المكتبة المركزية لجامعة بغداد، رقم ٥٩٠٧.

(٢٥) قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ورقة ٢٤ .

(٢٦) ن. م. ورقة ٢٤

يذكر ابن طيفور أن احمد بن خالد كان يتولى وظيفة صاحب الحوائج، طلب منه المأمون مرة الاستعجال في عرض قصص المتظلمين ليبت فيها قال له:
«أغد على باكرا لآخذ القصص التي عندك فانها قد كثرت لنقطع أمور أصحابها فقد طال صبرهم على انتظارها... فبكر وقعد لها المأمون فجعل يعرضها عليه ويوقع فيها»(٢٧).

ثالثا : نائب صاحب المظالم

ينظر الخليفة، بوصفه رئيسا للدولة، في مظالم الرعية، لكنه ينيب عنه أحيانا مسؤولا ينظر في مظالم الرعية، في مدينة أو أقليم من الأقاليم(٢٨).

رابعا : كتاب المظالم

نظرا لسعة الأعمال التي يمارسها ديوان المظالم مع طائفة كبيرة من الناس، نجد لدينا عددا من كتاب المظالم يعملون كلا حسب اختصاصه نذكر منهم:

أ ـ كاتب تثبيت :

وهو الذى يثبت الظلامة في سجل الديوان، مع ذكر اسم المدعي والمدعى عليه. ثم يحيلها إلى صاحب الديوان(٢٩).

ب ـ كاتب نسخ :

يتولى مهمة استنساخ نص الظلامة حرفيا، لتحفظ في الديوان(٣٠).

(٢٦) ن . م . ورقة ٢٤
(٢٧) ابن طيفور، تاريخ بغداد، ٥٧/٦
(٢٨) راجع مثالا على هذه الحالة : ياقوت، معجم البلدان ١٣٧/٢ ـ ٨
(٢٩) قدامة بن جعفر، ورقة ٢٤ . مخطوط
(٣٠) قدامة بن جعفر، ورقة ٢٤ . مخطوط

جـ ـ كاتب انشـــاء :

يتولى انشاء الكتب وتوزيعها الى الجهات المختصة حسب مقتضى الحال[٣١].

د ـ كاتب تحريــــر :

يتولى مهمة مراسلة المؤسسات القضائية والتنفيذية فيما يخص ظلامات الناس (كالشرطة مثلا)[٣٢].

مجلس المظالم (المحكمة العليا)

نعني بمجلس المظالم انعقاد هذه المحكمة في مكان وزمان محدد يعلمه الناس ويفدون إليه يحضره رئيس المجلس متمثلا بالخليفة بالاضافة إلى عدد كبير من الفقهاء والقضاة والشهود العدول والشرطة والأعوان، يحضر هؤلاء للمشاورة والمداولة وتنفيذ الأحكام[٣٣].

وقد سبق أن ذكرنا أن عبدالملك بن مروان أول من خصص يوما معينا ينظر فيه ظلامات الناس. ولكننا نجهل اليوم الذى خصصه لمجلسه هذا، وان كان الماوردى يرجح يوم الجمعة أو الاثنين[٣٤].

في الدولة العباسية، صار جلوس الخلفاء للمظالم نهجا ثابتا في سياستهم لا يحيدون عنه. ويعتبر المنصور أول من عين موظفا لهذه المؤسسة وهو الحسن بن عمارة، كان يجمع ظلامات الناس ويعرضها على الخليفة ليبت فيها[٣٥]. وكـــان المنصــور قد أودع أموال من صادرهم من الموظفين في «بيت مال المظالم»[٣٦]، وأمر ابنه المهدى بردها إذا ما تولى الخلافة بعد أبيه[٣٧].

---

(٣١) قدامة بن جعفر ، ورقة ٢٤ . مخطوط

(٣٢) قدامة بن جعفر ، ورقة ٢٤ . مخطوط

(٣٣) النويرى ، نهاية الارب ، ٢٧٠/٦

(٣٤) ن. م، ٢٧٠/٦ . راجع أيضا قدامة بن جعفر، ورقة ٢٤ م

(٣٥) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد ١٠٢/١٤

(٣٦) الطبرى ، ٤١٥/١٠

(٣٧) الطبرى ، ٤١٥/١٠

ابتدأ المهدى عهد خلافته في النظر بمظالم الناس، وكان إذا جلس مجلس المظالم أمر بادخال القضاة عليه ليشاركوه في مجلسه وأحكامه[٣٨]. وقد عين المهدى ابن ثوبان في وظيفة «صاحب المظالم» يجلس للناس بالرصافة فإذا ملأ كساءه من رقاع المظالم رفعها الى الخليفة لينظر فيها[٣٩].

ان المصادر تجعلني أقر بثقة أن محكمة من هذا النوع. كانت الوسيلة الوحيدة لاتصال الناس بأعلى سلطة في الدولة العربية. وفي الوقت ذاته كانت انجح وسيلة للسلطة ذاتها في التأكيد على العدالة والالتزام بنهج الشريعة السمحاء وسنة الرسول[٤٠]. مثلا وتدليلا على قولنا هذا نذكر قول أحد مستشارى الخليفة الهادى، ينبهه على أهمية نظره في مظالم الشعب بعد أن تركها فترة، يقول له: «يا أمير المؤمنين أن العامة لا تنقاد لما أنت عليه لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام»[٤١]. فأمر عندها الهادى بفتح أبواب القصر، فدخل الناس على بكرة أبيهم، يحملون الرقاع (العرايض) بأيديهم، فلم يزل الهادى ينظر فيها إلى الليل[٤٢].

والظاهر أن أبا يوسف القاضي كان يدرك دور هذه المؤسسة في كسب الناس فلفت نظر الرشيد إلى أهمية جلوسه لمظالم رعيته كي يعم العدل ربوع دولته. يقول ابويوسف للرشيد:

> «يا أمير المؤمنين .... لو تقربت إلى الله عز وجل بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر أو الشهرين مجلسا واحدا تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم، رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته، ولعلك لا تجلس إلا مجلسا أو مجلسين حتى يسير ذلك في الامصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونظرك في أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاءه»[٤٣]

(٣٨) ابن الطقطقى ، الفخرى ، ص ١٧٩

(٣٩) الطبرى ، ٤٠٨/١٠

(٤٠) راجع نهاية الارب ٢٧٠/٦. وهو يذكر أن بعض الخلفاء شيد بناية خاصة للنظر في المظالم سماها «دار العدل»

(٤١) البيهقي، المحاسن والمساوئ ٢٠٦/٢

(٤٢) الطبرى ق ٣، ج ١٠، ٥٨٣. طبعة بيروت

(٤٣) ابويوسف ، الخراج ، ص ١٣٤

الظاهر ان ابا يوسف تحسس خطورة تفاقم نفوذ البرامكة في الدولة العباسية، وفي أوساط الرأي العام، خاصة بعد أن تولى جعفر البرمكي نيابة الرشيد في نظر مظالم الرعية. فصار الناس يزدحمون على بيته ينتظرون خروجه لعرض ظلاماتهم عليه(٤٤).

لقد كان صوت أبي يوسف، «الصوت الوحيد الذى اعترض على سياسة الأخذ بالموروث الساساني» الذى مثل البرامكة أحد أقطابه الكبار. لقد نبه أبويوسف الخليفة الرشيد الى خطورة استحواذ جعفر على هذه المؤسسة الشديدة الصلة بالناس.

وقد استجاب الرشيد لهذا النداء، فجلس لمظالم الناس بنفسه(٤٥) في بغداد والرافقه(٤٦) كما ولى ابن عليه وظيفة صاحب المظالم(٤٧).

وبعد المأمون أكثر الخلفاء العباسيين متابعة لسير أعمال هذه المؤسسة حتى انه كان يجلس «مجلس المظالم» مرتين في الاسبوع، يومي الجمعة والأحد جلوسا عاما لكافة المتظلمين لا يمنع أحداً من الرعية(٤٨). فزاد ذلك من شعبيته بعد أن تدهورت في بغداد أثر البيعة بولاية العهد لعلي بن موسى الرضا(٤٩).

يذكر الماوردى أن المأمون جلس يوما لمظالم الرعية، فكان أول الناس حضورا امرأة في يدها رقعة ظلامة، سألها المأمون من خصمك؟
قالت: القائم على رأسك العباس بن أمير المؤمنين!
فقال المأمون لقاضيه يحيى بن اكثم اجلسها معه وانظر بينهما، فأجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون، وصار كلامها يعلو، فزجرها القاضي، فقال له المأمون: دعها فان الحق انطقها والباطل أخرسه، وامر برد ضياعها، وتابع بنفسه تنفيذ الحكم(٥٠).

(٤٤) الجهشياري ، الوزراء والكتاب، ص ١٦٤، ١٧٠
(٤٥) الاصفهاني، الاغاني، ١٦٦/١٤
(٤٦) الرافقة: مدينة بناها المنصور، وعمرها الرشيد، وسكن فيها مدة طويلة (معجم البلدان ١٥/٣)
(٤٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ق ٢، ج ٧، ص ٧٠
ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة ١٠٠/١
(٤٨) ابن طيفور ، تاريخ بغداد ٥٧/٦
(٤٩) المسعودى، التنبيه والاشراف، ص ٣٤٩ (بيروت ـ ١٩٦٥)
(٥٠) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٨٣

ان الظاهرة المهمة في هذه المؤسسة القضائية ذات الصبغة الشعبية، ضعف فعالياتها، بل توقف ممارستها لصلاحياتها ابان ضعف بعض الخلفاء العباسيين، في فترات تسلط القوى الأجنبية كالتركية، والبويهية (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) والسلجوقية (٤٤٧ ـ ٥٩٠ هـ). فكيف يرد الخليفة العباسي المظالم عن رعيته وهو عاجز عن رد الظلم عن نفسه، بل عجز بعض الخلفاء عن ممارسة بعض صلاحياته(٥١).

من هنا حاول بعض الخلفاء العباسيين استعادة بعض سلطاتهم من القوى الأجنبية عن طريق النظر في مظالم الرعية وسماع شكاويهم، وثقوا سلطتهم بالشعب كنقطة ارتكاز لهم في التصدى للقوى الأجنبية. وأصدق مثال على هذا ما أقدم عليه الخليفة المهتدى في سامراء، حيث «كان يجلس للمظالم فيحكم حكما يرتضيه الناس»(٥٢) وقد اتخذ من (دار العامة) مقرا له تقرأ عليه قصص المتظلمين من أولها إلى آخرها فيأمر في التوقيع فيها، ثم تحرر وتختم وتدفع الى أصحابها بين يديه(٥٣).

والمصادر تشير إلى أن المهتدى أمر أن يدخل الناس عليه مباشرة، فأرتشى بعض موظفيه من الناس، قدموا بعضهم على البعض الآخر في مقابلة الخليفة(٥٤). «فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق، وأمر فنودى بطرح القصص فيه، فكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده اولا فينظر فيه لا يقدم بعضه على بعض»(٥٥). فليس غريبا بعد هذا أن يستنفر الخليفة المهتدى عامة الشعب لمساندته في ضرب الأتراك، «استنفر العامة وأباحهم دماءهم وأموالهم ونهب منازلهم»(٥٦) إلا أن محاولته فشلت، فقد كان الأتراك آنذاك في أوج قوتهم وقدراتهم العسكرية(٥٧).

---

(٥١) ينطبق هذا القول على أكثر خلفاء فترة التسلط البويهي الأجنبي على العراق خلال الفترة (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ)

(٥٢) الفخري ، ص ٢٤٦

(٥٣) تاريخ بغداد ٣٤٩/٣

(٥٤) العسكري، الأوائل، ص ١٦٧

(٥٥) العسكري، الأوائل؛ ص ١٦٧

(٥٦) اليعقوبي ، التاريخ، ٢٤٣/٣

(٥٧) قتل المهتدى من قبل الاتراك سنة ٢٥٦ هـ (اليعقوبي ٢٤٣/٣)

وينقل لنا الصابي صورة حية لمجلس مظالم في العباسية أمر بانعقاده الخليفة المعتضد للنظر في شكوى رفعت إليه من أهل بادوريا[٥٨] فقد تجاوز على مياه سقيهم ظلما أهل المنطقة المجاورة لهم بالتواطؤ مع موظفي الحكومة المسؤولين عن الري. يقول الصابي: ان أهل سقي الفرات واطئوا العمال والمهندسين على ظلمهم وكتمان ما عندهم من أمر أبواب فنظره دمما ووافقوهم على تصنيفها ليتوفر الماء عليهم فأمر المعتضد بالله أحد كبار موظفيه بالخروج الى هذه المنطقة على أن يصحب معه أصحاب الدواوين ومشايخ العمال، والمهندسين، وبعض قضاة بغداد، وطائفة من الشهود العدول، وبعض الذراع، للوقوف على حقيقة هذه الظلامة. وقد خرج هؤلاء من بغداد ومعهم عامل بادوريا وجماعة من شيوخها، وصلوا المنطقة واجتمعوا مع الدهاقين هناك، ودرسوا طبيعة توزيع المياه على ضوء مقاسات الأبواب[٥٩].

كان المهتدى آخر من جلس للمظالم في سامراء[٦٠] فلم يجلس بعده خليفة طيلة تسلط القوى الأجنبية على الخلافة العباسية، انيطت مسؤوليتها ببعض الوزراء الأقوياء، جلسوا لها جلوسا عاما، في أيام محدودة ومعلومة لعامة الرعية.

لقد أصبح في بداية القرن الرابع الهجري عرفا ساريا أن ينوب الوزراء عن الخليفة في حضور مجلس المظالم، وقد اشتهر من هؤلاء الوزراء علي بن عيسى[٦١] جلس للمظالم كل يوم ثلاثاء[٦٢]وابن الزيات[٦٣] جلس لمصالح الناس أياما عدة في الشهر الواحد[٦٤] ويعتبر ابن الفرات أكثر الوزراء العباسيين متابعة لشؤون مظالم الرعية[٦٥].

وفي عهد المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) ولأول مرة في تاريخ القضاء العربي أمرت أم المقتدر

(٥٨) بادوريا : منطقة زراعية خصبة جدا، من أعمال بغداد

(٥٩) الصابي، رسوم دار الخلافة ١٨٠

(٦٠) النويري ، نهاية الأرب ، ٢٧٠/٦

(٦١) علي بن عيسى، يذكر ابن الطقطقا، كان علي بن عيسى شيخا من شيوخ الكتاب فاضلا دينا ورعا متزهدا وما أعلم أنه وزر لبني العباس وزيرا يشبهه في علمه وحسابه، وضبط الدواوين (الفخري، ص ٢٦٨)

(٦٢) عريب، صلة تاريخ الطبري، ص ١٣٠. الفخري ص ٢٦٨

(٦٣ ـ ٦٤) الفخري، ٢٦٩. وقد ينظر في المظالم من هو دون الوزير فيوسف بن يعقوب تولى ديوان المظالم ببغداد، فنادى من كانت له مظلمة من قبل الأمير الناصر (الموفق) فما دونه من الناس فليحضر (المنتظم ١٠٥/٥) حوادث سنة ٢٧٧

(٦٥) راجع التنوخي ، نشوار المحاضرة ١٧٠/١٥.

قهرمانة لها تعرف ثمل ان تجلس بالرصافة وتنظر في ظلامات الناس كل يوم جمعة فأنكر الناس ذلك واستبشعوه وكثر طعنهم فيه من اليوم الأول الذى جلست فيه، وفي اليوم الثاني احضرت القاضي ابا الحسن الاشناني وبعض الفقهاء مجلس المظالم «فخرجت توقيعاتها على السداد فانتفع المتظلمون منها وسكن الناس الى ما كانوا نافروه من قعودها ونظرها»(٦٦).

في عهد السيطرة الأجنبية على الخلافة العباسية، ابتداءً من سيطرة أمير الأمراء على بغداد (٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ) وحتى نهاية العهد السلجوقي في سنة ٥٩٠ هـ خضعت هذه المؤسسة الى الظرف الجديد فكان هؤلاء الأمراء ينظرون في مظالم الناس دون الخلفاء والوزراء، فناصر الدولة بن حمدان أمير الأمراء سنة ٣٣٠ هـ كان ينظر في قصص مظالم الناس، وتقام الحدود بين يديه، ويفعل ما يفعل أصحاب الشرط(٦٧).

وفي عهد السيطرة البويهية كان عضد الدولة ينظر في مظالم الناس في بغداد، لكنه أمر بمنع رفع الظلامات على كبار قواده، فلما نجح أحد المواطنين في ايصال ظلامته الى عند الدولة ـ وكان اسفار أحد كبار قواده العسكريين قد اغتصب ضيعته ـ رفض عضد الدولة قبول الظلامة، وقع فيها ما يفيد أن الدعوى هذه باطلة(٦٨).

في العهد البويهي، ولأول مرة في تاريخ هذه المحكمة، عهد الى النقباء العلويين مهمة النظر في مظالم الرعية، ففي عهد الخليفة المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) تقلد الحسين بن موسى العلوى المظالم بمدينة السلام، وكتب له بذلك عهدا(٦٩). وفي سنة ٣٩٤ هـ قلد بهاء الدولة الشريف الحسين بن موسى قضاء القضاة والحج والمظالم ونقابة العلويين، وكتب له عهدا على جميع ذلك(٧٠).

(٦٦) صلة تاريخ الطبرى ، ص ٧١

(٦٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢٩٣/٦

(٦٨) الروذراورى ، ذيل تجارب الأمم، ص ٤٧

(٦٩) القلقشندى ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ٣٤٠، ص ١٥١ ـ ١٥٧

(٧٠) المنتظم ٧٤/ص ٢٢٦

وفي سنة ٤٠٦ هـ تقلد الشريف المرتضى أبوالقاسم الموسوى الحج والمظالم ونقابة نقباء الطالبين، وجمع الناس لقراءة عهده في لواء الملكية، وحضر الأشراف والقضاة والفقهاء جميعهم(٧١).

والسلاجقة كالبويهيين نظروا في المظالم(٧٢). إلا أن الخلفاء العباسيين عاودوا نشاطهم منذ منتصف القرن الهجرى السادس لاحياء مؤسسة المظالم، فكان القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ) يأمر أحد موظفي دار الخلافة بالخروج للناس واستلام ظلاماتهم، فكان اذا خرج انهالت عليه رقاع المتظلمين، يرفعها الى الخليفة مباشرة(٧٣)، وفي خلافة المقتدى اتخذ صاحب المظالم مجلسا له في باب النوبي يداوم الجلوس فيه يوميا لاستلام رقاع المتظلمين(٧٤).

وأوردت المصادر أسماء طائفة من موظفي هذه المؤسسة نظروا في مظالم الرعية منهم:

مجد الله بن محمد الدامغاني(٧٥)	تولى المظالم سنة ٥٠٠(٧٦)
عبدالوهاب بن قادر الجيلي	تولى المظالم سنة ٥٨٣(٧٧)
جمال الدين علي بن المعالي	نظر في المظالم في الفترة ٦٢٩ ـ ٦٣٣ هـ(٧٨)

ولا يعني هذا أن الخلفاء العباسيين المتأخرين لم ينظروا في المظالم، فالخليفة الراشد (٥٢٩ ـ ٥٣٠ هـ) أمر أن ينادى في بغداد: من كانت له مظلمة فليشكها الى الديوان العزيز(٧٩). وكان هذا النداء ردا على محاولة السلاجقة في حث الناس ودعوتهم الى رفع مظالمهم للسلطان السلجوقي(٨٠). كما أن الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ ـ ٥٦٢ هـ) قد أمر وزيره برفع قصص المتظلمين اليه ليوقع فيها بنفسه(٨١).

---

(٧١) راجع هذا العهد في المنتظم ٢٧٦/٧

(٧٢) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص 74

(٧٣) ابن الجوزى، المنتظم ٥٩/٨

(٧٤) ن. م، ٢٦/٩. راجع نص العهد في المصدر ذاته ٢٦/٩ ـ ٣٠

(٧٥) المنتظم ٢٦/٩

(٧٦) القرشي، الجواهر المضية ٢٨٧/١

(٧٧) مرآة الزمان، ٨٤، ق ٢، ص ٤٥٤

(٧٨) الحوادث الجامعة، ص ١٤٥

(٧٩ ـ ٨٠) المنتظم ٥/١٠

(٨١) الكازروني، مختصر التاريخ، ص ٢٣٤

أما الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) فقد جلس بنفسه، ينظر في مظالم رعيته، يوقع عليها بنفسه، استمر على هذا التقليد طيلة خلافته الى ان ضعف بصره وتوالت الأحزان على قلبه. وكف عن الجلوس لها «عجز عن النظر في قصص المتظلمين، فكانت امرأة تسمى نسيم خطها قريبا من خطه جعلها بين يديه تكتب الأجوبة في الرقاع»[٨٢].

انتشرت محاكم المظالم في جميع الأقطار والأمصار الى جانب القضاء الاعتيادى، ففي الأندلس، نظر بعض القضاة في ظلامات الرعية بناء على طلب رئيس الدولة وكان نظرهم في مثل هذه الدعاوى على طريقة قاضي المظالم ووفق صلاحياته[٨٣].

وفي مصر نظر أحمد بن طولون في مظالم الناس وقد «داوم النظر في المظالم حتى استغنى الناس من الشرطتين ومن القاضي، حتى كان بكار ربما نعس في محله واتكأ، ثم انصرف الى منزله ولم يتقدم اليه اثنان»[٨٤]. ولما اختلف الطولونيون مع الموفق بقيت مصر ما يقارب سبع سنوات بلا قاض «نظر فيها ابن عبده في المظالم»[٨٥] أربع سنين. وكان خمارويه يبجل ابن عبده ويعظمه ويجرى عليه كل شهر ثلاثة آلاف دينار وفوض اليه مع القضاء النظر في المظالم والمواريث والأحباس والحسبة[٨٦].

كذلك كان كافور الاخشيدى يجلس في «مجلس المظالم»[٨٧] ولكثرة اقبال الناس على مجلس مظالم كافور كان القاضي ابو الطاهر الذهلي «في احكامه كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم في كل سبت»[٨٨]

ولما قدم جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ بجيوش المعز لدين الله الفاطمي جلس لمظالم الناس ووقع على رقاع ظلاماتهم، وكان جلوسه في يوم السبت من كل اسبوع[٨٩] وربما أوكل

(٨٢) الكتبي، فوات الوفيات، ٣٩٠/١
(٨٣) الخشني، قضاة قرطبة، ص ٣٧ ـ ٨
(٨٤) الكندى، ص ٥١٢
(٨٥) الكندى، ص ٥١٥
(٨٦) الكندى، ص ٥١٦
(٨٧) الكندى، ص ٥٨٣
(٨٨) الكندى، ص ٥٨٤
(٨٩) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٢٢٣

هذه المهمة الى أبي عيسى مرشد(٩٠). ولما قدم المعز لدين الله الى مصر قلل النظر في المظالم الى الحسين بن عمار(٩١). وقد انفرد الفاطميون عن غيرهم فعينوا ناظرا خاصا بمظالم المغاربة(٩٢) وآخر خاصا بالطبقة العامة من الناس(٩٣).

ثم انيطت مهمة تعيين صاحب المظالم الى الوزير بن كلس الذى استدعى أحمد بن المنهال، من تونس «فرد إليه أمر المظالم في مصر وأعمالها وكتب له بذلك سجلا»(٩٤) ولما عين قاسم بن عبدالعزيز بن محمد بن النعمان بمنصب قاضي قضاة مصر سنة **٤٢٧** هـ «نظر في الأحكام والمظالم»(٩٥).

ذكرت المصادر وجود «محكمة المظالم» عند الحمدانيين وقد شيد الملك الناصر في الشام بناية خاصة يجلس فيها للنظر في مظالم الرعية سماها «دار العدل» وكان جلوسه يومي الاثنين والخميس(٩٦).

ان اجراءات رفع دعاوى المظالم امام المجلس، بسيطة فكان المواطن يتقدم بالظلامة مكتوبة، كذلك تصدر الأحكام فيها مكتوبة، وأحيانا على شكل تواقيع توجز حكم الخليفة في الظلامة. وكانت بعض هذه التواقيع تجرى مجرى النصوص الأدبية البليغة(٩٧). فقد كتب المأمون مرة لأحد عماله، رفعت عنه مظلمة، ثم تكررت كتب اليه: قد كثر **شاكوك**، وقال **شاكروك، فأما** عدلت واما اعتزلت(٩٨).

---

(٩٠) ن . م ، ٢٢٣
(٩١) السيوطي ، حسن المحاضرة ١١٦/٢
(٩٢) المقريزى ، ص ٢٢٣
(٩٣) ن . م ، ص ٢٢٣
(٩٤) الكندى ، ص ٥٨٩
(٩٥) الكندى ، ص ٦١٣
(٩٦) ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢٦٧/٣. تحقيق سامي الدهان
(٩٧) راجع عنها: الأصبهاني، محاضرات الأدباء، ص ٢١٩. البيهقي، المحاسن والمساوئ ح ٢/ص ٢٨٤ ـ ٥. النويرى، نهاية الأرب ٢٨٩/٦
(٩٨) المحاسن والمساوئ ٢٨٤/٢

بعض مظالم الرعية أمام «صاحب المظالم» :

وصف بعض المؤرخين هذه المحكمة فقالوا انها بمثابة محكمة الاستئناف او محكمة التمييز، والظاهر ان اطلاق هذه التسميات قد تكون بعيدة عن الواقع، فمحكمة المظالم لم تعرض عليها دعاوى سابقة نظرت فيها محاكم أخرى، ان فهم طبيعة هذه المؤسسة لا يتأتى إلا من دراسة طبيعة الدعاوى التي رفعت اليها، وهذه الدعاوى تختلف عن الدعاوى المرفوعة الى المحاكم الاعتيادية، دعاوى المدعي فيها، ابناء الشعب، فدعاوى المظالم، دعاوى فئات كبيرة من الناس، قدمت الى حاضرة الدولة (العاصمة) من أمصار كبيرة، كالشام، ومصر، وخراسان. وبعضها من مدن كبيرة. كما رفعت النقابات الحرفية **مظالم** لها، بالاضافة الى الفلاحين والمزارعين.

سأورد هنا ظلامات فئات كبيرة من الناس، تتظلم من جور كبار الموظفين، كما تتظلم أحيانا من اجراءات وتعليمات السلطة المركزية، خاصة فيما يتعلق بالضرائب والأرض.

تظلم أهل حلوان في مصر :

ذكر البيهقي : قدم رجل من أهل حلوان مصر على عمر بن عبدالعزيز فقال: يا أمير المؤمنين ان والدك ولي بلادنا، فكتب الى عبدالملك يخبره ان حلوان صافية وهي ارض خراجية، فاقطعها أياه، فورثتها انت واخوتك فاتق الله ولا تظلمنا كما ظلمنا أبوك (ومع حرص عمر على العدل في سياسته، أثاره طلب المظلمة هذه، رد على ممثل أهل حلوان، وان كان أبي كما ذكرت فهو أبي لا أبوك، نازعني منازعة جميلة، ولا تشتم عرضي، فان لي فيه شركاء اخوة واخوات لا يرضون ان اقضي فيها بغير قضاء قاضي، اقوم معك الى القاضي فان قضي لي اصطبرت، وان قضي لك سلمت فقاما جميعا الى القاضي، فقعدا بين يديه فتكلم عمر بحجته، وتكلم الرجل، فحكم القاضي للرجل. فقال عمر: ان عبدالعزيز قد انفق عليها ألف الف درهم.

قال القاضي قد اكلتم من غلتها بقدر ذلك(٩٩).

---

(٩٩) البيهقي، المحاسن والمساوئ ٢/٢٧١. وعن حرص عمر بن عبدالعزيز في رد مظالم الناس راجع نهج البلاغة ٥/٧٢. وقد أشار ابن ابي الحديد «فجعل عمر لا يدع شيئا ممن كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة»

تظلم أهل الشام :

تظلم المسلمون في الشام الى الخليفه المنصور في رفع المظالم عنهم، فلا يمكن الذميين من ظلمهم والتعسف في املاكهم، ويمنعهم من انتهاك حرماتهم لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني اميه(١٠٠).

تظلم مزارعي البصرة :

تظلم مزارعوا البصرة، من اهل نهر المرغاب، من استحواذ الدولة على أراضيهم الزراعية، فدموا ظلامة الى المهدى، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم قدم منهم وفد لمقابلة جعفر البرمكي، وكان يتولى للرشيد وظيفة «ناظر المظالم» عرضوا عليه الظلامة، فحل الاشكال بشراء هذه الأراضي من الرشيد بعشرين الف درهم، وارجعها للمزارعين(١٠١).

تظلم نصارى الموصل :

لما دخل الخليفة المهدى الموصل سنة ١٦٣ هـ تظلم إليه النصارى من هدم بيعة «مرتوما»، وكان السبب في ذلك أن أصحاب هذه البيعة المجاورة للمسجد المعروف ببني اسباط الصير في المقارب لدرب بني أليا الطبيب، كانوا دخلوا في البيعة أشياء من غيرها، فوقف المسلمون بالموصل على حقيقة الأمر فنفروا إليها فهدموها، فلما قدم المهدى الموصل تظلم النصارى وكثر ضجيجهم لهدم بيعتهم، فنظر المهدى في الأمر. فأحضر النصارى من شهد بهدم بيعتهم، وأحضر المسلمين من شهد بما أدخلوه فيها واضافوه اليها مما ليس منها، وخرج الفريقان معه إلى بلد، فأوجب على النصارى اخراج اربعمائة (٤٠٠) ذراع من بيعتهم بسبب ما أدخلوه فيها من زيادة، وأمر ببناء المسجد من ماله(١٠٢).

---

(١٠٠) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ٢١٦/١

(١٠١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٩٠

(١٠٢) الأزدى ، تاريخ الموصل ، ص ٢٤٤

تظلم أهل مصر :

قدم اهل مصر الى بغداد يتظلمون الى الرشيد من واليهم العباسي موسى بن عيسى الهاشمي، فأرسل الرشيد عمر بن مهران ليستجلي حقيقة الأوضاع في مصر وصحة الشكوى المرفوعة اليه. يقول ابن مهران عما فعله في مصر «خرجت من بغداد وحدي في زي متظلم.. فدخلت باب الامارة وديوان البلد وبيت المال، وسألت وبحثت عن الأخبار وجلست مع المتظلمين وغيرهم فمكثت ثلاثة أيام»(١٠٣) بعد هذا التحري، والتثبت من صحة شكوى ومظلمة أهل مصر، عزل الرشيد واليها.

ان المظالم الجماعية التي يرفعها الناس الى أعلى سلطة في الدولة ممثلة في الخليفة لتعطينا صورة مشرقة لأوضاع الادارة العربية في مختلف أمصارها، فلم تكن السلطة العربية آنذاك لتتردد في اتخاذ الاجراءات المناسبة لاقصاء الأمراء عن مراكزهم إذا ما أثبت أهل ذلك المصر صحة مظالمهم.

مظالم أهل خراسان :

مظلمة أخرى و «جماعية» يبعث بها أهل خراسان الى الرشيد عام ١٨٩ هـ بعد أن عاث عامله علي بن عيسى فسادا في هذا الأقليم صادر أموالهم واستخف برجالهم، فكانت تلك الظلامات «تشكو سوء سيرته»(١٠٤) وتسأل أمير المؤمنين استبداله بمن «احب من كفاته وقواده»(١٠٥).

ولمكانة خراسان وأهميتها المكينة في الدولة العباسية اتخذ الرشيد اجراء سريعا بعزل علي بن عيسى، وكتب له كتابا بخطه شديدا في لهجته قاسيا في تعبير قال له «... ظلمت الرعية واسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك»(١٠٦)

---

(١٠٣) الجهشياري، الوزراء، ص ١٧٢. المسعودي، مروج الذهب، ٢٩٩/٣

(١٠٤) الطبري، ٤٤١/٨، حوادث سنة ١٩١ هـ. مسكويه، تجارب الأمم ٣١٥/٣

(١٠٥) ن.م، ٣٣١/٨. تجارب الأمم ٣١٥/٣

(١٠٦) ن.م، ٣٣١/٨

ثم ان الرشيد ولى بدلا عنه هرثمه بن أعين، وطلب منه القبض على علي بن عيسى ومطالبته برد مظالم الناس وأموالهم، يروي الطبري: ان هرثمة أقام علي بن عيسى ومعه كتابه وأمواله «لمظالم الناس، فكان إذا ورد للرجل عليه أو على أحد من أصحابه حق قال: اخرج للرجل من حقه، والا بسطت عليك العذاب، فيقول ابن ماهان: اصلح الله الأمير (اجلني يوما او يومين. فيقول ذلك الى صاحب الحق فان شاء فعل» وبعد أن استوفى الناس حقوقهم «اظهروا السرور بذلك وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء»(١٠٧)

هنا شكلت «محكمة المظالم» محكمة عليا يترأسها الأمير الجديد المدعي فيها جماهير الشعب الذي اغتصب أموالهم، والمدعى عليه الأمير المعزول ومعه الجهاز الاداري من كتاب وجباة فهؤلاء شركاء طبيعيون مع الأمير السابق.

يذكر هرثمة بن اعين سبب توليته خراسان «أرسلني أمير المؤمنين... للقبض عليه ورد مظالم الناس»(١٠٨) وفي رواية أخرى ان الخليفة بعث يتأكد لهرثمة يحثه على محاكمة الجهاز الاداري السابق و«انصاف الناس منهم في حقوقهم ومظالمهم حتى لا يبقى لمتظلم منهم قبلهم ظلامة إلا استقضيت ذلك له وحملته واياهم على الحق والعدل»(١٠٩) ان هذه الدعوى كادت تثير الوضع السياسي في خراسان، أحتوتها محكمة المظالم بالشكل الذى تمت فيه، فأرضت الناس في حقوقهم، إن هذه المحكمة كما وصفها النويري بحق تمتزج فيها: الأصول السياسية والقواعد الفقهية(١١٠).

في عهد الواثق كثرت الظلامات من عمال الخراج، فأمر الخليفة ان يجلس مع أصحاب دواوين الخراج رجال من المعتزلة «لانصاف المتظلمين من أهل الخراج»(١١١) ويذكر التنوخي أن أهل الأهواز قدموا سامراء في عهد المتوكل وكانت شكواهم تعسف وظلم واليهم. فأمر المتوكل بعزله، وعاد أهل الأهواز الى مدنهم مسرورين(١١٢).

(١٠٧) الطبرى ، ٣٣١/٨
(١٠٨) تجارب الأمم ، ٣١٥/٣
(١٠٩) الطبرى ، ٣٣١/٨
(١١٠) نهاية الأرب ، ١٨٠/٦
(١١١) المرتضى ، المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، ص ٣٠
(١١٢) التنوخي، نشوار المحاضرة ١٨/٢

تظلم فلاحي العراق من الاقطاع:

في عهد المقتدر تزايد ورود الناس الى العاصمة بغداد يحملون رقاع مظالمهم معه، يتظلمون «هذا من أمير، وهذا من والي، وهذا من قاضي»(١١٣).

وقد اعتاذ وزير المقتدر ابن الفرات(١١٤) أن يجلس للمتظلمين صباح كل يوم سبت، بينما يجلس لهم «صاحب ديوان المظالم» بقية أيام الاسبوع، حيث تحسم بعض الظلامات، وتحال المهمة منها الى الوزير نفسه. وقد أحال صاحب ديوان المظالم الى الوزير يوما، مظالم الفلاحين العراقيين من أهل روذمستان، وهرمز جرد، وجنبلاء، وهي قرى خصبة بين سواد بغداد والكوفة، يعاني فيها الفلاحون تعسفا وظلما من وكيل السيدة ام المقتدر فهذه الأراضي جميعها «من اقطاع السيدة»(١١٥).

تظلم فلاحى فارس من خراج التكملة

وفى عهد المقتدر أيضا قدم الى بغداد وجوه أهل فارس يتظلمون من عبء خراج التكملة، يذكر الصابي عن هذا الوفد المتظلم «ورد قوم من اجلاءهم الى بغداد لرفع ظلاماتهم فجمع المقتدر مجلسا من القضاة والفقهاء والكتاب والعمال والقواد فأفتوا ببطلان التكملة، وصدر كتاب الخليفة بذلك سنة ٣٠٣ هـ»(١١٦).

والظاهر أن بعض الظلامات، كانت ترفعها الجماهير معبرة عن سخطها ومعارضتها لبعض الأوضاع الجارية، مثلا على ذلك تظلم أهل بغداد من الديلم واحتجاجهم على تعسف هؤلاء الأجانب وتجاوزاتهم على حقوق الناس وباستمرار(١١٧).

---

(١١٣) التنوخي، نشوار المحاضرة، ٨٧/٥

(١١٤) من وزراء المقتدر الكبار، وقد فرض الخليفه اليه الأمور «فدبرها كما يدبرها الخلفاء» (العيون والحدائق ٤٤٠، ص ١٢١٥)

(١١٥) نشوار المحاضره، ٨٧/٥

(١١٦) رسوم دار الخلافة، ص ١٠٧

(١١٧) شكل دخول البويهيين بغداد مرحلة تاريخية من أكثر المراحل تدهورا وانحطاطا، على المستويين السياسي والاداري.

ان البويهيين قوة أجنبية غريبة عن العراقيين، استولت على بغداد بالقوة وقد أثار دخولهم حاضرة العباسيين سخط الناس فقاتلوهم بالحجارة والعصي[١١٨]، ثم اجتمعوا بأعداد كبيرة في المسجد الجامع سنة ٣٣٠ هـ يتظلمون منهم.

يقول الرودراوري: «اجتمعت العامة في الجامع من دار السلطان وضجوا وتظلموا من الديلم ونزولهم في دورهم بغير أجرة وتعديهم عليهم في معاملاتهم فلم يقع انكار لذلك فمنعت العامة الامام من الصلاة وكسرت المنبر»[١١٩].

هذه المظلمة لم يستطع أهل بغداد أن يرفعوها الى رئيس الدولة (الخليفة) فقد كان هذا بدوره يشكو ظلم البويهيين دون أن يستطيع عملا ما! فكان طبيعيا والحالة هذه أن يستمر «الديلم في النهب والسلب وكبست الدور وأخرج اهلها»[١٢٠]

تظلم الحرفيين :

لا ريب ان دخول القوى الأجنبية وهيمنتها على السلطة السياسية في الدولة العباسية قد أربك الأوضاع العامة، وساهم في تدهور أوضاع الناس المعاشية، فزاد هذا من تذمر مختلف الأوساط الاجتماعية في المدينة والريف.

وظلامة صناع واسط وحرفييها مثالاً على هذه الأوضاع، فقد جاء هؤلاء من واسط الى بغداد يرفعون دعاوى ظلامتهم الى الخليفة المقتدى من عاملهم ابن زريق، ولكنهم لم يفلحوا في مقابلة الخليفة المقتدى، مكثوا في بغداد أربعة أشهر عبثا يحاولون مقابلة الخليفة، فقد تواطأ عامل واسط مع «صاحب المظالم» في بغداد للحيلولة دون مقابلة هؤلاء للخليفة فما العمل؟ لقد نجح حرفيو واسط، وبالتعاون مع بعض عمال بغداد، في دخول قصر الخليفة بالتواطؤ مع أحد جوارى القصر.

يقول ابن الجوزى: «في صفر سنة ٤٧٩ دخل عريف الصناع والفعله والصناع معه على العادة الى دار الخلافة فخرج المقتدى يمشي في الدار فخرج اليه ثلاثة من الرجال فقبلوا

(١١٨) ذيل تجارب الأمم ١٨/٢ ، ٢٥
(١١٩) ذيل تجارب الأمم ١٨/٢
(١٢٠) ن . م ، ١٨/٢

الأرض وقالوا: نحن رجال من رؤساء نهر الفضل صودرنا وعوقبنا ولنا أربعة أشهر على الباب لم ينجز لنا حال»(١٢١).

رد المقتدي : من فعل بكم هذا ؟

قالوا : ابن زريق الناظر بواسط . طمأنهم المقتدي بدراسة هذه المظلمة، ودعاهم في الرجوع الى واسط . ثم اصدر أمرا في الحال «من ساعته بايضاح الحال فان كان كما ذكروا فليعزل ابن زريق عن أعمال واسط وليصعد به (يحمل) منكلا ثم تقدم الى صاحب المظالم ان لا يطوى حال احد من الرعية»(١٢٢) وبعد هذا الأمر وصل من ينوب عن الخليفة في استيفاء حقوق هؤلاء من ابن زريق، وتنفيذ أمر الخليفة فيه(١٢٣).

ولدينا روايات كثيرة عن مظالم فردية، رفعها أفراد من عامة الشعب الى رئيس الدولة، حيث يتدخل الخليفة وبسرعة لرفع المظلمة وارجاع حقوق الناس لأهلها ومعاقبة كبار موظفيه.

لدينا مظلمة، رفعها رجل من العراق الى مهندس الدولة الخليفة الثاني (عمر ابن الخطاب)، تظلم هذا الرجل من عامله عدي بن ارطأة في ارض له. قال عمر غاضبا: قاتله الله! أما والله ما غرنا إلا بعمامته السوداء. ثم كتب الى عدي بن ارطأة يرد الأرض(١٢٤).

لقد رفعت مظالم من مختلف الطبقات على مختلف الموظفين فهناك مظالم رفعها الشهود على القضاة(١٢٥)، كما رفع عامة الناس مظالم على القضاة(١٢٦) وعلى الشرطة(١٢٧) وعلى الولاة(١٢٨). ولدينا مظلمة الى الواثق من حداد(١٢٩) ومن ذمي(١٣٠).

(١٢١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٧/٩

(١٢٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٧/٩

(١٢٣) ن. م، ٢٧/٩. وراجع أيضا اطروحة زميلنا الدكتور فاضل الخالدي، النظم في العراق في أواخر العصر العباسي ٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ رسالة دكتوراه على الآلة الطابعة ص ٢٧٦. «المظالم»

(١٢٤) راجع هذه المظلمة في: البيهقي، المحاسن والمساوي، ٢٧٤/٢

(١٢٥) الكندي ، ص ٦٠٧

(١٢٦) نشوار المحاضرة ٥٧/٥ . الكندي، ص ٥١٦، ٥٨٣، ٦٠٧

(١٢٧) نشوار المحاضرة، ١٨/٢

(١٢٨) تاريخ بغداد ، ١٤٦/٤

(١٢٩) شرح نهج البلاغة ٧٢/٥

(١٣٠) ن. م، ٧٢/٥

المصـــادر

ابن الأثير ، علي بن أبي الكرم

الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٧م.

الازدي ، يزيد بن محمد

تاريخ الموصل ، القاهرة ١٩٦٧ م .

الاصبهاني ، حسين بن محمد

محاضرات الأدباء ، بيروت ١٩٦١ م.

البخاري، محمد بن اسماعيل

كتاب الجامع الصحيح، ليدن ١٩٦٢ ـ ٦٨ .

البيهقي ، ابراهيم بن محمد

كتاب المحاسن والمساوئ، القاهرة ـ ١٩٦٧.

التنوخي ، المحسن بن علي

نشوار المحاضرة، بيروت ـ ١٩٧١ ـ ٧٣ .

الجهشياري ، محمد بن عبدوس

كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة ـ ١٩٣٨

ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي

المنتظم، الدكن ١٣٥٧ هـ .

ابن أبي الحديد

شرح نهج البلاغة، بيروت ١٩٦٣ م.

الحسيني ، ابو الحسن علي

أخبار الدولة السلجوقية ، لاهور ١٩٣٣ م.

د . الخالدي، فاضل عبداللطيف

النظم في العراق في أواخر العصر العباسي، رسالة دكتوراه على الآلة الطابعة.

الخطيب البغدادي ، احمد بن علي

تاريخ بغداد (بيروت ، لا . ت)

الروذراوري ، محمد بن الحسن

ذيل كتاب تجارب الأمم، القاهرة ، ١٩١٦ .

الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمد

تفسير الكشاف، بيروت، (لا. ت).

السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ـ ١٩٦٨ .

الشافعي ، محمد بن ادريس .

الام ، القاهرة ، ١٩٦١ .

ابن الشحنة ، ابراهيم بن أبي اليمن

لسان الحكام في معرفة الأحكام. بهامش معين الحكام للطرابلسي.

الصابي، هلال بن المحسن

رسوم دار الخلافة، بغداد ١٩٦٤ .

الطبري ، محمد بن جرير

تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة .

ابن العديـــــم .

زبدة الحلب في تاريخ حلب ، (لا. ت)

العسكري ، الحسن بن عبدالله

الأوائل ، طنجة ، (لا. ت)

القرافي، احمد بن ادريس

الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، القاهرة، ١٩٣٨.

القرشي ، محي الدين عبدالقادر

الجواهر المضية في الطبقات الحنفية، الدكن، ١٣٣٢ .

القلقشندي، احمد بن عبدالله

صبح الأعشى، القاهرة (لا. ت)

مآثر الانافة في معالم الخلافة، الكويت ١٩٦٤ .

الكازروني ، ظهير الدين علي بن محمد

مختصر التاريخ. بغداد ١٩٧٠ .

الكتبي، محمد بن شاكر

فوات الوفيات ، القاهرة ١٩٥١

الكندى، محمد بن يوسف

كتاب الولاة وكتاب القضاة، القاهرة ١٩٠٨ .

الماوردي ، علي بن محمد

الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٦ .

النويري ، احمد بن عبدالوهاب

نهاية الأرب، القاهرة ١٩٥٥ .

قدامة ، ابن جعفر

الخراج وصنعة الكتابة، مخطوطة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد برقم ١٦.

ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم

كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٨٢ .

سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم في غزواته مع اليهود

- غزوة بني قينقاع.
- غزوة بني النضير.
- غزوة بني قريظة.
- غزوة خيبر.

للدكتور: إحسان ثريا - تركيا

كل من درس الكتب التاريخية الإسلامية وخاصة كتب السيرة النبوية، وجد أن عداوة اليهود ضد محمد (صلى الله عليه وسلم) قد بدأت من طفولته، ولا تزال تدوم ضد الإسلام والمسلمين الى يومنا هذا .

هم الذين أرادوا قتل محمد صلى الله عليه وسلم وهو مع حليمة، أمه التى أرضعته ويقول ابن سعد: «ان أم النبى صلى الله عليه وسلم لما دفعته الى السعدية التى أرضعته قالت لها: احفظى ابنى، وأخبرتها بما رأت من المعجزات. فمر بها اليهود، فقالت: الا تحدثونى عن ابنى هذا فانى حملته كذا ووضعته كذا كما وصفت أمه، فقال بعضهم لبعض: اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو ؟ فقالت: لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيما لقتلناه»(١) .

هكذا كان اليهود تريد قتل الصبى خشية أن يكون نبيا وليس منهم. ونقرأ فى المصادر أيضا، لما سافر محمد (صلى الله عليه وسلم) مع عمه أبى طالب الى بصرى ولقى بحيرا، خاف عليه بحيرا أن يقتله اليهود وأوصى الى أبى طالب أن يرجع ويذهب بمحمد (صلى الله عليه وسلم) الى بلده(٢) .

النبى المنتظر :

كما نقرأ فى الكتب التاريخية كانت أحبار اليهود، قبيل مبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) ينتظرون نبيا ويصفونه، وفى المدينة يستنصرون على الأوس والخزرج بهذا النبى المنتظر(٣) ويقولون: «انه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم»(٤) وكان أول من عرف مولد (محمد صلى الله عليه وسلم) فى المدينة يهودى .

---

(١) ابن سعد، طبقات، بيروت، ١٣٨٨ ـ ١، ١١٣ .

(٢) ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، نشر الدكتور محمد حميد الله، الرباط ١٩٧٦، ص ٥٥، ابن هشام، السيرة، مصر ١٩٥٥، ١، ١٨٢، ابن سعد، طبقات ١، ٥٥، المسعودى، مروج الذهب، بيروت ١٩٧٣، ١، ٥٨٩ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ٢، ٣٧، ابن كثير، السيرة النبوية، ١، ٢٤٥ .
(احسان ثريا ـ سفر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى بصرى والراهب بحيرا، بحث قدم فى المؤتمر العالمى الثانى للسيرة النبوية فى اسطنبول (تركيا) ١٠ ـ ١٧ حزيران ١٩٧٧م .

(٣) ابن هشام ـ السيرة ـ ١، ٢٠٤ .

(٤) ابن هشام ـ السيرة ـ ١، ٢١١ .

قال حسان بن ثابت: «والله انى لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود، حتى اذا اجتمعوا اليه، قالوا له: ويلك، مالك ؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به»(٥).

فلما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون. فأنزل الله سبحانه وتعالى: « **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**» فقال لهم معاذ بن جبل: «يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته» قالوا: «ما جاءنا بشئ نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكره لكم»(٦) هكذا كذبوه بغيا وحسدا وضغنا.

لم يكن اليهود تنكر نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فقط، بل كانوا يعارضون كل من أسلم منهم، ولو كان سيدهم أو حبرهم أو عالمهم كعبدالله بن سلام(٧) وكلما رأوا عداوة ضد الإسلام والمسلمين، اشتركوا فيها، ولا سيما تعاونهم مع المنافقين فى نفاقهم.

تأسيس الدولة الإسلامية :

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كان عدد اليهود بها قريبا من نصف سكانها(٨) وكان عدد المسلمين قليلا جدا بالنسبة اليهم والى المشركين من العرب. فأهم شئ عند وصوله (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة كان اقامة الأمن للمسلمين. ولهذا جمع المسلمين واليهود ومن أجاب اليه من العرب فى دار أنس رضى الله عنه فكتب لهم كتابا(٩) وهذا الكتاب كان دستور الدولة التى أسسها، وهو أول دستور مكتوب فى تاريخ البشر(١٠) أيضا. وألحق رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جماعة بحلفائها وجعل بينه وبينهم أمانا(١١) وادع فيه

(٥) ابن هشام ـ السيرة ـ ١، ١٥٩.
(٦) ابن هشام، ٢ ، ٥٤٧
(٧) ابن هشام، ٢ ، ٥١٦
(٨) Mohammad Hamidullah , Le Prophete de L'Islam, 4 ed.
(٩) ابن هشام، ٢ ، ٥٠٢، الواقدى، مغازى، اكسفورد ١٩٦٦، ١، ١٧٦
(١٠) Mohammed Hamidullah, Le Prophete de L'Islam, I, 185
(١١) المقريزى، امتاع الأسماع ـ القاهرة ١٩٤١، ١ ، ١٠٣ ـ ١٠٥

اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم. ولكن عندما نطالع نص هذا الدستور، نرى أن أسماء قبائل اليهود كقينقاع أو بنى النضير أو بنى قريظة ليست مكتوبة، بل هم حلفاء لقبائل العرب، ولا يذكر فى الدستور الا تحت لفظ «يهود» . وهكذا أوجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأمن للمسلمين .

بعد هذه المسألة السياسية، حل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المسألة الاقتصادية التى هى اعاشة واقامة المهاجرين الذين تركوا كل أموالهم فى مكة وهاجروا فى سبيل الله. وهى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ولا نرى مثل هذه المؤسسة البشرية الانسانية فى تاريخ البشر الى يومنا هذا .

ولكن اليهود لم تحتمل الاسلام وانتشاره واشتدت عداوتهم وبدأ شعراؤهم الفاسدون يهجون ويمكرون ويسبون الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم ابو عفك وكعب بن الأشرف وابن سنينة وغيرهم. وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصبر على عداوتهم حتى بالغوا فى طغيانهم .

كان أبو عفك اليهودى يحرض على عداوة النبى (صلى الله عليه وسلم) ويقول الشعر حتى قتله سالم بن عمير[١٢] وكان كعب بن الأشرف ـ عدوا لله ولرسوله يهجو النبى (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ويحرض عليهم كفار قريش فى شعره ثم خرج الى مكة بعد غزوة بدر فجعل يرثى قتلى بدر ويحرض قريشا[١٣] ولما رجع الى المدينة قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «من لى بابن الأشرف فقد آذانى» فقال محمد بن مسلمة: انا به يا رسول الله وأنا اقتله. وقتله[١٤] وكان ابن سنينة أيضا يهجو النبى (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه حتى قتل .

وأخاف الرسول (صلى الله عليه وسلم) اليهود بقتل شعرائهم وحذرت يهود وخافت وذلت[١٥] .

(١٢) امتاع الأسماع، ١، ١٠٣
(١٣) امتاع الأسماء ١، ١٠٧ ـ ١٠٨
(١٤) ابن هشام، ٣، ٥١
(١٥) امتاع الأسماع، ١، ١١٠

غـزوة قينقـاع :

كما قلنا آنفا، أخاف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اليهود بنهاهم عن العداوة ضد المسلمين. ولكن بغت اليهود وقطعت ما كان بينهـا وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) من العهد فجمعهم بسوق قينقاع وقال: «يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش، فوالله انكم لتعلمون انى رسول الله. فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من لقيت. انك قهرت قوما أغمارا، وانا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا»(١٦).

فبينما هم على ما هم عليه من اظهار العداوة ونبذ العهد. جاءت امرأة رجل من الأنصار الى سوق بنى قينقاع فجلست عند صائغ فى حلى لها، فجاء أحد من بنى قينقاع فحل درعها من ورائها بشوكه ولا تشعر. فلما قامت بدت عورتها فضحكوا بها، فتبعه رجل من المسلمين فقتله. فاجتمع عليه بنو قينقاع وقتلوه، ونبذوا العهد الى النبى (صلى الله عليه وسلم) وحاربوا وتحصنوا فى حصنهم. فأنزل الله تعالى: «**واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين**»(١٧) ـ فقال صلى الله عليه وسلم: أنا أخاف بنى قينقاع. فسار اليهم. وكان بنو قينقاع حلفاء لعبدالله بن أبى بن سلول المنافق عدو المسلمين. وكانوا أشجع اليهود، فكانوا أول من غدر من اليهود. فحاصرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه. فأمر بهم فربطوا، ثم خلى عنهم بشفاعة عبدالله بن أبي بن سلول، وأمرهم أن يجلوا من المدينة، فجاء ابن أُبىّ بحلفائه معه، وقد أخذوا بالخروج، يريد أن يكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليقرهم فى المدينة(١٨) ولم يقبل منهم فأجلاهم محمد بن مسلمة الأنصارى وقبض أموالهم وسلاحهم، وخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب منهم وقسم ما بقى على أصحابه .

ونتيجة ذلك أن صبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على طغيان اليهود حتى بالغوا فيه وفكروا فى قتل المسلمين ونبذوا العهد، حاصرهم وقاتلهم وأجلاهم عن المدينه .

---

(١٦) الواقدى ، المغازى، اكسفورد ١٩٦٦، ١، ١٦٧، امتاع الأسماع ١ ، ١٠٣ ابن هشام، ٣، ٤٧

(١٧) الأنفـال ـ ٥٨

(١٨) الواقدى، المغازى، ١ ، ١٧٨

غزوة بني النضير :

لما قتل عمرو بن أميه رجلين من بني عامر بعد وقعه بئر معونه، ولهما أمان وعهد من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو لم يعلم به. أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبعث بديتهما الى بني عامر. وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى بني النضير يستعينهم في ديه القتيلين لأنهم كانوا من تبعة الدوله الاسلامية وهم حلفاء لبني عامر وقالت اليهود لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) نفعل يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت، اجلس حتى نطعمك! ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) مستند الى بيت من بيوتهم ثم خلا بعضهم الى بعض. وأشار عليهم كبيرهم حيى بن أخطب وقال: «يا معشر اليهود قد جاءكم محمد في نفير من أصحابه لا يبلغون عشرة، فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه، فلن تجدوه أخلى منه الساعة! فانه ان قتل تفرق أصحابه فلحق من كان معه من قريش بحرمهم، وبقي من ها هنا من الأوس والخزرج حلفاءكم» [19] فقام عمرو بن جحاش ليطرح عليه (صلى الله عليه وسلم) صخرة ـ قال سلام بن مشكم: يا قوم، أطيعوني في هذه المرة وخالفوني الدهر! والله ان فعلتم ليخبرن بانا قد غدرنا به، وان هذا نقض العهد الذي بيننا وبينه فلا تفعلوا ![20]

نريد أن نضع جوهر السياسة التي اتبعها النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذه الغزوة، تاركين التفاصيل الفرعية .

فلما هيأ الصخرة ليرسلها على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جاء الوحي بما هموا به فنهض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورجع الى المدينة، وهم يظنون انه قام يقضي حاجة[21] وقال لهم كنانة بن صويراء اليهودي: ان اسلموا وهو رسول الله وأنه لآخر الأنبياء[22] ولم يقبل ذلك منه .

---

(١٩) الواقدي، المغازي، ١ ، ٣٦٤

(٢٠) الواقدي، المغازي، ١ ، ٣٦٥

(٢١) الواقدي ، المغازي، ١ ،٣٦٥، ابن هشام ٣ ، ١٩٠، امتاع الأسماع ١ ، ١٨٠

(٢٢) الواقدي، المغازي ، ١ ، ٣٦٥

فلما رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى المدينه بعث الى اليهود محمد بن مسلمه، وأمرهم بترك المدينه لأنهم نقضوا العهد. وارسل حيي بن أخطب خبرا الى النبى (صلى الله عليه وسلم) وقال بأنهم لن يخرجوا من المدينه .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم) الى بني النضير وحاصرهم ودام الحصار أياما. ثم أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالنخل فقطعت وحرقت، فشق على اليهود قطع النخل وبعث حيي بن أخطب الى النبى (صلى الله عليه وسلم) بأنه يخرج ومن معه، ونرى سياسة الرسول فى هذه الغزوة كانت اجلاءهم من المدينه. هم فكروا في قتله (صلى الله عليه وسلم) وهو اكتفى باجلائهم من المدينة لأنه كان رسول الله. ولو كان رجل غير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقتلهم جميعاً .

أذن لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أموالهم ما حملت الابل إلا السلاح وقسم الغنيمه للمهاجرين. وكان المهاجرون يسكنون فى دور الأنصار .

وهكذا حل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مشكلة السكن للمهاجرين. فأنزل الله تعالى فى بني النضير: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ (٢٣)

غزوة بنى قريظة :

لما أجلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بني النضير ساروا الى خيبر. فلما قدموا خيبر، خرج اليهودي حيى بن أخطب فى بضعة عشر رجلا الى مكة، يدعو قريشا واتباعها الى حرب محمد (صلى الله عليه وسلم) فقالوا لقريش: «نحن معكم حتى نستأصل محمدا: جئنا لنحالفكم على عداوته وقتاله فقال أبو سفيان: مرحبا وأهلا، احب الناس الينا من اعاننا على عداوة محمد. واننا نرى هنا كيف كان يحرض اليهود قريشا على عداوة الإسلام والمسلمين .

وكان هؤلاء اليهود يفضلون وثنية قريش على الاسلام . وعندما سأل أبو سفيان وفد اليهود: «يا معشر اليهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، اخبرونا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد،

(٢٣) الحشر : ٢

أديننا خير أو دين محمد ؟» فقالت اليهود «اللهم انتم أولى بالحق منه»[٢٤] فانزل الله تعالى:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا»[٢٥].

واتفقوا على التعاون فى ما بينهم ثم خرجت اليهود الى غطفان، وجعلت لهم تمر خيبر سنة ان هم نصروهم[٢٦] ثم عاهد حيى بن أخطب ابا سفيان أن ينقضوا العهد الذى بينهم وبين النبى (صلى الله عليه وسلم) - وأتى حيى بن أخطب الى بنى قريظة فكرهت قريظة دخول حيى بن أخطب الى دارهم ولكنه أقنعهم حتى قبلوا آراءه ونقضوا العهد وشقوا الكتاب الذى كتبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بينه وبينهم[٢٧] وتعاونوا مع المشركين فى غزوة الخندق. ولما علم الرسول (صلى الله عليه وسلم) خيانة بنى قريظة، أشتد ذلك عليه، وكانت غزوة الخندق تستمر مع كل شدتها والرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الخندق مع أصحابه .

وحينئذ همت بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلا . فجاء خبر ذلك الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فعظم البلاء وبعث طائفة من المسلمين يحرسون المدينة ويظهرون التكبير فاذا أصبحوا امنوا وكان الخوف على ذرارى المدينة من بنى قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان .

وبعد اختلاف الأحزاب فى غزوة الخندق وانصراف قريش وغطفان اليائسون من المدينة كانت غزوة بنى قريظة .

لما رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الخندق دخل بيت عائشة رضى الله عنها وصلى الظهر فأتاه جبريل عليه السلام فنادى: عذيرك من محارب ؟ فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له جبريل: ألا أراك وضعت السلاح ولم تضعها الملائكة بعد ؟ ان الله يأمرك ان تسير الى بنى قريظة فانى عامد اليهم فمزلزل بهم حصونهم .

---

(٢٤) الواقدى، المغازى، ٢ ، ٤٤٢، امتاع الأسماع، ١ ، ٢١٧، ابن هشام، ٣ ، ٢١٤ .

(٢٥) النساء: ٥١

(٢٦) امتاع الأسماع، ١ ، ٢١٧

(٢٧) امتاع الأسماع، ١ ، ٢٦٧

فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليا رضى الله عنه فدفع إليه لواءه. وبعث بلالا رضى الله عنه فأذن فى الناس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأمركم الا تصلوا العصر إلا فى بنى قريظة[28] فسار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى بنى قريظة مع أصحابه وأحاطوا بحصون اليهود وراموهم بالنبل والحجارة وهم يرمون من حصونهم. فنزل منهم نباش بن قيس وكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم): على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير: له الأموال والسلاح ويحقن دماءهم، ويخرجون من المدينة بالنساء والذراری، ولهم ما حملت الابل إلا السلاح فأبى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الا أن ينزلوا على حكمه. وعاد نباش اليهم بذلك، فأشار عليهم سيدهم كعب بن أسد بأن يدخلوا فى الاسلام وذكرهم بما عندهم من العلم بنبوته (صلى الله عليه وسلم) فلم يقبلوا رأيه. فأشار عليهم أن يقتلوا ابناءهم ونساءهم ثم يخرجوا فليقاتلوا حتى يظفروا، فأبوا ذلك، فأشار عليهم أن يخرجو ليلة السبت والمسلمون آمنون فيبيتونهم فقالوا: لا نحل السبت، واختلوا وندموا على ما صنعوا[29].

ثم نزلت اليهود على حكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأمر بأسراهم فكتفوا رباطا.. وطلبت الأوس من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يهب لهم بنى قريظة فانهم حلفاؤهم كما وهب لابن أبى قينقاع حلفاءه. فقال: أما ترضون أن يكون الحكم فيهم الى رجل منكم ؟ قالوا: بلى! قال: فذلك الى سعد بن معاذ، فحمله الأوس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال سعد للأوس : اترضون بحكمى لبنى قريظة ؟ قالوا: نعم! فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه ان الحكم ما حكم ثم قال: فانى احكم فيهم أن يقتل من جرت عليه المواسى وتسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقد حكمت بحكم الله ونفذ الحكم[30].

ويقال أن سعد بن معاذ أخرج هذا الحكم من التوراة. واننا نجد فى التوراة التى بين أيدينا اليوم السطور الآتية :

«حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح. فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك.

(٢٨) امتاع الأسماع، ١، ٢٤١.

(٢٩) امتاع الأسماع، ١، ٢٤٣.

(٣٠) ابن هشام، ٣، ٢٤٠.

وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب الهك»(٣١) .

أما بعد .. فاننا نرى أن كل هذه الغزوات مع اليهود كانت جوابا لخيانتهم على المسلمين. وكما قلنا آنفا ان أول من نقض العهد من اليهود كان بنو قينقاع، وعفا عنهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأجلاهم، ثانيا همت بنو النضير على قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعفا عنهم وأجلاهم، ولكن اليهود لم يصلحوا ولم يتوبوا عما فعلوا وخانوا ونقضوا العهد حتى تعاونوا مع المشركين فى غزوة الخندق . وقتلهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنهم لا يفهمون ولا يعقلون الا بالقتل. وهذا الحكم من بدء تاريخهم الى يومنا هذا ولهذا نبهنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على اليهود، وكان آخر ما تكلم به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «أخرجوا اليهود من الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب»(٣٢) .

وعلينا اليوم أن ننظف القدس المحتلة من هؤلاء الصهاينة الخائنين المجرمين الملعونين الذين لا تزال تدوم عداوتهم وجرائمهم ضد الاسلام والمسلمين .

(٣١) الكتاب المقدس ـ تثنية ـ ٢١/١٠ ـ ١٥

(٣٢) سنن الدارمى، كتاب السير، ٢، ٢٣٣

سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم في غزواته مع اليهود

عندما نطالع الكتب التاريخية الاسلامية، نرى أن عداوة اليهود ضد الاسلام ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد بدأت منذ ظهور الاسلام ولم تنقطع حتى يومنا هذا. ونعرف أيضا أن اليهود كانوا قبيل مبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) ينتظرون نبيا ويصفونه ويستنصرون على الأوس والخزرج بهذا النبى المنتظر وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يصبر على كل الأذى الذى يلقاه من اليهود. ولما رأوا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتحمل أذاهم بالسب والشتم والمكر ولا يحيد عن دعوته، بدأوا بالمشاغبة الفعلية .

وكما رأينا في بحثنا هذا، أن اليهود فكروا في قتل محمد (صلى الله عليه وسلم)، وخاصة بعد غزوة بدر، أظهروا البغي والحسد. وبالغوا في طغيانهم حتى هتكوا أعراض نساء المسلمين وخانوا عهودهم ووعودهم فوقفوا بجانب أعداء المسلمين من المشركين.

كانت هذه الأمور كلها داعية لبدء غزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع اليهود . وفي بحثنا هذا .. رأينا كيف غزا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اليهود وما كانت سياسته فى هذه الغزوات .

الدكتور احسان ثريا صيرما

تركـــيا

صفحات من تاريخ الانتفاضة الشعبية اللبنانية لسنة ١٩٥٨

صادق حسن السوداني

مدرس ، قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة بغداد

مقدمة

عم الاستياء الشعبي لبنان على عهد الرئيس بشارة الخورى لما ساد حكمه الذي امتد بين ١٩٤٣ ـ ١٩٥٢ من فساد ورشوة ومحسوبية واستغلال للنفوذ واثراء غير مشروع[١]. وأتهم كبار الساسة اللبنانيين ومنهم صائب سلام الرئيس الخورى بأنه «جعل الدولة مزرعة لأصحابه وأصدقائه وأهله»[٢] فضلا عن ان مركز الخوري السياسي قد ضعف كثيراً باغتيال صديقه وحليفه ورئيس وزرائه رياض الصلح، الذى سقط صريع رصاص أحد أعضاء الحزب السوري القومى* المنحل رداً على اعدام حكومة الصلح لسبعة من قادة الحزب على رأسهم مؤسسه ورئيسه انطون سعادة بعد محاولة الحزب الانقلابية الفاشلة في لبنان في حزيران

---

(١) عبدالرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، جـ١، ص ٢٨٩ .

(٢) اسكندر الرياشي، رؤساء لبنان كما عرفتهم، ص ١٥٩ .

* اسسه انطون سعادة مع مجموعة من الشباب في الجامعة الأمريكية في بيروت في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢. استمر الحزب يقاوم الانتداب الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية، وبغياب مؤسسه الذي اصدرت السلطات الفرنسية امراً بنفيه غيابياً. عاد مؤسس الحزب الى لبنان في آذار ١٩٤٧، واصدرت السلطات اللبنانية امراً باعتقاله بعد خطاب القاه في مطار بيروت وهاجم فيه الكيان اللبناني. اعدم زعيمه انطون سعادة سنة ١٩٤٩ بعد اتهامه بالعصيان المدني المسلح. توالى على رئاسة الحزب بعد موت مؤسسه كل من جورج عبدالمسيح، مصطفى رشيد، أسد الأشقر، عبدالله محسن، عبدالله سعادة، عصام محايري، يوسف الاشقر، مسعد جميل، اسد الأشقر. انشق جورج عبدالمسيح مع مجموعة من الاعضاء سنة ١٩٥٧ وأسس تجمعاً باسم «الحزب القومي الاجتماعي» .

اغتال احد اعضاء الحزب العقيد عدنان المالكي في ٢٢ نيسان ١٩٥٥ في دمشق، وجرت اثر ذلك ملاحقة لاعضاء الحزب ومحاكمتهم في سوريا. في سنة ١٩٥٨ وقف الحزب مع كميل شمعون ضد المد الناصري التحرري. في أواخر ١٩٦١ قام الحزب بانقلاب فاشل ضد حكم فؤاد شهاب واعقب ذلك حملة ملاحقة ضد اعضائه ثم صدر قرار بحله. عاد الى العمل العلني في أواخر ١٩٧٠ في لبنان حيث تتركز قوته الأساسية.
من أهدافه المعلنة تحقيق وحدة سوريا الكبرى. والجدير بالذكر ان فكر هذا الحزب تأثر كثيراً بالفكر الاجتماعي الألماني، كما انه تميز في بداية نشأته وحتى الى ما بعد ١٩٥٨ بعدائه الشديد للشيوعية، وباعتباره الصهيونية واليهودية شيئاً واحداً. وما زال جناح جورج عبدالمسيح يسير على نفس هذا الخط السياسي في حين ان فكر الحزب قد تطور وبدأ يحاول التعاون مع قوى اليسار والمقاومة الفلسطينية بشكل خاص. انظر الموسوعة السياسية، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

١٩٤٩[٣]. وكان الناس قبل اغتيال الصلح يقولون «اذا افترق بشارة الخوري ورياض الصلح ضاع الاثنان فالواحد منهما يكمل الآخر»[٤].

ولا بد من الاشارة ايضا الى أن لجوء الحكومة الى حل بعض الاحزاب والمنظمات ذات الطابع شبه العسكري مثل الكتائب[٥] والنجادة[٦] دفع هذه القوى وغيرها الى التلاحم ضد بشارة الخوري[٧]. مع العلم ان هذه القوى المتناحرة عموماً لم يجمعها سوى الرغبة في اسقاط الخوري عن سدة الرئاسة.

وقاد عملية الضغط على الخوري لحمله على الاستقالة زعيم الحزب التقدمي الاشتراكي كمال جنبلاط، وقد حملت جريدة الحزب «الانباء» راية الحملة المعادية للحكومة[٨] وعم الاضراب البلاد تلبية لدعوة القوى المعارضة منذ ١٦ أيلول ١٩٥٢، وتقرر استمراره حتى يسقط الخوري، فاضطر للاستقالة يوم ١٨ أيلول ١٩٥٢[٩]، مع أن مدة رئاسته كانت تنتهي رسمياً يوم ٢٣ أيلول ١٩٥٥، أي أنه انسحب قبل ثلاث سنوات وخمسة أيام من الموعد القانوني المحدد لانتهاء ولايته الثانية المبتدئة في ١٩٤٩. وقد عهد بالرئاسة مؤقتاً الى فؤاد

(٣) كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٥٨.

(٤) الرياشي، المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٥) حركة سياسية لبنانية تأسست في بداية العقد الرابع من هذا القرن استجابة للسياسة الفرنسية الرامية الى تكريس كيانات التجزئة الاقليمية الواقعة تحت انتدابها على أساس طائفي سياسي، وفصل الدولة اللبنانية عن المجموعة العربية قومياً وسياسياً. وكان السبب المباشر لتكوين هذه المنظمة طائفي فضلاً عن الرد على الحركة العربية النامية. وقد تبنت الكتائب اسلوب التشكيلات الفاشية والانماط العسكرية على شاكلة الفالانج (الكتائب) الأسبانية التي اقتبست الاسم عنها. ومن ابرز مؤسسي الحزب بيير الجميل وشارل حلو الذي انسحب منها فيما بعد. انظر الموسوعة السياسية، ص ٢٣٩.

(٦) قامت حركة النجادة اللبنانية في الثلاثينات من منطلق الغبن الذي كان يشعر به المسلمين، وخاصة الجماعة السنية في تمثيلهم في الادارة والدولة وفي مصالحهم العامة وحقوقهم في العلم والتنمية الاقتصادية، وكمقابل لحركة الكتائب اللبنانية.. وتفتقر النجادة الى برنامج واضح. وقد تبنت فيما بعد شعار القومية العربية دون ان تربط ذلك بحركة التحرر الاجتماعي العربي. ورغم وقوفها الى جانب القضية العربية، فإن النجادة تعتبر اقرب إلى اليمين منها الى اليسار العربي، في محاولة تعبيرها عن مصالح البرجوازية الاسلامية الكبيرة. رئيس النجادة الحالي عدنان الحكيم. انظر الموسوعة السياسية، ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٧) الصليبي، المصدر السابق، ص ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩.

(٨) انظر: كمال جنبلاط حقيقة الثورة اللبنانية، ص ص ٢٠ ـ ٢١.

(٩) الصليبي، مصدر سابق، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

شهاب القائد العام للجيش الذي قبلها بشرط انتخاب رئيس جديد بأسرع وقت من قبل مجلس النواب منعاً لحدوث أزمة دستورية[١٠] .

بعد أن شغرت الرئاسة الأولى بدأ الصراع بين الموارنة لملء هذا المقعد الشاغر. وقد انحصرت المنافسة الفعلية بين ثلاث شخصيات مارونية هي: كميل شمعون، حميد فرنجية (الشقيق الأكبر للرئيس اللبناني السابق سليمان فرنجية)، اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش. ولما كان الأخير عازفاً عن ترشيح نفسه لأسباب لسنا في مجال الخوض فيها، فقد انحصرت المنافسة بين شمعون وفرنجية. ولكن سرعان ما انسحب فرنجية بسبب الترغيب ـ المصحوب بالترهيب كما يبدو من قبل شمعون، فيما لو تولىٰ الرئاسة، خاصة وأن شمعون عينّ فرنجية بالفعل مساعداً له بعد توليه الرئاسة. ثم ما لبث بعد عدة أشهر أن ابعده .

وهكذا لم يبق من المرشحين غير شمعون، الأمر الذي رجح كفته، واضطر معظم القوىٰ، حتىٰ الوطنية منها الى اعطائه اصواتها رغم ولائه للغرب والشك في مواقفه من القضية القومية، ولا سيما ما يخص مسألة فلسطين[١١]. ولا يستبعد دعم المخابرات المركزية الامريكية له. يقول الكاتب الامريكي مانفريد هالبرت بهذا الصدد ما نصه: «ويبدو ان وكالة المخابرات المركزية الامريكية C.I.A ساعدت على انتخاب شمعون عام ١٩٥٢»[١٢].

ان عدم ثقة الحركة الوطنية اللبنانية، وعلى رأسها جنبلاط وحزبه والقوىٰ المستقلة ، بشمعون دفعها الى ربطه بتعهد قبل ان تمنحه أصواتها، ظناً منها أن هذا العهد قد يعيقه عن السير في خطه المعادي للعروبة وللبنان. وقد وقّع بالفعل على هذا التعهد يوم ٢١ أيلول ١٩٥٢[١٣]. ثم تعهد ثانية أمام قائد الجيش فؤاد شهاب ليكون ضامناً وكفيلاً لتعهداته[١٤]، الأمر الذي ترك بصماته على مواقف شهاب اللاحقة من شمعون كما سنلاحظ ذلك فيما بعد .

---

(١٠) جريدة «لواء الاستقلال» البغدادية، ١٩ أيلول ١٩٥٢، وانظر صلاح العقاد، المشرق العربي، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(١١) انظر جنبلاط حقيقة الثورة اللبنانية، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(١٢) انظر ريتشارد بارنت، حروب التدخل الامريكية في العالم، ص ١٢٠ .

(١٣) انظر جنبلاط حقيقة الثورة اللبنانية، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٠ .

وبهذا الأسلوب جاء كميل شمعون الى كرسي الرئاسة بأغلبية ٧٤ صوتاً، إلا أنه سرعان ما كشف القناع عن وجهه الحقيقي فبدأ بمحاربة القوىٰ الوطنية سراً ثم علانية لما توفر له تركيز سلطته في الادارة وفي الدولة[١٥]. وأخذ شمعون يعزز من نفوذه بالتخلص من منافسيه وتعيين أعوانه بدلاً منهم في المناصب الحساسة. وصارت الوظائف تشترىٰ بالأموال، حتىٰ غدت الرشاوي سمة ملازمة للنظام إلا فيما ندر.. وقد بلغ الأمر حد اطلاق سراح المجرمين الخطرين ليسرحوا ويمرحوا مقابل مبالغ من المال يدفعونها لكبار المسؤولين[١٦] الذين لم يترددوا حتىٰ عن بيع أوسمة الدولة ونياشينها[١٧]. كما تفشت في عهده تجارة المخدرات وتداولها وانتشرت الدعارة والمقامرة، وانحطت الأخلاق العامة، إذ أصر شمعون على تحويل لبنان إلىٰ «فندق» و «علبة ليل» في محاولة مدروسة لافساد وجه لبنان العربي بقطع أوصاله الروحية مع الماضي ومع الجوار ومع ذاته[١٨].

ولما كان شمعون ينوي التجديد للرئاسة بل خطا جملة خطوات نحو هذا الهدف، فقد حذر حزب البعث العربي الاشتراكي في لبنان في بيان له اصدره في أيار ١٩٥٨ من هذا التوجه، مؤكداً ان نجاح شمعون في ذلك معناه «استمرار الطغيان الفردي على حكم لبنان، وضرب حركات الشعب الوطنية، واستمرار سياسة ربط لبنان بالعملة الامريكية، وتفوق الاخطبوط الرجعي الاقطاعي على القوىٰ الشعبية، وتكريس الانقسام الطائفي العشائري المصطنع بين صفوفه، وبالتالي تهديد استقلال لبنان نفسه»[١٩].

وقد لخص الحزب سياسة شمعون الداخلية بالنقاط الأربع التالية:

١ ـ اغراق لبنان بالانتاج الاجنبي بحجة الحرص على مبدأ الاقتصاد الحر.
٢ ـ تكريس سياسة التفرقة الطائفية وتقديم مصالح طوائف معينة على حساب طوائف أخرىٰ.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٠.
(١٦) جريدة «الحرية» البغدادية، ٢ تشرين الأول ١٩٥٨.
(١٧) جنبلاط، حقيقة الثورة اللبنانية، ص ٣١ ـ ٣٢.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٣.
(١٩) نضال البعث، جـ ٨، ص ١٢١.

٣ ـ عرقلة كل مشروع اقتصادي: صناعي أو زراعي أو عمراني يمكن أن ينعش مناطق لبنان الريفية وبصورة خاصة منطقة الجنوب المتاخمة لاسرائيل .

٤ ـ محاولة سلخ لبنان ثقافياً عن التيار الثقافي العربي الذي يعتز به الشعب والذي يتجاوب مع روحه وتراثه[٢٠] .

اما سياسته الخارجية فكان شعارها «مزيداً من الولاء للغرب، مزيداً من العداء للشعوب ولحركات التحرر العربية» فنراه من جهة يضع لبنا في خدمة حلف بغداد، بعد أن رحب به في بيان رسمي[٢١]، بالتنسيق مع النظام الملكي في العراق، وأخذ الأموال منه، ومن تركيا لضرب الحركات الجماهيرية في القطر اللبناني[٢٢]، خاصة بعد توقيع شمعون على بيان أنقره أثر زيارته لها في نيسان ١٩٥٥ تمهيداً للدخول في حلف بغداد[٢٣] ومن جهة أخرى اتخذ شمعون موقفاً معادياً للثورة المصرية، خاصة بعد وضوح خطها القومي[٢٤]. وبسبب الزخم الجماهيري المؤيد لتأميم قناة السويس في ٢٦ تموز ١٩٥٦، اضطر الى «تأييد» التأميم علناً والعمل ضد مصر وقيادتها الوطنية سراً. ولما بدأ العدوان الثلاثي ضد مصر في ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦ ساد لبنان شعور بالسخط والثورة. وسرعان ما كشف شمعون أوراقه حينما رفض طلباً من عبدالله اليافي رئيس حكومته وصائب سلام عضوها الفعال بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا، وسحب السفيرين اللبنانيين من لندن وباريس احتجاجاً على موقف الدولتين المعتديتين، إلا أنه رفض ذلك بشدة، فاستقال اليافي وسلام في تشرين الثاني ١٩٥٦[٢٥] وارتبكت أوضاع شمعون تماماً حينما انتصرت مصر في حربها العادلة ضد المعتدين وانسحاب هؤلاء مكرهين من مصر. وحرصاً من شمعون على نظامه، اعلن ترحيبه بالمبدأ الذى طرحه الرئيس الأمريكي ايزنهاور في مطلع عام ١٩٥٧ والذي عرف باسمه . وكما هو معروف ان الرئيس الأمريكي أصدر «مبدأه» المذكور بحجة «ان الفراغ الحالي في الشرق الأوسط لا بد

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٤٩ .

(٢١) جهاد مجيد محي الدين، حلف بغداد، ص ٢٣٣ .

(٢٢) انظر فؤاد عمون، سياسة لبنان الخارجية، ص ٦٢ .

(٢٣) انظر جنبلاط حقيقة الثورة اللبنانية، ص ٥٣ ـ ٥٥ .

(٢٤) انظر عدنان فواز دور لبنان السياسي في العالم العربي، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٢٥) الصليبي، مصدر سابق، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

ان يجري اشغاله من قبل الولايات المتحدة قبل ان يتم ذلك من قبل الاتحاد السوفيتي»(٢٦) وفي الواقع لم يكن من الصعب على العرب إدراك كنه مبدأ ايزنهاور وفهم دوافعه الحقيقية التي كان من شأنها الهائهم عن قضيتهم المركزية، يقول الكاتب الأمريكي ريتشارد بارنت بهذا الصدد : «ان المبدأ لم يعرض الحماية إلا ضد [ما يسميه] العدوان الشيوعي بينما العرب مهتمون أكثر بالعدوان الاسرائيلي، لذا لم يكن لديهم دافع كبير للاتفاق مع الولايات المتحدة»(٢٧) .

من هنا فان موقف كميل شمعون جاء على طرفي نقيض مع مصالح اللبنانيين وعموم العرب، وهو لم يكن بمعزل عن توجيهات خارجية لم تكن بخافية عن القوىٰ الوطنية اللبنانية، فكما كتب هالبرت في حينه كان «معظم اللبنانيين المهتمين بالسياسة» يعتقدون «ان الرئيس اللبناني ووزير خارجيته شارل مالك رغم عدم استشارتهما الاعضاء الاخرين في الحكومة بخصوص الترحيب بمبدأ ايزنهاور، كانا يتحركان منذ البداية باتفاق مع C.I.A . ومهما كانت نشاطات الولايات المتحدة السرية في السياسة اللبنانية، فانها كانت تراهن بشكل مكشوف علىٰ شمعون باعتباره اكثر سياسي لبنان جدارة بالوقوف بوجه عبدالناصر وحياده الايجابي»(٢٨) .

ولما كان معظم اعضاء البرلمان من اعوان شمعون بفضل التزييف الذي ساد انتخابات ١٩٥٣ النيابية، فقد تمت الموافقة علىٰ تبني لبنان لمبدأ ايزنهاور(٢٩) . وقد اعتقد شمعون ان ذلك رسخ نظامه بشكل يمكنه الانفصام كلياً عن القوىٰ الوطنية ومجابهة الجماهير فعندما اقتربت الانتخابات النيابية لسنة ١٩٥٧ زادت الحكومة من تعسفها بحق الجماهير، فضربت بشدة مظاهراتها التي عمت شوارع المدن اللبنانية الكبرىٰ، مما أدىٰ الىٰ سقوط عدد كبير بين قتيل وجريح(٣٠). وبفضل التزييف مرة اخرىٰ فاز اعوان شمعون بالانتخابات وخسر العديد من رجال المعارضة مقاعدهم(٣١). ورغم ذلك أخذ الخط البياني للسخط الجماهيري يتصاعد

(٢٦) بارنت، مصدر سابق، ص ١١٥ ـ ١١٧ .

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١١٧ ـ ١١٨ .

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٢٠ .

(٢٩) انظر نضال البعث، جـ ٨، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٣٠) جنبلاط، حقيقة الثورة اللبنانية، ص ٧٩ ـ ٨١ .

(٣١) انظر بارنت، مصدر سابق . ص ١٢١ .

خاصة بعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا في ٢٢ شباط ١٩٥٨، حيث عمت الافراح لبنان. رغم تهديد الحكومة بقمع كل تظاهرة شعبية(٣٢). وقادت القوىٰ الوطنية والقومية الممثلة بالحزب التقدمي الاشتراكي وحزب البعث العربى الاشتراكي وغيرهما الدعوة لمساندة الوحدة العربية ودعمها(٣٣).

وهكذا تجمعت اسباب الثورة ضد نظام شمعون بفعل عدائه للجماهير من جهة وولائه للاستعمار من جهة ثانية وطعنه لتجربة الوحدة العربية بالتآمر عليها من جهة ثالثة، حتىٰ انطلقت عواطف الجماهير وسخطها من عقالها في شهر مارس ١٩٥٨ علىٰ شكل انتفاضة شعبية عارمة.

(٣٢) د. جمال الدين الرمادي، صفحات من تاريخ لبنان السياسي ووضعها الاقتصادي، ص ٥٩.
(٣٣) نضال البعث، جـ ٨، ص ١٠٧.

الفصل الأول

الانتفاضة الشعبية اللبنانية

فيما سبق لاحظنا توتر الجو السياسي بين القوىٰ الوطنية اللبنانية وعلىٰ رأسها حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب القومي الاستراكي وبعض الشخصيات البارزة التي اشتهرت بمعارضة سياسة شمعون من جهة وبين القوىٰ الحاكمة وعلىٰ رأسها كميل شمعون وبعض السياسيين اليمينيين والقوىٰ والاحزاب الانعزالية وفي مقدمتها حزب «الكتائب اللبنانية» من جهة أخرىٰ . وفي وسط هذا الجو المشحون بالاخطار والشكوك والريب والخلافات والانتظار المشوب بالحذر وتوقع الانفجار، اغتيل الصحفي التقدمي نسيب المتني(٣٤) صاحب جريدة «تلغراف بيروت» المعارضة بشدة للحكومة بعد منتصف ليلة ٨/٧ أيار ١٩٥٨(٣٥) والشهيد المتني كان وطنياً ينبذ الطائفية التي زاد شمعون من بث سمومها بين الشعب .

وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن وصلت أخبار الاصطدامات المسلحة التي اشتعلت في طرابلس بين المتظاهرين وقوات شمعون، عقدت قوىٰ المعارضة اجتماعاً ضم قادة «جبهة الاتحاد الوطني» وهم كل من حسين العويني، عبدالله اليافي، كمال جنبلاط ، فؤاد عجون، صائب سلام، وقرروا اللجوء الىٰ الكفاح المسلح . وأختير جنبلاط ليبدأ بالتحرك في المنطقة الجبلية قرب بيروت حيث قريته المختارة في منطقة الشوف التي يسكنها غالبية من اتباعه الدروز، حيث كانت ظروف اشتعال الثورة مهيأة بفعل الاصطدامات التي حدثت في الشوف بين ابنائها وعصابات شمعون، كما سبقت الاشارة. وسرعان ما تحرك رجال جنبلاط لخلق الوضع المناسب لذلك .

---

(٣٤) عثر في جيب المتني بعد اغتياله علىٰ خطابات تهديد بالقتل ما لم يتوقف عن حملاته ضد شمعون، مما اكد الاتهام الموجه للحكومة باللجوء الىٰ أساليب التصفية الجسدية في مجابهتها للمعارضة والقلم الشريف . وذكر ان عدد رسائل التهديد كانت اربعة وهي خالية من التوقيع آخرها كان بتاريخ ١٩ نيسان ١٩٥٨. وقد طلب المتني من شمعون ان يستقيل، وذلك في آخر مقال له نشره صبيحة يوم اغتياله. انظر فوزي ابو دياب، لبنان والامم المتحدة، ص ١٣٦؛ صلاح العقاد، المشرق العربي، ص ٢١٨ .

(٣٥) بارنت، مصدر سابق، ص ١٢٢ .

اذاعت «جبهة الاتحاد الوطني» بياناً اتهمت فيه الحكومة بالاسترسال في اثارة الفتنة وحملتها مسؤوليه اغتيال المتني داعيه في الوقت نفسه الى الاضراب العام . وتلا ذلك وفي اليوم نفسه (٨ أيار) اجتماع المجلس الأعلى للصحافة الذي اتخذ قراراً باحتجاب الصحف عن الصدور لمدة ثلاثة أيام اعتباراً من (العاشر من أيار) حداداً واحتجاجاً على اغتيال المتني. وفي مساء اليوم نفسه دعا كل من رشيد كرامي ومحمد حمزة الى اعلان الاضراب في طرابلس، كما اعلنت القوى الموجودة في المدينة وشخصياتها البارزة ادانتها لجريمة الاغتيال واستنكارها لها .

وفي (٩ أيار) أضربت بيروت وطرابلس والمدن اللبنانية الأخرى، وقامت تظاهرات عديدة حصل من جرائها اصطدام بقوى الامن فسقط عدد من القتلى والجرحى من الطرفين[٣٦]. وقد هاجم المتظاهرون في طرابلس مكتب الاستعلامات الامريكي وأضرموا فيه النار، مما دفع المكاتب الأوربية الأخرى المتبقية الى غلق أبوابها. وعندما طالبت المعارضة الوطنية شمعون بالاستقالة كان جوابه اتهامهم بأنهم «عملاء مصريين»[٣٧]. وفي نفس اليوم تصدى رجال شمعون الى المصلين الخارجين بعد أداء فريضة الصلاة من جامع المنصوري في طرابلس وأوقعوا فيهم الضرب المبرح الذي نتج عنه جرح اربعين شخصاً من الابرياء العزل[٣٨] .

ولا بد هنا من الاشارة الى الدور المشرّف الذي لعبه حزب البعث العربي الاشتراكي في لبنان في بدء الانتفاضة الجماهيرية ضد شمعون، ومن ثم في تعميقها وتجذيرها لتعزيز الحركة الوطنية، إذ أن قيادة الحزب بما لها من نفوذ فعال في المدن اللبنانية خاصة طرابلس وجدت ان الوقت مناسب تماماً لفتح المعركة ضد شمعون وعهده. ورأت في اجتماعها الذي عقدته صبيحة يوم اغتيال نسيب المتني ان الحادثة تصلح لبدء محاربة العهد، وقطع الطريق على تجديد شمعون لولايته. وقررت ان يقوم الحزب بجر بقية عناصر المعارضة الى المعركة في حالة تردد هذه العناصر . وبالفعل فقد ترددت «جبهة الاتحاد الوطني» في بيروت في فتح المعركة ضد

---

(٣٦) جوزيف مغيزل، لبنان والقضية العربية ص ص ٥٥ ـ ٥٦، وانظر: Fahim I. QuBain, Crisis in Lebanon, p. 71.

(٣٧) بارنت، مصدر سابق، ص ١٢٢ .

(٣٨) QuBain, op. cit, p. 72 وانظر الحسيني، الوزارات، جـ ١٠، ص ٢٩٠ .

التجديد مباشرة، وقررت أن تدعو الى اضراب عام شعاره الاستمرار في الاضراب حتى يعتقل المجرمون الذين اغتالوا المتني، حتى إذا ما نجح هذا الاضراب حول الى معركة ضد العهد علنا. وكان نتيجة اجتماع قيادة الحزب إصدار بيان حازم اعتبرت فيه النظام القائم مسؤولاً عن جريمة اغتيال المتني ودعت المواطنين الى الاضراب لقطع الطريق على تجديد ولاية رئيس الجمهورية. وطلبت من الجهاز الحزبي توزيع البيان في بيروت خلال مأتم المتني، ومحاولة تحويله الى تظاهرة شعبية ضد العهد تفتح باب الاضراب . ورغم ان البيان وزع علنا، فان السلطة لم تحاول القبض على أحد من موزعيه كي لا تساعد في ازدياد نقمة الرأي العام. ووقفت العناصر المشرفة على المأتم ضد كل محاولة للتظاهر السياسي العنيف ضد العهد .

كما كان من قرارات القيادة في الاجتماع نفسه ابلاغ أجهزة الحزب في المناطق بالدعوة للاضراب العام، وايفاد أحد الرفاق للاشراف على بدء الحزب للمعركة في طرابلس وايفاد أحد الرفاق لقيادة المعركة في بعلبك. وقد عرف الرأى العام فيما بعد ان انطلاق الحركة الثورية كان من طرابلس وبفعل جهاز الحزب في المدينة .. ولا شك ان نجاح حزب البعث العربي الاشتراكي في فتح المعركة وتشجيع العناصر الأخرى أو جرها الى النضال هو نجاح له في أحد أدواره القيادية الأساسية .. وقد سجل الرأي العام هذا النجاح للحزب واعتبره مسؤولاً الى درجة ما عن توقيت انطلاق المعركة ضد شمعون وتجديد ولايته(٣٩). وفي الواقع ان نشاطات الحزب في مثل تلك الايام الحرجة اثبتت جرأته ضد نظام شمعون رغم بطشه وارهابه .

التقت زوجة الشهيد المتني في يوم (٩ أيار) مع بعض السياسيين المعارضين لشمعون، ومنهم كمال جنبلاط وصائب سلام وعبدالله اليافي، وكانت ذات شخصية قوية وشكيمة أقوى، واعلنت استعدادها لرفع السلاح ضد النظام ان ترددوا هم في ذلك، مما أثار حماس هؤلاء السياسيين وزاد من اندفاعهم. وفي اليوم التالي (١٠ أيار) اتهم صائب سلام كميل شمعون صراحة بأنه وراء عملية الاغتيال(٤٠) .

وفي اليوم نفسه استمر الصدام في طرابلس بين قوات الأمن والمتظاهرين فذهب ضحيته عشرة قتلى وستين جريحاً. وفي اليوم التالي (١١ أيار) استؤنف «القتال» فتشكلت «المقاومة

(٣٩) نضال البعث، جـ ٨، ص ١٤١ .

(٤٠) موسى صبري، مخبر صحفي وراء أحداث عشر ثورات، ص ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢ .

الشعبية» لردع قوات شمعون والتصدي لها وانجاح الاضراب. وفعلاً اغلقت معظم المحلات والمخازن ابوابها تلبية لنداء الاضراب. وكان حصيلة الأيام الثلاثة من الصدام والممتدة بين (٩ ـ ١١ أيار) ١٣ قتيلاً و (١١٠) جريحاً[٤١] وفي (١٢ أيار) قام الثوار في بيروت بوضع المتاريس في الشوارع المؤدية الىٰ قلب العاصمة. واستشهد في هذا اليوم ستة من المتظاهرين علىٰ يد رجال الشرطة[٤٢].

وكان شمعون قد أصدر أوامره في (١١ أيار) أي بعد اعلان الاضراب ـ الىٰ أخيه فؤاد شمعون مدير الامن العام باطلاق الرصاص علىٰ المتظاهرين والمضربين قائلاً له: «لا يهمني عدد الضحايا بقدر ما يهمني فشل هذا الاضراب». وفعلاً باشر فؤاد شمعون بتنفيذ أوامر شقيقه نصاً وروحاً فاشتعلت بيروت وطرابلس والمدن الأخرىٰ بفضل رصاص السلطة، ولكن لم يثن ذلك الوطنيين الذين طالبوا الساسة اللبنانيين المعارضين لشمعون بالسلاح مؤكدين بأنه «لابد من مقاومة العنف بالعنف»، واعتبروا الأمر امتحاناً لمسألة «حرية لبنان وعروبتها» التي بدأت تتعرض لخطر جدي، داخلي وخارجي، ولا سيما بعد ان بدأت الاسلحة والاعتدة والاموال تنهال علىٰ شمعون من الدول الغربية الاستعمارية ومن عمان وبغداد[٤٣].

ولقد كشفت الوثائق بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، ان الحكومة العراقية كانت تزود شمعون بالسلاح والعتاد بهدف محاصرة الانتفاضة الشعبية اللبنانية واجهاضها. ومما كشف عنه الستار القاء الثوار اللبنانيين القبض يوم ٢٠ أيار ١٩٥٨ علىٰ سيارة تابعة للسفارة العراقية في بيروت وهي مشحونة بالسلاح لقوات شمعون، فوجه الثوار أثر ذلك انذاراً إلى السفير العراقي، الذي اصدر بياناً رسمياً حاول فيه عبثاً دحض التهمة الموجهة الى حكومته. ولكن سرعان ما تكرر الحادث في ١٥ حزيران عندما استولىٰ الثوار على ما في سيارة ثانية مشابهة من سلاح محتجزين إياها في منطقتهم الحصينة. وقد كشف النقاب بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ عن عمليتين لنقل الاسلحة والعتاد من بغداد الىٰ بيروت، إذ ثبت من خلال محاكمات بعض رجال العهد المباد انه بتاريخ ٢٠ أيار ١٩٥٨ نقلت كمية من الأسلحة وزنها ثلاثة أطنان من العراق الى بيروت بطائرة عراقية عسكرية وسلمت الىٰ رائد في الدرك اللبناني من رجال شمعون

(٤١) QuBain, op. cit, p. 72

(٤٢) Ibid, p. 72

(٤٣) موسىٰ صبري، مخبر صحفي، ص ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤

اسمه نخلة مغبغب اما الوجبة الثانية فقد نقلت بطائرة عراقية ايضا وحطت في بيروت وكان معظم حمولتها من عتاد قياس (٩) ملم جرىٰ نقله باشراف درك شمعون[٤٤].

وقد بلغ التعاطف بين النظام العراقي الىٰ سوريا عن طريق الأردن لاحتلالها واجهاض تجربة الوحدة بين سوريا ومصر (ج . ع. م) والعمل علىٰ سحق انتفاضة الشعب اللبناني. وهذا التفاهم لم يكن معروفاً قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . وقد كشف الستار عن اللورد بيرد وود الذي أرخ حياة نوري السعيد مستقياً إياه من المصادر الرسمية البريطانية[٤٥]. ويؤكد غامن السفير الامريكي في بغداد وقتئذ انه حين التقىٰ آخر مرة مع نوري السعيد يوم ١٢ تموز ١٩٥٨ وجده منزعجاً جداً لأحداث لبنان، وأخذ يلح عليه ليعرف ما ستفعله حكومة واسنطن لإنقاذ شمعون. ولكن لم يكن لدىٰ السفير ما يطمئنه به، إلا أنه رغم ذلك يجزم قائلاً: «ولا شك ان نوري السعيد قرر بعد قليل من مقابلتي له تعزيز القوة العراقية علىٰ الحدود العراقية الأردنية». ولكن هذه القوة التي خطط لها اجهاض الوحدة واسناد حكم شمعون هي التي قامت بالثورة فقلبت نظام الحكم الملكي معلنة النظام الجمهوري[٤٦].

ومما يلفت النظر حقاً ان حكومة واسنطن كانت قبل قيام الثورة في ١٤ تموز ١٩٥٨ حذرت من تزويد الحكومة العراقية بالاسلحة الحديثة لشكها في ولاء الجيش العراقي للنظام الملكي القائم وقتئذ واحتمال استعمال هذا السلاح في الثورة ضد هذا النظام الذي كبل العراق بالاحلاف، وذلك بالرغم من ميل الأمريكان الشديد لمساعدة اليمين اللبناني، بجميع السبل، ويبدو كل ذلك واضحاً من خلال الحديث المهم الذي دار بين فاضل الجمالي وزير الخارجية العراقية والمستر هيرتر مساعد وزير الخارجية الأمركيية حول الموضوع[٤٧].

وهكذا في الوقت الذي كانت فيه الاسلحة تتدفق على شمعون من عواصم متعددة، كانت

---

(٤٤) الحسني، الوزارات، جـ ١٠، ص ص ٢٩١ ـ ٢٩٤.

(٤٥) Lord Birdwood. M. V. O, NUYI As-said-Astudy in Arab Leadership, pp. 258-259.

(٤٦) ولد مارغلمن. عراق نوري السعيد، ص ٢٤٦، ص ٣٣٣، وانظر الحسني، الوزارات، جـ ١٠، ص ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٤٧) حين سأل محمد فاضل الجمالي وزير الخارجية العراقيه المستر هيرتز مساعد وزير الخارجية الأمريكي «لماذا لا تعطونا مقداراً من الطائرات فننقل نحو الفي جندي عراقي الى لبنان عبر الأراضي التركية ونكون قد ساعدنا هذا القطر العربي مساعدة فعالة» ؟ رد عليه هيرتر متسائلاً «وهل انت واثق من ان الجيش العراقي يساند حكومته» ؟ فأجابه الجمالي «بكل تأكيد» فلم ينبس هيرتز ببنت شفة . انظر الحسني، الوزارات، جـ ١٠، ص ٣٠٧.

القوى الوطنية تفتقر الى ذلك عموماً، رغم حصولها على بعض القطع من السلاح الخفيف. أما غالبيه سلاحها فلم يكن يتجاوز البنادق القديمة ما بين صالحة للاستعمال وغير صالحه. فضلاً عن بنادق الصيد والمسدسات. ولكن الثوار غنموا مدفع رشاش يوم (١٣ أيار) من قوات شمعون سهل الكثير من مهامهم. وقد حاول الدرك الشمعوني استعادة المدفع حين هجم رجاله في اليوم التالي على حي المحيطبه يطلقون النار بلا تعيين بقصد الابادة. ولكن مقاومه الحي لهم بالرصاص والحجارة هزمتهم. وأخذ الثوار يطلقون على المناطق المحررة التي صارت تحت سيطرتهم اسم «بيروت الحرة»(٤٨). وقد لقي الثوار مسانده الكثير من الشخصيات اللبنانيه البارزه كل بدفعه دافع معين ، إلا أنهم يجتمعون على شيء واحد هو كره شمعون. ومن ابرزهم البطريرك الماروني المعوشي والرئيس السابق بشارة الخوري(٤٩).

وفي نفس اليوم (١٣ أيار)، بعد ان اشتد ساعد الثوار ولقوا دعماً شعبيا واسعاً، قاد كمال جنبلاط مظاهرة صاخبه تتقدمها عده سيارات توجهت إلى قصر بيت الدين حيث يقيم شمعون. ولكن حرس القصر قام باطلاق الرصاص على المتظاهرين وعلى سيارة جنبلاط بالذات بقصد اغتياله. وقد أصاب الرصاص عدة سيارات أخرى للمتظاهرين فسقط نتيجه لذلك أربعة جرحى، مع العلم ان المتظاهرين كانوا عزلاً من السلاح(٥٠) وان المظاهرة، كما أكد جنبلاط نفسه. كانت ذات طابع احتجاجي سلمي لا هجومي مسلح يهدف الهجوم على القصر واحتلاله كما يزعم بعض المؤلفين(٥١).

وبعد اشتداد زخم الانتفاضة الشعبية واتساع نطاقها اتهمت الحكومه اللبنانية الجمهورية العربية المتحده بأنها تقف وراء احداث لبنان فأبرقت الخارجية اللبنانية في ٢٠ أيار ١٩٥٨ الى سفارتها في القاهرة طالبة منها تقديم شكوى ضد الجمهورية العربية المتحدة «لمداخلاتها غير الوديه في شؤون لبنان الداخليه» أمام مجلس الجامعة العربية. وطلبت ان تقدم الشكوى فوراً بحجة ان الجمهورية العربيه المتحدة تساعد الثوار وتقدم الامدادات العسكريه لهم بعد أن نظموا في صفوف «المقاومة الشعبية»(٥٢).

---

(٤٨) انظر موسى صبري، مخبر صحفي، ص ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٤٩) بارنت، مصدر سابق، ص ١٢٣ .

(٥٠) جنبلاط، حقيقة الثوره اللبنانية، ص ٤٦ .

(٥١) QuBain, op. cit, pp. 72-73؛ وانظر فوزي ابو دياب، لبنان والامم المتحدة، ص ١٣٧ .

(٥٢) مغيزل. مصدر سابق، ص ٥٦ .

وفي هذه الأثناء توجه شارل مالك وزير خارجية لبنان الى نيويورك ليقدم شكوى مماثلة الى مجلس الأمن الدولي، قبل ان تبت الجامعة العربية بالشكوى المعروضة عليها، أي في حزيران ١٩٥٨[٥٣]، مدعياً ان لدى حكومته «أدلة رسمية لا تحصى ولا يمكن دحضها» على التدخل السوري ـ المصري في الثورة، وبضمنها أدلة حول تسلل ـ مزعوم ـ للمسلمين وشحنات السلاح وحملات دعائية عنيفة ضد حكومة شمعون . وكان من السهل اثبات التهمة الاخيرة، ان جاز لنا تسميتها تهمة. فقد كانت وسائل الاعلام المصرية والسورية تدعو اللبنانيين صراحة الى اسقاط نظام شمعون بالعنف اي عن طريق الثورة، اما التهم الأخرى فقد كان اثباتها أمراً صعباً[٥٤] .

وفي ٦ حزيران ١٩٥٨، وبعد ان اتخذ مجلس الجامعة العربية المنعقد في بنغازي حلا وسطاً لم يرض حكومة شمعون[٥٥]، اجتمع مجلس الامن الدولي لبحث الشكوى اللبنانية[٥٦]. وكانت حكومة شمعون تدرك جيداً ان موقفها هذا يثير الرأي العام اللبناني والعربي الى حد كبير. فلم يكن مجرد صدفة ان ذكر شارل مالك امام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب اللبناني، انه «في لجوئه الى مجلس الامن لا يقصد اثارة المشاكل في وجه الجمهورية العربية المتحدة، وان الحكومة اللبنانية لن تسمح باستخدام شكواها في مجلس الامن ضد مصالح

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٥٧ .

(٥٤) بارنت، مصدر سابق، ص ص ١٢٣ ـ ١٢٤. في التاسع من أيار صاح صوت من القاهرة «ان شعب لبنان الحر العربي يعرف جيداً كيف يطيح بحكومة شمعون» .

(٥٥) كان قرار المجلس:

١ ـ وضع حد بكل وسيلة لكل ما من شأنه ان يعكر صفو العلاقات بين جميع الدول الأعضاء .

٢ ـ مطالبة الحكومة اللبنانية بسحب الشكوى التي قدمتها الى مجلس الأمن .

٣ ـ توجيه نداء الى مختلف الفئات اللبنانية كي تضع حد للاضطرابات وتسوى خلافاتها الداخلية بالطرق السلمية والوسائل الدستورية .

٤ ـ ارسال لجنة يجري اختيار اعضائها من بين أعضاء المجلس (مجلس الجامعة) تتولى تهدئة الوضع وتنفيذ قرار مجلس جامعة الدول العربية». وجاء هذا القرار حلاً وسطاً فلم يوجه التهمة الى أحد وإنما حاول حل الأزمة، غير ان الحكومة اللبنانية رفضت هذا القرار في الخامس من حزيران، ويبدو ان الحكومة اللبنانية لم تكن مهتمة جدياً بحل القضية على صعيد الجامعة العربية، والدليل ان مالك لم يبال بحضور اجتماعات بنغازي وانما توجه رأساً الى نيويورك لحضور اجتماعات مجلس الأمن. انظر فوزي أبو دياب، لبنان والامم المتحدة، ص ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٥٦) مغيزل، مصدر سابق، ص ٥٧ .

الجمهورية العربية المتحدة الأساسية»، كما أكد بأنه «إذا لمس ان هناك أية محاولة لاستغلال دعوى الحكومة اللبنانية على الجمهورية العربية المتحدة فعندئذ نضم في الحال صوتنا الى صوتها للدفاع عن مصالحها واحباط كل خطة قد توضع للنيل من سيادتها وكرامتها»(٥٧) .

وفعلاً أثار موقف حكومة شمعون حفيظة القوى الوطنية اللبنانية التي ادانته بشدة، الأمر الذي وجد له صدى واضحاً في الصحافة البيروتية، فانتقدته بقوة وطالبت بسحب الشكوى اللبنانية باصرار «حفاظاً على كرامة الشعب اللبناني» كما ورد على لسان جريدة «السياسة» في عددها الصادر يوم ٢٧ أيار ١٩٥٨(٥٨) .

قرر مجلس الامن الدولي بعد أخذ ورد طويلين(٥٩)، ايفاد لجنة تحقيق دولية للتأكد من مزاعم حكومة شمعون واتهاماتها لدولة الوحدة. وفي ١٢ حزيران بدأت فرق المراقبين التي قرر المجلس ارسالها تفد الى لبنان. وفي ١٩ منه وصل الأمين العام للامم المتحدة داغ همرشولد الى

(٥٧) منير البعلبكي، أوراق ثورية، ص ص ١٢ ـ ١٣.

(٥٨) المصدر نفسه، ص ص ١٤ ـ ١٥.

(٥٩) في المناقشات التي جرت حول الأزمة اللبنانية يوم ٦ حزيران ١٩٥٨ في مجلس الأمن أيد مندوبو الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وتايوان والعراق بقوة مزاعم الوفد اللبناني وحثوا على اتخاذ اجراء على الفور. اما الإتحاد السوفيتي فقد رفض بقوة مزاعم الوفد اللبناني الذي يرأسه شارل مالك وزير الخارجية وأصر على ان الغرض من هذه الشكوى هو تمهيد الطريق امام التدخل الغربي في شؤون لبنان الداخلية وفي العاشر من حزيران وفي زحمة المناقشات الحامية تقدم الدكتور غونار يارنغ مندوب السويد بمشروع قرار وسط وضع في صيغة من شأنها ارضاء الطرفين المتنازعين فهو من جهة لا يصدر حكماً في القضية ومن جهة ثانية يسمح باتخاذ بعض التدابير البناءة لمساعدة لبنان. وقد حاز المشروع الذي تقدم به الدكتور يارنغ على قبول الجميع بما في ذلك لبنان والجمهورية العربية المتحدة، عدا دولة واحدة هي الاتحاد السوفيتي. وفي ١١ حزيران تم اقرار المشروع السويدي بأغلبية الاصوات، اذ فاز بعشرة اصوات مقابل لا شيء، وامتنعت دولة واحدة عن التصويت هي الاتحاد السوفيتي. وهذا هو نص القرار:

«ان مجلس الأمن،

بعد ان استمع الى التهم التي وجهها ممثلوا لبنان بشأن تدخل الجمهورية العربية المتحدة في شؤون لبنان الداخلية والى رد ممثل الجمهورية العربية المتحدة، يقرر ارسال فريق للمراقبة على وجه السرعة الى لبنان للتأكد من انه ليس هناك تسلل غير شرعي للاشخاص أو تزويد بالاسلحة أو بغير ذلك من المواد عبر الحدود اللبنانية، وتخول السكرتير العام اتخاذ الخطوات اللازمة بهذا الشأن، ويطلب من فريق المراقبة احاطة مجلس الأمن علماً بصورة متتابعة عن طريق السكرتير العام» ... انظر فوزي ابو دياب، لبنان والامم المتحدة، ص ص ١٤١ ـ ١٤٢، ص ١٧٣ .

بيروت لإجراء اتصالات بالمراقبين الدوليين والسلطات اللبنانية، ثم انتقل الى القاهرة حيث اجرى اتصالات مع المسؤولين هناك[٦٠] .

تأكد لقوة المراقبين الدوليين عدم وجود أية دلائل على تدخل للجمهورية العربية المتحدة في أحداث لبنان، وانها لم تستطع التعرف على أي متسلل. إلا أن المراقبين «تكهنوا باحتمال وجود شحنات من السلاح من سوريا». وقد أزعج تقرير المراقبين المسؤولين الامريكيين الذين أرادوا ادانة حكومة الوحدة مهما كلف الأمر، حتىٰ انهم ادعوا ان «لديهم معلومات حصلوا عليها من مصادر خفية لم يكشفوها، بأن مصر كانت تجهز الثوار بالاسلحة والاموال بنشاط». اما حكومة شمعون فقد استشاطت غضباً لأن الامم المتحدة لم تجـر وراء تفسيرها لأحداث الانتفاضة وأسبابها باتهام دولة الوحدة. ومن المهم ان نشير بهذا الصدد الى ان الأمريكان بدأوا يقرون الحقيقة الواقعة بانفسهم واسلوبهم المعروف في مثل هذه الحالات. ففي تعليق له على الموضوع كتب الكاتب الامريكي بارنت يقول ما نصه: « لا شك ان مجموعة مراقبي الامم المتحدة قد خففت من أهمية تدخل الجمهورية العربية المتحدة، ولكنها كانت على صواب من القضايا الاساسية، فناصر كان يحاول استغلال الغليان السياسي في لبنان، لكنه لم يخلق ذلك الغليان بنفسه، ولم يكن لبنان بحاجة الىٰ اسلحة خارجية لأجل صراعاته العنيفة الداخلية، وهو الذي كان دائما مليئاً بالمخزونات السرية من الأسلحة وبأسواق بيع السلاح. ان التدخل المصري لم يكن الدافع ولا الركن الأساسي للحرب الأهلية»[٦١]. ولـكن «نسي» المؤلف الامريكي ان يقول ان الامر كله كان لعبة دبلوماسية فاشلة استهدفت القاء تبعة احداث لبنان علىٰ الغير بعد ان فقد النظام القدرة على الحكم والتصدي للانتفاضة الشعبية .

بعد ان رفضت الامم المتحدة تبني افكار شمعون وحكومته، شاع ان بريطانيا والولايات المتحدة عازمتان على التدخل عسكرياً في لبنان اذا ما طلبت الحكومة اللبنانية ذلك، خاصة بعد أن احيطت جهود النظام الشمعوني ليكون التدخل تحت راية الامم المتحدة لصالح الاستعمار وعملائه كما حصل قبل ذلك بثمان سنوات في كوريا.

وفي الوقت الذي كانت فيه احداث لبنان الساخنة تعالج دولياً ظلت الأوضاع الداخلية تشتد سوءاً من حيث تدهور الحالة الأمنية وارتفاع عدد الضحايا من الأهليين وقوات السلطة،

(٦٠) مفيزل، مصدر سابق، ص ٥٧ .
(٦١) بارنت، مصدر سابق، ص ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

ومن حيث فرض الرقابة علىٰ الصحف وايقاف بعضها عن الصدور، وسحب يد القضاة الشرعيين واحالتهم الىٰ المجلس التأديبي لرفضهم الانسياق وراء التيار الشمعوني بنبذ أساليب الحق والعدل وانتقادهم بعنف للمسلك الحكومي السيئ.

استمرت الانتفاضة الشعبية تتعاظم وتزداد اشتعالاً ويتسع نطاقها حتى قرر الثوار التوسع في عمليات الخنادق ونصب الاسلاك الشائكة والمتاريس للحيلولة دون تقدم مصفحات ودبابات السلطة نحو الاحياء الشعبية في «بيروت الحرة» التي قسمت الى ثلاثة قطاعات أو مناطق بهدف توزيع المسؤولية:

١ ـ المنطقة الجنوبية (جنوبي بيروت) وهي من طريق الجديدة وحتى أرض المطار وتشمل أحياء: الحرش، مستشفى المقاصد، صبره، ابو شاكر، الرواس، دبيان ياسين.

٢ ـ المنطقة الوسطى (وسط بيروت) وتشمل أحياء: البسطة، المحيطبة، برج ابي حيدر، زقاق البلاط.

٣ ـ المنطقة الغربية وتشمل: الزيدانية، الظريف، الملك، عائشة، بكار، تلة الخياط.

وقاد هذه المناطق ابناؤها بحيث اختار كل حي قائده، وانضوى الجميع بحماس تحت راية الثورة، فحتى النساء والشيوخ والاطفال اشتركوا في اعمال الحراسة والرصد وغيرهما. وانضم الى الثوار عدد كبير من الجنود بأسلحتهم، إلا أن اسماءهم ظلت مكتومة خشية تنكيل السلطة بعوائلهم، وبدأ جهاز الثوار الاعلامي عمله بالتهويل في النداءات التلفونية التي يقوم بها افراده بشأن عدد قطع السلاح التي وصلتهم من مدافع هاون وغيرها كجزء من الحرب النفسية لاضعاف معنويات شمعون وقواته وعصاباته. ونجحت «مخابرات» الثوار في الحصول على معلومات هامة مفادها ان شمعون طلب من مندريس رئيس وزراء تركيا وقتئذ تهيئة مكان لاقامته في تركيا عندما يهرب من لبنان. وشكل الثوار قوة شرطة للمحافظة علىٰ الأمن في أحياء الثورة باسم «الشرطة الشعبية» وكذلك قوة اسعاف خاصة. ووضع قانون عاجل لمحاكمة الأخطاء العسكرية والاعمال الخيانية. ونجح بعض الثوار في الاستيلاء على بعض قطع السلاح من السلطة من بينها رشاشين ومدفع بازوكا ساهم في تحطيم مصفحتين حكوميتين. ولم «يتخيل شمعون ان المدفع الذي عطل المصفحتين هو من مدافع حلف بغداد». ورغم ان الشهداء ظلوا يتساقطون، إلا ان زغردة النساء في أحياء «بيروت الحرة» لم تتوقف أو تنقطع

فكانت هذه الزغاريد الحبيبة ترفع من معنويات المقاتلين وتدفعهم الى المزيد من الصمود والتضحيات[٦٢].

وهنا لا بد من الاشارة الى ان حزب البعث العربي الاشتراكي في لبنان لم يكتف خلال هذه الاحداث الساخنة بحمل السلاح وتوعية الجماهير واصدار البيانات، بل أقام ايضاً «اذاعة شعبية» كانت تبث على موجة معينة التوجيهات والاحاديث والاناشيد لعدة ساعات يومياً، كما تولى الحزب اصدار النشرة الاسبوعية «للمقاومة الشعبية» في بيروت[٦٣]. ويلخص احد المصادر دور الحزب بالقول ان البعثيين عاشوا «في صميم المعركة وشاركوا فيها مشاركة فعالة وقدم الحزب عدداً من الشهداء قبلها وأثناءها وعدداً آخر من الجرحى»[٦٤].

استمر الثوار اللبنانيون في نشاطهم وبدأوا يلجأون الى اساليب جديدة ومؤثرة في نضالهم اليومي. ففي ١٥ حزيران قاموا بعملية جريئة اسفرت عن نسف دار سامي الصلح رئيس الوزراء واقرب اعوان شمعون وذلك بعد ان اجبروا الحامية التي تقوم بحراستها على الانسحاب[٦٥] وكان من الطبيعي ان تهز هذه العملية شمعون ونظامه بعنف وان تؤثر على معنوياته، ولا سيما بعد ان قام الثوار بهجوم جديد على مقره في القصر الجمهوري. وقد رد شمعون على هذه العمليات المهمة بقصف مدفعي عشوائي ذهب ضحيته الكثير من الابرياء في الاحياء السكنية في «بيروت الحرة».

ولما تأكد شمعون ان الاتصالات التلفونية تسهل الكثير من مهام الثوار قام بقطع اسلاك التلفون عن احياء الثورة ولكن الثوار هددوه بقطع جميع الاسلاك التلفونية في كل انحاء لبنان ان لم تعاد الحياة لاتصالاتهم فاضطر الى اعادتها بعد عشر دقائق فقط من توجيه الانذار. ثم أراد شمعون ان يجس نبض الثوار فطلب عقد هدنة، فأجاب الثوار بأن القتال سيتوقف في حالة واحدة هي استقالته عن الرئاسة بعد ان يقيل وزارة سامي الصلح وبعكسه فان القتال

(٦٢) موسى صبري، مخبر صحفي، ص ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠ .

(٦٣) نضال البعث، جـ ٨، ص ١١٩ .

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٥٤ .

(٦٥) «عوض سامي الصلح بمبلغ نصف مليون ليرة لبنانية لقاء هذا العمل، وكان ذلك على عهد الرئيس فؤاد شهاب وفي أواخر شهر أيلول ١٩٦١ تنفيذاً لقرار مجلس الوزراء اللبناني المتخذ في أواخر عهد الرئيس كميل شمعون». انظر عبدالرزاق الحسني، الوزارات، جـ ١٠ ، ص ٢٩٠ .

سيستمر. وفشلت ايضاً محاولات شمعون في دس بعض عملائه في صفوف الثوار الذين اكتشفوهم واعتقلوهم ولقي كل منهم جزاءه العادل.(٦٦)

وتعزيزاً لموقف الثوار الذين كانوا يخوضون نضالاً مريراً وبطولياً تحمل المناضلون البعثيون الكثير من اعباء الثورة ومشاقها، وقد أكد حزب البعث العربي الاشتراكي ضرورة استمرار الثورة وعدم تخليه كحزب قومي تقدمي عن المعركة قبل تحقيق مطالب الجماهير اللبنانية المباشرة والمتمثلة في:

١ ـ اسقاط نظام شمعون وحل المجلس النيابي المزيف .

٢ ـ محاكمة المسؤولين بسبب ما ارتكبوه بحق استقلال لبنان ومصالح ابنائه، وتجريدهم من ثرواتهم غير المشروعة .

٣ ـ اقامة عهد جديد يقوم على :

أ) المحافظة على استقلال لبنان وسيادته

ب) التزام سياسة الاخوة الحقيقية على الصعيد العربي في الميادين الثقافية والاقتصادية والعسكرية، والوقوف بوجه «اسرائيل» بسياسة تنبع من المصلحة العربية العامة .

أـ) تبني سياسة الحياد الايجابي على* الصعيد الدولي والتخلص من مبدأ أيزنهاور وكل ارتباط مع الاستعمار .

د) تأسيس حكم شعبي تقدمي يقوم على العدل بين المواطنين واعتماد الكفاءة الشخصية مكان الاعتبار الطائفي في جميع مرافق الدولة، وتعزيز الاقتصاد الوطني والتنظيم التعاوني .

هـ) تطوير قانون الانتخابات بحيث يتلاءم مع تمثيل أرادة الجماهير وصيانة حريتها(٦٧) .

---

(٦٦) موسى صبري، مصدر سابق، ص ص ٢٦٦ ـ ٢٧٥ .

(٦٧) نضال البعث، جـ ٨، ص ١٢٥ .

* كانت حكومة سمعون السباقة فى الانضهام الى مبدأ أيزنهاور .

موقف الولايات المتحدة من الأحداث اللبنانية والانزال الامريكي فى بيروت

كان من الطبيعي ان تلقي الولايات المتحدة الامريكية بثقلها الى جانب حكومة شمعون التي لم تخف ميلها الكبير نحو الامريكان منذ اليوم الاول لمجيئها الى دست الحكم*. فلم يمر اسبوع واحد علىٰ انفجار الاحداث في لبنان عندما اعلنت الولايات المتحدة بأنها قد ضاعفت فرقة المشاة الملحقة بأسطولها السادس في البحر المتوسط، وانها ستنظر الىٰ ارسال القوات الامريكية الىٰ لبنان إذا طلب منها ذلك. وهى لم تكتف بذلك، بل انها باشرت فى الحال بارسال الاسلحة عن طريق الجو الىٰ قوات شمعون، لكن الكثير منها سرعان ما وصل الىٰ أيادى الثوار. ثم صرح دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة انه لا يعتبر لبنان متعرضاً الى هجوم «من دولة يمكن اعتبارها واقعة تحت نفوذ الشيوعية الدولية»، لكنه حذر بقوله ان ذلك لا يعني «انه لا يمكن عمل شئ» شارحاً ان هناك في مبدأ أيـزنهاور مواد أخرى تقضى بأن «استقلال تلك البلدان أمر حيوى للسلام وللمصالح القومية للولايـات المتحدة. وان ذلك بالتأكيد يشير لصلاحية القيام بشئ ما إذا اقتنعنا ان سلامنا ومصالحنا الحيوية مهددة من قبل أى جهة كانت»[٦٨].

ومن الجدير بالذكر ان ارسال القوات الامريكية الىٰ لبنان كان موضوع بحث دائم في واشنطن منذ اندلاع الثورة الشعبية في أيار ١٩٥٨، إذ ان جون فوستر دالاس اعتقد ان الوضع خطير بما فيه الكفاية لانزال قوة عسكرية أمريكية لوقف الغليان الثوري في الشرق الأوسط وكان يرغب القيام بذلك في أيار رغم مخاوفه الكبيرة من ان مثل هذا التحرك سيؤدي الى اجراءات انتقامية كنسف انابيب النفط الامريكية وغلق قناة السويس بوجه الملاحة فضلاً عن مضاعفات اخرى متوقعة لا يمكن اهمالها أو التغاضى عنها[٦٩] الا أن هذه المخاوف

---

(٦٨) بارنت، مصدر سابق، ص ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٦٩) المصدر نفسه، ص ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

نُحيت جانبا أو بالأحرىٰ مزقت حينما وصل «استيضاح» الىٰ واشنطن من شمعون يوم ٤ تموز ١٩٥٨ عن إمكانية إنزال قوات الاسطول السادس في لبنان لحماية نظامه من الانهيار علىٰ يد الثوار اللبنانيين. وكان ايزنهاور يتظاهر قبل ذلك بساعات بأن الأزمة اللبنانية ستحل دون تدخل أمريكي، خاصة بعد أن وافق كميل شمعون علىٰ صرف النظر عن فكرة تجديد عهده بعد تعاظم المد الثورى في البلاد.

استمرت اوضاع شمعون تسير من سيء الى أسوأ، ولما كان الانتظار معناه سقوطه وتعرض المصالح الامبريالية، وفي مقدمتها الامريكيـة في لبنان خاصة والمشرق العربى عامة، الىٰ ضربة قاضية سارع شمعون بناء علىٰ ذلك كله وعلى وجه التحديد اثر[٧٠] قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق بترحيـب بل تحريض من واشنطن الىٰ استدعاء[٧١] القوات الامريكيـة المحمولة علىٰ ظهر الاسطول السادس الموجود قبالة سواحل بيروت الىٰ التدخل فوراً خلال (٤٨) ساعة مؤكداً لهم ان التدخل اذا لم يتم خلال هذه الساعات فإنه سيصبح في عداد الأموات، وسيصبح لبنان برأيه دولة تابعة لمصر تدور في فلكها[٧٢] .

(٧٠) ذكر كوبين في كتابه ان شمعون طلب انزال القوات الأمريكية قبل قيام الثورة العراقية، وانه سمع ذلك من مصادر موثوقة فى المرة الأولى حين كان شارل مالك يعرض القضية امام مجلس الأمن حين طلب من حكومة واشنطن ارسال قوات الىٰ لبنان . ثم طلب شمعون ذلك مرتين الىٰ السفير الأمريكي في بيروت خلال شهر حزيران. وفي المرة الأولى اجاب السفير بأن تدخلاً عسكرياً قد يؤكد عدم شعبية شمعون. ومن الأفضل استخدام الضغط أو التهديد للتوفيق بين المعارضة والحكومة دون انزال قوات مسلحة. فلما الح شمعون في المرة الثانية، اجاب السفير بأنه لا بد من تقديم طلب تحريري الىٰ الحكومة الامريكية انظر: QuBain, op. cit, p. 131. وانظر صلاح العقاد، مصدر سابق، ص ٢٢٩ .

(٧١) استقل كميل شمعون بالطلب من دون مجلس النواب، ولم يكن الدستور الذي لا تجهله الحكومة الأميركية ليسمح له بأن يتنازل عن سيادة البلاد الوطنية بمطلق ارادته. وقد استدعىٰ هذا التدخل احتجاج رئيس مجلس النواب اللبناني عادل عسيران الذى طالب برسائل الىٰ كل من همرشولد سكرتير عام الامم المتحدة ورئيس مجلس الامن الدولي ووزارة الخارجية، بانسحاب القوات الأمريكية من لبنان لأن وجودها لم يأت عن طريق طلب رسمي مشفوع بموافقة المجلس النيابي باعتباره القوة الشرعية الوحيدة في لبنان. انظر جريدة «الحرية»، ١٧ تموز ١٩٥٨؛ فؤاد عمون، سياسة لبنان الخارجية، ص ٦٩ .

(٧٢) QuBain, op. cit, p. 115

يمكن القول ان استدعاء كميل شمعون للقوات الامريكية للتدخل في لبنان تم في ظل ما يلي :

١ ـ فشل شمعون في السيطرة علىٰ الموقف داخلياً بواسطة أجهزته القمعية (الأمن، الدرك، الشرطة)(٧٣) بمعزل عن الجيش اللبناني الذى رفض قائده اللواء فؤاد شهاب انجاد شمعون، أو اقحام الجيش لمساعدته في أجهاض الثورة لان شهاب اعتبرها احتجاجاً جماهيرياً اكثر منها تخريباً وعصياناً يستوجب التدخل، اذ كان شهاب يبتغي ابقاء الجيش خارج الصراعات التي كانت تهدد بانقسام البلاد،(٧٤) ولأنه اعتبر مهمة الجيش مقتصرة علىٰ الدفاع عن حدود البلاد ضد العدوان الخارجي، والحفاظ علىٰ الأمن الداخلي عند الحاجة، لذا حين دعي الىٰ استخدام قوىٰ الجيش للقضاء علىٰ الثورة لم يوافق الا علىٰ منعها من الامتداد والانتشار(٧٥) وكما رفض شهاب الوقوف مع شمعون رفض فى الوقت نفسه الوقوف مع الثوار، وبذلك وقف الجيش علىٰ الحياد فنجح فى شل الكثير من حركة شمعون ونفوذه، كما شل حركة الثوار وحال بينهم وبين تحقيق النصر الحاسم ، بهدف فرض الحل الوسط علىٰ لبنان شعباً ونظاماً .

٢ ـ فشل المساعدات المادية والمعنوية المتمثلة بالاموال والاسلحة والأعتدة المقدمة من قبل

(٧٣) الامن : مديرية عامة مهمتها مراقبة الاحزاب السياسية وحركات الجمعيات والأفراد ورض الجمعيات السرية والممنوعة والمشبوهة وتعني بمكافحة الجاسوسية ومراقبة اعمال التخريب ودعاة الفوضى والاضطرابات والمطبوعات والأشرطة السينمائية واللاجئين السياسيين ومنع التهريب ومراقبة المسافرين، وابعاد المشبوهين عن البلاد. تتألف مديرية الامن العام من اربعة اقسام هي: الديوان، الدائرة السياسية، دائرة الاجانب والجوازات، دائرة مراقبة الحدود. أما الدرك فيعرفونه باسم الجندرمة، وهي كلمة فرنسية تعني «رجال السلاح» مهمتهم تعقب الاشقياء والقبض على المجرمين وفرض النظام وهيبة القانون على المتمردين، وذلك خارج نطاق المدن، اما الشرطة فواجباتها المحافظة على الأمن فى المدن ويعبر عن الشرطة بالشرطة المدنية، تمارس صلاحياتها داخل المدن لمراقبة تنفيذ القوانين والأنظمة وتأمين حركة السير وقمع المخالفات والقبض على المشبوهين بالنشل وفساد الأخلاق وقمع الدعارة السرية، وتنفيذ المذكرات الأدارية والقضائية ولا يعهد للدرك بالمحافظة على الأمن فى المدينة إلا في الحالات الاستثنائية. انظر: نجيب صدقة وآخرون، دراسات عن حكومة لبنان، مجموعة محاضرات المحاضرة عن مهام وزارة الداخلية القاها حسني العوجي المدير العام فى الوزارة يوم ١٩٥٥/١/١٧ فى الجامعة الأمريكية ببيروت، ص ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٧٤) بارنت، مصدر سابق، ص ١٢٣ .

(٧٥) الصليبي، مصدر سابق، ص ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، الرياشي، مصدر سابق، ص ١٩٢ .

بعض الدول الاستعمارية كالولايات المتحدة أو العميلة كالحكومة الملكية فى العراق الىٰ أجهزة شمعون القمعية في أنقاذ نظامه .

٣ ـ فشل جهود شمعون لجر الامم المتحدة للصراع الدامي فى لبنان بادخال قوات دولية تسانده وتعزز موقفه ضد الحركة الوطنية اللبنانية كما حصل فى كوريا عام ١٩٥٠ .

٤ ـ يأس شمعون من تدخل العراق وتركيا عضوا حلف بغداد لصالحه فى لبنان عن طريق اجهاض دولة الوحدة باحتلال القوات العراقية تساندها القوات الأردنية، فى ظل الاتحاد الهاشمى، لسوريـا بعد ان تحول هذه معظم قواتها الىٰ حدودها الشماليـة لاتقاء التهديدات التركية. وبعد احتلال دمشق تتوجه القوات العراقيـة نحو بيروت لذبح الانتفاضة وجزرها بالقوة. ولكن هذه الخطط احبطت تماماً بقيـام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ (٧٦)، التى قلبت التخطيط رأساً على عقب، اذ أن تركيا بعد سقوط العهد الملكي في بغداد لم تجرؤ على التحرك، وهي تحسب ألف حساب لتحرك جارها القوي الاتحاد السوفيتي صديـق الجمهوريـة العربية المتحدة، التي لا تضمن وقوفه متفرجاً علىٰ الاحداث، خاصة بعد تأييده الحار للثورة العراقية وترحيبه واعترافه السريع بها بعد اعتراف دولة الوحدة، لذا آثرت تركيا الصمت. ولا استبعد ان يكون هذا الصمت موقف أمني تركي فرضته التطورات الجديدة التى لم تكن متوقعة مع ما يمكن أن تفرضه من حسابات محتملة علىٰ الرغم من انه قد يجر إلىٰ غضب الولايات المتحدة على تركيا .

٥ ـ بعد ان يئس شمعون من كل مساعدة قرر وضع مبدأ ايزنهاور الذى تبناه في ١٩٥٧ موضع التنفيذ وذلك بدعم واشنطن بجيـوشها للانظمة العميلة والمواليـة لها في حالة تعرضها الىٰ محن وهزات علىٰ يد شعوبها المناضلة ومنها شعبنا العربي في لبنان، لأن شمعون ظن ان مشاة البحرية الامريكية الرابضين على مقربة من شواطئ لبنان علىٰ ظهر قطع الاسطول السادس سيحولون دون سقوط نظامه .

---

(٧٦) يقول فؤاد عمون في كتابه «سياسة لبنان الخارجية»، ص ٦٨ «ففي يوم السبت الواقع في ١٢ تموز ١٩٥٨ الح كميل شمعون علىٰ مجلس الوزراء ليوافقوه علىٰ الاستنجاد بالجيش العراقي الذى كان علىٰ أهبة التحرك. ولكن بيار أده عارض بشدة فاضطر شمعون أن يرجئ المناقشة الىٰ يوم الاثنين ١٤ تموز ولولا ثورة العراق المفاجئة في نفس اليوم، لأصبح لبنان ضحية تدخل دول نصبت نفسها حلفاً مقدساً اسلامياً، تحاول ان تقمع، كالحلف المقدس الأوربي، الحركات الوطنية التحررية بحجة الدفاع عن الشرعية» .

اتصل السفير الأمريكي في بيروت بواشنطن ناقلاً اليها على الفور استغاثات كميل شمعون وتذمره من تأخر المساعدات الامريكية. وكان ألن دالاس مدير وكالة المخابرات المركزية الامريكية C.I.A وقتذاك وشقيق وزير الخارجية جون فوستر دالاس قد ابلغ الرئيس ايزنهاور بأن شمعون كان يشعر بالمرارة «لأننا لم نبعث القوات لاسناده». وكان ايزنهاور قد اتخذ قراره، كما يقول في مذكراته، بأن الوقت قد حان «للانزال في الشرق الاوسط وخصوصاً في لبنان لوقف الاتجاه نحو [ما يسميه] الفوضى». وجمع الرئيس الامريكي ابرز رجال الكونغرس للتشاور معهم حول الموضوع. وهنا صارح السناتور وليم فولبرايت الرئيس ايزنهاور بأن ليس هناك مبرر للتدخل في لبنان لأن ما يقع فيها ليس سوى حرب أهلية مقتصرة على القوى اللبنانية وحدها، إلا أن هذا لم يثن ايزنهاور عن عزمه وقراره[٧٧]. أعلنت جماهير الشعب العربي في لبنان انها ستقاتل الدخلاء باسنانها وأيديها، بل ان كثيراً من ضباط الجيش اللبناني «المحايد» أعلنوا انهم سيهجمون على الجيش الامريكي بمجرد نزوله الى الساحل، وانهم مع القوات الشعبية الى آخر نفس وآخر رجل[٧٨] بعد ان حولت الاستغاثة الشمعونية من سفير واشنطن في بيروت الى البيت الأبيض، اعطى هذا الضوء الاخضر الى الاسطول السادس الامريكي الذي كان مستعداً للانزال على شواطئ بيروت. وكان عدد القوات المهيئة للنزول في لبنان يتراوح بين (١٤ ـ ١٥) الف جندي أمريكي[٧٩] أي ضعف حجم الجيش اللبناني تقريباً[٨٠]. في حين كان حجم القوات الأمريكية المحمولة على ظهر قطع الاسطول السادس البالغة سبعون قطعة، أربعون ألف جندي من مشاة البحرية[٨١].

بدأ الانزال في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الثلاثاء المصادف ١٥ تموز ١٩٥٨[٨٢]،

---

(٧٧) بارنت، مصدر سابق ص ص ١٢٨ ـ ١٣٠.

(٧٨) موسى صبري، مصدر سابق، ص ٢٧٩ .

(٧٩) يذكر كوبين ان عدد القوات التي نزلت الشواطئ اللبنانية كان يبلغ (١٥) خمسة عشر الف جندي امريكي. انظر: QuBain, op. cit, p. 115

بينما يؤكد بارنت ان عددهم كان (١٤) الف جندي. انظر بارنت، مصدر سابق، ص ١٠٦ .

(٨٠) بارنت، مصدر سابق، ص ١٠٦.

(٨١) QuBain, op. cit, p. 115

(٨٢) Ibid, P. 115

بنزول الوجبة الأولىٰ البالغ عددها (١٨٠٠)[٨٣] رجلاً هم قوام كتيبة مشاة البحرية الأمريكية الثانية[٨٤]. نزلوا علىٰ امتداد شاطئ خلدة والأوزاعي وانتشر جنودهم واعتدتهم ومدافعهم ودباباتهم علىٰ الشاطئ من خلدة حتىٰ صربا ثم «توقفوا مؤقتاً» عن الزحف نحو مركز بيروت وأحيائها السكنية المزدحمة[٨٥]، إلا أنهم فيما بعد أدخلوا بعض قطعاتهم ترافقها قوات لبنانية، للمرابطة عند ميناء بيروت وبعض المؤسسات الامريكية. بالتنسيق مع قيادة الجيش وسخط الثوار الصامت رغم أخذ موافقة قادتهم المبدئية على ذلك تحاشياً للصدام المباشر مع القوات الامريكية وما يترتب علىٰ ذلك من خسائر بشرية كبيرة. فضلاً عن قناعات قادة الثورة الخاصة التي تدفعهم الىٰ الحد من اندلاع الثورة لئلا تلتهم كل شئ يعيق توجهها النضالي.

وفيما يلي نص البلاغ الذى اذاعه الجيش الامريكي الذى نزل فى لبنان والموقع من الرئيس الامريكي ايزنهاور والمؤرخ في ٢٢ تموز ١٩٥٨، أي بعد أسبوع من نزول الجيش الامريكي يوم ١٥ تموز:

«الـىٰ المواطنين اللبنانيين الكرام..

لقد دخلت قوات الولايات المتحدة بلادكم بناء علىٰ طلب من حكومتكم الدستورية، وهذه القوات موجودة هنا لكي تساعدكم في مجهوداتكم الرامية الىٰ المحافظة علىٰ استقلال لبنان في وجه أولئك الذين يرغبون في التدخل في شؤونكم والذين عرّضوا سلم بلدكم وأمنه للخطر.

لقد غادر الضباط والجنود الامريكيون بيوتهم لكي يساعدوا في الدفاع عن منهجكم فى الحياة وعن ممتلكاتكم وعن عائلاتكم. انهم سيغادرون بلادكم حالما تتخذ الامم المتحدة اجراءات تضمن استقلال لبنان.

لقد تصرفت الحكومة الامريكية استجابة لنداء المساعدة الذى قدم من دولة مسالمة يربطها بالولايات المتحدة منذ القديم أوثق روابط الصداقة»[٨٦].

---

(٨٣) يشير كوبين الىٰ أن عدد هذه القوات (٢٫٠٠٠) الفي جندي من مشاة البحرية نزلوا يوم ١٥ تموز ١٩٥٨ بكامل عدتهم وسلاحهم. وقد نزلوا على مبعدة خمسة أميال جنوبي بيروت. اما بارنت فيجعل عدد رجال الكتيبة (١٧٠٠) رجل. والاثنان على خطأ اذ أن تعداد أو قوام الكتيبة الأمريكيـة (١٨٠٠) رجل حسب. انظر: QuBain, op. cit, P. 115 ;

(٨٤) بارنت، مصدر سابق، ص ١٣٠.

(٨٥) الرياشي، مصدر سابق، ص ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٨٦) انظر الحسني، الوزارات، جـ ١٠، ص ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

وأمام موقف الغرب هذا هددت موسكو، التي وصلها عبدالناصر فجأة قاطعاً رحلة خاصة إلىٰ يوغسلافيا بسبب الثورة في العراق، بالرد بجميع الوسائل التي قد يتطلبها الموقف في حال التدخل ضد الثورة العراقية(٨٧).

واثر نزول القوات الامريكية في لبنان طلب الاتحاد السوفيتي رسمياً سحب هذه القوات فوراً وانذر بانه لن يستطيع ان يقف موقف المتفرج من هذا التدخل، وان الموقف في الشرق الأوسط بات يهدد السلام العالمي، وان الاتحاد السوفيتي يحتفظ لنفسه بحق اتخاذ الاجراءات الضرورية لصيانة الأمن والسلام ان لم ينسحب الامريكيون فوراً(٨٨).

وسخرت المذكرة السوفيتية التي وزعت علىٰ وكالات الانباء من قلق الولايات المتحدة علىٰ رعاياها في لبنان، إذ قالت: «أما عن قلق واشنطن علىٰ سلامة رعاياها فان المرء يتساءل بمقتضى أي من قواعد القانون الدولي تستطيع الدول الأجنبية ان ترسل قواتها الىٰ أراضي دولة أخرى لمثل هذه الأغراض وليس في القانون الدولي قواعد كهذه» .. وجاء في المذكرة ايضاً ان السبب الحقيقي للتدخل ينبعث من رغبة احتكارات البترول الامريكية، ورغبة دول أخرىٰ في السيطرة علىٰ دول الشرق الأوسط كما ينبعث ايضاً من أفلاس السياسة الغربية في الشرق العربي، ومن انهيار حلف بغداد، ومن انهيار مشروع دالاس ـ ايزنهاور الشرير(٨٩).

اما الرئيس جمال عبدالناصر فقد اعلن ان هذا الاحتلال يؤلف خطراً علىٰ السلام في الشرق الأوسط واعتداءاً خطيراً علىٰ ميثاق الامم المتحدة وتهديداً سافرا للدول العربية التي رفضت ان تخضع للاستعمار وصممت علىٰ اتباع سياسة مستقلة في ظل الحياد الإيجابي(٩٠).

وأكد الرئيس عبدالناصر ايضاً ان الحكومة الامريكية ـ كما هو واضح ـ اتخذت من الثورة الداخلية في لبنان التي مضت عليها سبعة أسابيع ذريعة تحقق عن طريقها غرضها في احتلال لبنان وتهديد بلدان الشرق الأوسط المستقلة ... وان تدخل امريكا يفضح النوايا

(٨٧) مغيزل، مصدر سابق، ص ص ٥٦ ـ ٥٩.

(٨٨) د. جمال الدين الرمادي، مصدر سابق، ص ٥٩.

(٨٩) جريدة «الحرية»، ١٧ تموز ١٩٥٨. وقد سبب التدخل الأمريكي ايضاً الضيق لهمرشولد سكرتير عام الامم المتحدة، كما اشارت وكالة انباء اسوشيتدبرس. وطالب نهرو رئيس وزراء الهند بانسحاب القوات الأمريكية من لبنان وذلك برسالة وجهها للسفير الأميركي في دلهي. انظر جريدة «الحرية» البغدادية، ١٧ تموز ١٩٥٨.

(٩٠) د. جمال الدين الرمادي، مصدر سابق، ص ٥٩.

الامريكية تجاه الشعب العربي في محاولة لاخضاعه والسيطرة عليه ويعتبر مهزلة تدل علىٰ استهتار امريكا بالامم المتحدة بل بوجود هذه الهيئة. وفي الوقت نفسه اعلن عبدالناصر ان أي عدوان علىٰ الجمهورية العراقية يعتبر عدواناً على ج . ع . م ، وانها ستقوم بكافة التزاماتها أزاء العراق طبقاً لميثاق الضمان الجماعي العربي[٩١] .

اما الأسباب التي تشدق بها الامريكان لتبرير تدخلهم في لبنان فقد كانت مختلفة إلا أنها غير مقنعة كالعادة منها «حماية أرواح الامريكيين» و «دعم الحكومة اللبنانية في الدفاع عن سيادة لبنان ووحدته»[٩٢]، وانه تم بناء علىٰ طلب عاجل من شمعون، كما أكد ايزنهاور، وان نزول هذه القوات في لبنان عمل غير حزبي[٩٣] وانهم جاءوا للمحافظة على كيان لبنان من الخطر المجاور له: خطر احتلال الجمهورية العربية المتحدة وخطر الثورة العراقية الجديدة[٩٤] .

إلا أن هذه الادعاءات سرعان ما نسفت كلها علىٰ يد الحكومة الامريكية نفسها حين اعترف ناطق رسمي باسم وزير الخارجية الامريكية يوم ٨ تشرين أول ١٩٥٨ بأن «الاضطرابات» التي وقعت في لبنان كانت لأسباب داخلية. ولما طلب من الناطق توضيح هذه الفقرة قال، ان القوات الامريكية ارسلت الىٰ لبنان يوم ١٥ تموز ١٩٥٨ بناء علىٰ طلب رسمي من الحكومة اللبنانية بزعم وجود تدخل اجنبي في شؤون لبنان. وأضاف بأن الموضوع بعد الآن لا يمكن ان يعتبر كذلك وان اية خلافات مماثلة قد تقع في لبنان بعد الآن ليست في الحقيقة إلا خلافات بين الكتل والعناصر السياسية اللبنانية نفسها وليس بين لبنان ودول أجنبية[٩٥] .

في حين اشار الدبلوماسي الامريكي روبرت مورفي مبعوث الرئيس الامريكي الىٰ لبنان اثناء الأزمة ان هدف التدخل هو أظهار نفوذ الولايات المتحدة والتزاماتها في الشرق الأوسط، مؤكداً ان «ايزنهاور كان يعتقد انه اذا لم تتدخل الولايات المتحدة الان فستحدث خسائر جسيمة لا يمكن استرجاعها في لبنان وفي المنطقة عموماً. وكان ينبغي اظهار قدرة الولايات

(٩١) جريدة «الحرية» ١٧ تموز ١٩٥٨ .

(٩٢) بارنت، مصدر سابق، ص ١٣٠ .

(٩٣) د. جمال الدين الرمادي، مصدر سابق، ص ٥٩ .

(٩٤) الرباشي، مصدر سابق، ص ١٩٨ .

(٩٥) جريدة «الحرية» ٩ تشرين الأول ١٩٥٨ .

المتحدة على اسناد اصدقائها بشكل عملي وفي اللحظة المناسبة». ويعتقد بارنت ان الهدف الرئيسي للتدخل كان منع البلدان المجاورة للبنان، أي سوريا أو الاقليم الشمالي من دولة الوحدة وقتذاك، من السير نحو الحياد أو الشيوعية. وكان أحد الأهداف الأخرىٰ أن تظهر الولايات المتحدة استعدادها للمخاطرة بالتحرك العسكري حتىٰ وان عنـي ذلك المواجهـة المباشرة مع الاتحاد السوفيتي[٩٦]، بل ان ايزنهـاور شد من أزر ماكميلان رئيس الـوزارة البريطانية الذي أنزل قواته في الأردن في ١٥ تموز١٩٥٨، بعد ان شعر ماكميلان بأن تدخله في الأردن معرض للأدانة في الامم المتحدة، بتأكيده ان للانكليز في الأردن نفس حقوق الولايات المتحدة في لبنان وانه «لا يرىٰ سبباً للشعور بالاحراج»[٩٧].

اما عدنان فواز استاذ العلوم السياسية فى الجامعة اللبنانية فيقول: «اذا كانت الثورة العسكرية فى العراق سبباً أولياً للنزول العسكري الامريكي في لبنان، فقد ساعد هذا النزول علىٰ انتهاء الأزمة اللبنانية»[٩٨] كما يرىٰ. ولكنها نهاية لم تحقق أماني الثوار وتطلعاتهم.

لقد سبقت الاشارة الىٰ ان القوات الامريكية لم تتقدم بأتجـاه المناطـق السكنية أو الحساسة في بيروت واكتفت بما احتلته من مناطق الساحل خشية التصادم مع الثوار والقوىٰ الوطنية والقطاعات العسكرية اللبنانية التي أبدت استعدادها للمقاومة والتصدى للدخلاء. لأن مثل هذا التصادم قد يجر واشنطن الىٰ ورطة كبيرة لم تحسب حسابها بل ولا تريد الوقوع في مستنقعها المتحرك، إذ ان جل ما تطمح إليه هو الحيلولة دون نجاح الثورة وتولي أحد رجالها أو مناصريها علىٰ الأقل رئاسة الدولة بعد شمعون .. ثم قد يؤدي مثل هذا التورط الامريكي الىٰ ضرب المصالح الامريكية في لبنان والمنطقة العربية وهذه المصالح هي أحرص ما تحرص عليه الولايات المتحدة. فضلاً عن رغبة واشنطن في تحاشي المضاعفات المحلية والعربية والدولية التي قد يفرزها تدخلها الفج في لبنان.

ولما كانت أوامر قائد الاسطول السادس الاميرال هالاوي صريحة بتدمير بيروت عند حدوث أية مقاومة، فقد سارع اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش بالاتصال بقيادة «المقاومـة

(٩٦) بارنت، مصدر سابق، ص ١٣١.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٩٨) عدنان فواز، مصدر سابق، ص ٨٦.

الشعبية» لضبط اعصابها وأعصاب ثوارها، وكذلك قام هو بالتأثير علىٰ الضباط اللبنانيين الذين أصروا علىٰ مقاومة الغزاة .. وقد نجح بالفعل في مسعاه هذا، ولكن بعد أن حصل كما يبدو علىٰ ضوء اخضر من هالاوي بعدم التقدم نحو مركز بيروت وأحيائها المزدحمة قسراً أو دون اذن أو تشاور مسبق مع قيادة الجيش اللبناني أو بدون مصاحبة بعض رجاله أو قطعاته ان اقتضى الامر دخول بعض قطعات جيش الاحتلال الامريكي الىٰ مركز بيروت للمرابطة قرب بعض المؤسسات الامريكية الرسمية أو التجارية. وهذا ما حصل فعلاً كما سنرىٰ. وقد أحيط الثوار علماً بذلك . ويقول أحد قادة الثورة بهذا الصدد: قررنا «ان نسيطر علىٰ أعصابنا والا نصطدم بالجيش الامريكي» خشية المضاعفات من جهة وخشية سقوط ضحايا عديدين من جهة ثانية وخشية اعطاء الفرصة للغزاة لاطالة أمد احتلالهم اللامشروع من جهة ثالثة. وقد نزل قرار عدم التصدي للغزاة علىٰ الجماهير نزول الصاعقة، فارتفعت الاصوات تدعو الجماهير الىٰ التوجه نحو الشاطئ لقتال الامريكيين، ولكن قيادة الانتفاضة الشعبية نجحت بشكل أقرب الىٰ الاعجاز في ان تشرح وجهة نظرها وتقنع الجماهير بالبقاء في مواقعها. إلا أن هذا لم يمنع الثوار من المطالبة باستقالة شمعون من الرئاسة بل اشتدت حملة المطالبة بدل ان تضعف ، حتىٰ ان شعار «لا نلقي السلاح إلا بذهاب شمعون وسامي الصلح» غدا مطلباً جماهيرياً متداولاً في كل مكان[٩٩] .

وبالمقابل فقد أصر كميل شمعون علىٰ ان تدخل القوات الامريكية بيروت «وإلا اختطفني ـ كما أكد للامريكان ـ الثوار، وحينئذ ستجد الحكومة الامريكية نفسها في وضع حرج لأن قواتها في لبنان تصبح فوق أراضي أجنبية بدون الحكومة التي استدعتها» وكان الأمريكان قد أنزلوا نحو (١٥) الف جندي يومي ١٥ و ١٦ تموز واحتلوا مطار بيروت الدولي دون مقاومة بفعل بعده عن مركز العاصمة. أما الجيش اللبناني فقد وقف عند مداخل بيروت. ويرجع صلاح العقاد انه فعل ذلك بمجرد التظاهر بحفظ ماء الوجه. ولا شك ان بعض الضباط قد جرحت كرامتهم، ولكن القيادة العامة وقفت موقفاً سلبياً، وأخيراً وافقت على ان ترافق قوات لبنانية الامريكيين عند دخولهم العاصمة بناءاً على رغبة رئيس الجمهورية كميل شمعون، وحددت المواقع التي ترابط فيها القوات الامريكية وهي الميناء والاماكن التي تقع فيها المؤسسات الامريكية[١٠٠] .

(٩٩) الرياشي، مصدر سابق، ص ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(١٠٠) صلاح العقاد، مصدر سابق، ص ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

وبعد ان اطمأن الجيش الامريكي الىٰ عدم تصدي الجيش اللبناني له وانسحاب ذلك علىٰ الثوار حاول ان يجس نبض الثوار، بعد ان فهم خطأ ان قرار عدم التصدي دليل علىٰ الضعف والوهن، حين وجه انذاراً في ١٨ تموز الىٰ قيادة «المقاومة الشعبية» بتخلية موقع تلة الخياط وهي اعلىٰ نقطة في بيروت، وتخليتها من قبل الثوار معناه كشف كل مواقعهم ومناطقهم في «بيروت الحرة» امام الجيش الأمريكي إلا أن الثوار رفضوا ذلك مؤكدين انهم سيدافعون عن الموقع حتى آخر رجل. وامام اصرار الثوار اضطر الأمريكان الىٰ سحب انذارهم (١٠١).

ازاء السخط الشعبي العارم ضد الولايات المتحدة والذى ساد لبنان وكل الوطن العربي، قرر الرئيس الامريكي ارسال روبرت مورفي نائب وكيل وزارة الخارجية كمبعوث عنه الىٰ لبنان لدراسة الموقف من جهة وتحاشي تطوره بشكل لا يخدم المصالح الامريكية في المنطقة من جهة ثانية، حتىٰ وان كان ذلك يعني التضحية بشمعون نفسه، خاصة بعد ان احترقت أوراقه واصبح غير قادر بالتمام علىٰ أداء الخدمة المطلوبة للاستعمار الامريكي من موقعه كرئيس للبنان، والمجيء برئيس جديد لا يختلف عن شمعون إلا بالاسم ويماثله في استعداده لخدمة البيت الابيض. وإذا تعذر ذلك وهو متعذر فعلاً في ظل استمرار الانتفاضة الشعبية، فلا بأس من تولي رئيس يمثل الوسط للحيلولة دون قطف الشعب اللبناني لثمار ثورته بعد ان اقتربت من النضوج لولا قوات الاسطول السادس. وتقرر ان لا يعود مورفي من لبنان إلا بعد ان يرتب الأوضاع بهذا الشكل أو ذاك لما فيه خدمة مصالح واشنطن في لبنان خاصة والمنطقة العربية بوجه عام.

ما ان وصل مورفي الىٰ بيروت حتىٰ تجلت أمامه جملة من الحقائق التي لا يمكن اهمالها أو التغاضي عنها هي:

١ ـ ان شمعون كان قد تحول إلىٰ اشبه ما يكون بسجين في القصر الجمهوري، مهمته خلال السبع والستين يوماً السابقة لوصول مورفي تفادي الاغتيال لدرجة أنه لم يكن ليقترب من نافذة القصر أبداً خشية القناصة من الثوار، لذلك كان منقطعاً عن مجرىٰ الأحداث السريع في البلاد. وتأكد لمورفي ان شمعون لا يمكن انقاذه، لذا فان استمراره كرئيس للبنان غير ممكن، أي أن مسألة تجديد عهده لا بد من صرف النظر عنها نهائياً. ولكن حفاظا علىٰ «كرامة» شمعون، أو قل ما تبقىٰ منها، ضمن مورفي له استمرار عهده حتىٰ نهايته «القانونية» في ٢٣ أيلول ١٩٥٨.

(١٠١) موسىٰ صبري . مخبر صحفي، ص ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

٢ ـ كانت الشخصية التي لها اليد الطولىٰ في الموقف بل وفي ترتيب الكثير من احداثه، خاصة بعد نزول القوات الأمريكية، هي شخصية اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش الذي أصر كما رأينا علىٰ رفض ادخال الجيش لصالح شمعون أو ضده، لأنه كان يأمل أن يقوم الجيش بدور الوسيط بين الأطراف المتصارعة لا الحاسم لصالح أحدهما، ليتم التوصل الىٰ حل وسط وهذا ما أدركه مورفي أيضاً بعد تدارسه للموقف ... وبدا لمورفي أن الشخص الوحيد الذي يستطيع إيقاف الصراع هو فؤاد شهاب لأنه يحظى بتأييد وثقة كل الأطراف أو معظمها علىٰ أقل تقدير اذا ما أريد إيقاف حالة التدهور وما يمكن أن تجره من مخاطر، في حالة استمرارها، علىٰ المصالح الأمريكية .

وجد مورفي ان الضرورة الماسة تتطلب من حكومته اتخاذ موقف اقل انحيازاً في الحرب الأهلية ريثما تعيد ترتيب أوراق اللعبة مرة أخرىٰ وفي ظروف أكثر صلاحية ومواتاة. وهكذا رتب اجتماعاً مع قادة الثوار بوساطة الكولونيل الأمريكي المتقاعد وليام ادي الذي كان يعمل مستشاراً لشركة الأرامكو في بيروت. «وأقنع» مورفي قادة الثورة بأن الولايات المتحدة لم تعد مرتبطة بشمعون رغم كونه أكثر سياسي موالٍ لها في الشرق الأوسط(١٠٢) .

وبعد ان اتضحت النوايا تماماً تبين أن معظم القوىٰ السياسية في لبنان، والتي ساهم في صقل مواقف بعضها المبعوث الأمريكي مورفي، غير مختلفة حول شهاب تقرر اجراء الانتخابات في ٣١ تموز ١٩٥٨ لاختيار رئيس جديد للجمهورية. ولم يكن هناك من ينافس حقاً اللواء فؤاد شهاب علىٰ سدة الرئاسة ـ خاصة بعد ان اصيب حميد فرنجية مرشح المعارضة وأحد أقطاب المعارضة المارونيين لشمعون فجأة بداء عضال أقعده عن العمل السياسي نهائياً ـ مما اضطر المعارضة الىٰ التوجه نحو فؤاد شهاب قائد الجيش وأبرز المرشحين للرئاسة(١٠٣). ولا شك أن شهاب كان سيفوز حتماً في الانتخابات حتى لو دخلها معه فرنجية لما

---

(١٠٢) بارنت، مصدر سابق، ص ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(١٠٣) ابرز من رشح للرئاسة من داخل البرلمان: سلام لحود، ريمون اده، ايلي ابو جودة. اما من خارجه: الفريد نقاش (رئيس سابق للبنان اثناء الاحتلال الفرنسي)، شارل حلو (صار فيما بعد رئيسا للبنان بين ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠)، جواد بولص، اميلي تيان، بدري المعوشي، بشارة الخوري (وهو رئيس سابق)، فضلاً عن فؤاد شهاب المرشح الأقوىٰ. اما فرنجية فكما اشير في متن البحث لم يرشح نفسه بسبب مرضه المفاجئ. انظر الصليبي، مصدر سابق، ص ٢٤٦، وانظر QuBain, op. cit, p. 155

لشهاب من سمعة طيبة ولأنه يحظىٰ باحترام الأغلبية، فقد كان رجل الساعة في نظر الجانب الأكبر من القوىٰ السياسية اللبنانية. ولا ننسىٰ أيضاً ان مورفي صرح قائلاً بأنه قد اتضح له «وللجميع بأن الحل الأنسب هو انتخاب اللواء فؤاد شهاب خلفاً للرئيس شمعون»[١٠٤] .

ومن الجدير بالذكر ان مورفي غادر[١٠٥] لبنان قبل قدوم يوم الانتخابات بساعات قليلة لتلافي الاحراج، وخشية تفسير بقائه علىٰ أنه بهدف الضغط علىٰ النواب لانتخاب شخص معين، لكن المرجح أن مورفي قرر ترك لبنان بعد ان وجد ان بقاءه لا يقدم ولا يؤخر خاصة بعد ان حسم الموقف لصالح شهاب وليس بالاستطاعة فرض شخصية لبنانية يمينية مكشوفة كشمعون. وهكذا حظى شهاب بتأييد معظم القوىٰ القادرة علىٰ التأثير في الساحة اللبنانية ما بين مقتنع به وبين مضطر للاقتناع لانه لم يجد غيره ليعطيه صوته. بل ان شهاب حظى حتىٰ بدعم ج . ع . م ، فقد صرح مصدر مسؤول في القاهرة بعد انتخاب شهاب مباشرة قائلا ان جمال عبدالناصر هو الذي رشح اللواء شهاب للرئاسة وذلك يوم ٢٠ أيار ١٩٥٨ حين اتصلت واشنطن بالرئيس عبدالناصر لبحث وضع لبنان. فأبلغهم ان الحل هو في تولي شخص ترضىٰ عنه المعارضة وجميع الجهات السياسية المعنية، وان هذا الشخص هو شهاب وفعلاً لم تمانع إلا حكومة شمعون في انتخابه وجاءت القوات الأمريكية لاحتلال لبنان ضاربة عرض الحائط الاقتراح، الذي سرعان ما اضطرت الىٰ قبوله بعد تردي الأوضاع، كما أكد هذا المصدر[١٠٦] .

وكان حزب البعث العربي الاشتراكي قد أصدر قبل يوم واحد من انتخابات الرئاسة، أي في ٣٠ تموز ١٩٥٨، بياناً عبر فيه عن رأي جميع القوىٰ المعارضة لشمعون جاء فيه ما يلي :

١ ـ رفض اجراء الانتخابات في ظل جيوش الاحتلال وعن طريق مجلس مزيف لا يمثل أرادة الشعب .

٢ ـ المطالبة بحكم انتقالي يحقق جلاء الجيوش الأجنبية ويعمل علىٰ تصفية عصابات

---

(١٠٤) الصليبي، مصدر سابق، ص ٢٤٨ .

(١٠٥) وصل مورفي بغداد في ٢ آب ١٩٥٨. ولما سئل عن التدخل الأمريكي في لبنان قال انه جاء بناء علىٰ طلب الرئيس شمعون والحكومة اللبنانية الشرعية وتطبيقاً للمادة (٥١) من ميثاق الامم المتحدة. انظر جريدة «الحرية»، ٣ آب ١٩٥٨.

(١٠٦) الحرية، (١) آب ١٩٥٨؛ ايليا حريق، من يحكم لبنان، ص ٧٩

الخيانة وتطهير أجهزة الدولة والجيش من العملاء وصغار النفوس المخربين. ويجرى انتخابات جديدة لعهد ديمقراطي جديد ينفذ أهداف الشعب التي قامت من أجلها الثورة» .

وجاء في البيان أيضاً: «ولن نقبل البحث بأي مرشح لم يستنكر التدخل العسكري الأجنبي. لن نقبل بالبحث بأي مرشح لم يحارب العهد (الشمعوني) أو ساعد على اطالة أمده أثناء الثورة. ان شعار الجميع الآن هو المطالبة بجلاء الجيوش الأجنبية أولاً. لا انتخابات في ظل الاحتلال. والنصر للشعب وللثورة الجبارة»[١٠٧] .

ثم عاد الحزب وأكد في بيان آخر له أصدره يوم ٣١ تموز ١٩٥٨ بعد فوز شهاب بانتخابات الرئاسة بأغلبية ٤٨ صوتاً ضد ثمانية وتغيب عشرة عن التصويت[١٠٨] - ضرورة ذهاب شمعون وجلاء الأمريكان عن البلاد اذ انهما أمران متلازمان اذ لا استقرار ولا حياة حرة شريفة للشعب إلا بعد جلاء الجيوش الأجنبية. ودعا الجيش والشعب لخوض معركة انقاذ الاستقلال واجلاء الاجنبي المستعمر من جديد[١٠٩] .

وهنا يفرض سؤال مشروع نفسه: كيف تم انتخاب شهاب رئيساً للجمهورية في ظل الاحتلال على الرغم من شجب بيان القوى المعارضة التي عبر عنها حزب البعث العربي الاشتراكي.

(١٠٧) نضال البعث، جـ ٨، ص ١٢٩ .

(١٠٨) في التصويت الأول كانت الاصوات بالشكل التالي: شهاب (٤٣) صوتاً، ريمون اده (١٠) أصوات، (٣) أوراق بيضاء، المجموع = ٥٦ بسبب تغيب عشرة نواب عن جلسة التصويت من بينهم سامي الصلح رئيس الوزراء الذي لم يحضر بحجة ان ترشيح شهاب لا يتماشى مع الدستور. لذا نجده يهرب من لبنان قبل بدء عهد شهاب بأيام دون ان يعلم به أحد. أما نواب المعارضة الذين حضروا فمنهم رشيد كرامي، صبري حماده، انور الخطيب، معروف سعد، رنيه معوض. وبما ان شهاب لم يحصل على اغلبية الثلثين المطلوبة وهي (٤٤) صوتاً من مجموع أصوات المجلس النيابي البالغة (٦٦) صوتاً فقد أعيد التصويت فكانت النتيجة كما يلي: شهاب (٤٨) صوتاً، ريمون اده (٧) أصوات، (١) بيضاء، المجموع)٥٦(صوتاً. وهكذا حاز شهاب على أغلبية الثلثين بل واكثر رغم غياب عشرة أعضاء عن جلسة التصويت كما اشرت. انظر الحرية، ١ آب ١٩٥٨، ٢١ أيلول ١٩٥٨.

(١٠٩) نضال البعث جـ ٨، ص ص ١٢٩ - ١٣٠ .

وللأجابة علىٰ هذا التساؤل نقول:

قبل كل شيء يجب علينا الا ننسى ان الحكومة اللبنانية برئاسة سامي الصلح والدولة برئاسة شمعون كانت لا تزال قائمة، إذ أن موعد انتهاء عهدهما كان ينتهي في ٢٣ أيلول ١٩٥٨، خاصة بعد ان أصر شمعون على عدم الاستقالة إلا بعد اكمال مدته القانونية، يدعمه في موقفه هذا الجيش الامريكي النازل علىٰ شواطئ بيروت. وهنا لا نستطيع بالطبع ان نغفل الضغوط التي تستطيع ادارة شمعون والصلح ممارستها فعلا لتظهر نفسها بمظهر اللامبالي بل والمتحدي لبيان زعماء المعارضة الآنف الذكر، متظاهرة بالقوة والجبروت حتى وهي في أواخر أيامها برفض شروط الثوار، فضلاً عن رغبتها في كسر شوكة الثوار وطعن الانتفاضة الشعبية معنوياً ونفسياً بالاصرار على انتهاج اسلوب اعلنت الانتفاضة مسبقاً أنها ترفضه وتشجبه بحزم . وكان سلاح شمعون في ذلك :

١ ـ الجيش الامريكي المحتل المعزز بالعدة والعدد والذي احتل معظم شواطئ بيروت، وقد اتخذه شمعون بالفعل ستاراً بل وصمام أمان لكل تحركاته هذه بما فيها سد الطريق علىٰ وصول شخص من قادة الانتفاضة أو رجالها أو مسانديها الىٰ سدة الرئاسة ـ وهنا وعند هذه النقطة ان الاتفاق بين شمعون والقوات الامريكية المحتلة لا شبهة حوله ولا لبس فيه ولا خلاف .

٢ ـ ان غالبية أعضاء مجلس النواب، الذي يقوم عادة بانتخاب الرئيس الجديد للبنان بموجب الدستور، هم نفس أعضاء المجلس الذين وصلوا الىٰ كرسي العضوية عام ١٩٥٧ بفضل جهود شمعون والمخابرات الغربية التي قررت ايصالهم لتفسح امام شمعون تجديد عهده لست سنوات اخرىٰ. وقد سبق أن رأينا ان معظم أعضاء المجلس من اعوان شمعون وازلامه بفضل التزييف الذي ساد الانتخابات لذا فهؤلاء كانوا مستعدين ولا شك بعد تلقي الضوء الأخضر، لانتخاب من لا يمانع البيت الأبيض في وصوله الىٰ منصب رئاسة الجمهورية. ولما كان مجيء أحد العملاء من طينة شمعون ـ كما سبق أن أشرنا ـ أمراً مرفوضاً من الثوار ولأنه سيزيد الوضع المتفجر تأزماً، لذا فان مجيء «معتدل» كفؤاد شهاب يعتبر أهون الشرين، إذ ان ذلك أفضل بكثير ولا شك بالنسبة للامريكان في مجيء رجل ساند الانتفاضة .. فاذن لا مانع من انتخابه ما دام مورفي قد جاهر بذلك قبل أن يرحل عن بيروت .

٣ ـ ان عدد الأعضاء الوطنيين والتقدميين من أحزاب المعارضة لشمعون قليلين جداً في المجلس النيابي «المنتخب» عام ١٩٥٧ لما سادها من تزييف كما سبقت الاشارة، لذا فان تأثيرهم ولا شك داخل المجلس ليس كبيراً بل ولا يقاس بدورهم في الشارع وبين صفوف الجماهير كما لمسنا ذلك في طيات البحث .

بل ولا ننسى ان نشير الىٰ ان عدداً من النواب المحسوبين علىٰ المعارضة بل ومن قادتها، وممن يفضلون الحلول الوسطية بفعل اعتدالهم ووسطيتهم وانحداراتهم الطبقية ساهموا مساهمة فعالة في انتخاب شهاب لأنه لم يكن بنية هؤلاء الذين ساهموا في أجهاض الانتفاضة والوقوف بها عند منتصف الطريق أي تصور جذري للأزمة اللبنانية .

وبعد انتخاب شهاب رئيساً للجمهورية بثلاثة أيام اصدر حزب البعث العربي الاشتراكي في ٣ آب ١٩٥٨ بياناً أكد فيه ان الانتخابات تمت تحت الضغط الأجنبي ولم تحقق اهداف الشعب ... اذ ليس من ضمانات ظاهرة في العهد الجديد لمطالب الشعب الأساسية من الانتفاضة ، وان الشعب ما يزال يتساءل عن مصير مطالبه المباشرة بتطهير أجهزة الدولة والجيش من الفساد والقضاء علىٰ عصابات الخيانة والتآمر واقامة حكم ديمقراطي يعمل لمصلحة الشعب بكل فئاته، واعتبار أعمال الثوار شرعية وضمان مستقبل الاحرار من الموظفين وافراد القوات المسلحة الذين انضموا للشعب المناضل ... وختم الحزب بيانه بالقول: «أيها الشعب العظيم .. ان انتخابات الرئاسة التي تمت بالشكل الذي عرفته وحذرت منه لم تحقق حتىٰ الان اهداف الثورة، ولقد حال دون استبشارك بقرب انتهاء الأزمة خيبة أملك من القبول بالرضوخ لحل تم تحت ضغط قوات الاحتلال الأجنبية»(١١٠). ثم دعا في بيان آخر له العهد الجديد الىٰ محاكمة المسؤولين عن فساد العهد السابق وخياناته ومؤامراته خصوصاً بعد تسببهم في عودة الاحتلال الاجنبي للبلاد.(١١١)

وقد اكد اللواء فؤاد شهاب في أول بيان له بعد انتخابه رئيساً للجمهورية وجهه الىٰ الشعب اللبناني ليلة ٤ آب ١٩٥٨ حرصه علىٰ تحقيق جلاء القوات الأمريكية عن لبنان وأعلن تمسكه بالميثاق الذي أجمعت عليه الهيئات والاحزاب في لبنان منذ عام ١٩٤٣(١١٢)

---

(١١٠) المصدر نفسه، ص ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(١١١) المصدر نفسه، ص ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(١١٢) الحرية، ٥ آب ١٩٥٨ .

وبالفعل بدأت أول كتيبة أمريكية مؤلفة من ١٨٠٠ جندي بالانسحاب من لبنان يوم ١٣ آب ١٩٥٨، وهو نفس اليوم الذي بدأت فيه اجتماعات الدورة الاستثنائية للجمعية العامة للامم المتحدة حول قضية جيوش الاحتلال في لبنان والأردن، بقصد جر البساط من تحت المعارضين لوجود هذه القوات وتخفيف حدة الهجوم الاعلامي في الجمعية العامة ضد واشنطن واظهار المحتلين وكانهم رهن اشارة الرئيس اللبناني المنتخب للانسحاب من لبنان، وكأن هدفهم اقرار الأمن لا اجهاض الانتفاضة الشعبية ودعم اليمين اللبناني. واتمت الكتيبة انسحابها بعد ثلاثة أيام، وبذلك بقي من القوات الأمريكية النازلة في لبنان ما يقل قليلا عن (١٣) ألف جندي امريكي. وقد أكد جيمس هالاوي القائد العام للقوات الأمريكية في لبنان ان قرار السحب هذا اتخذ بعد مشاورات مع كل من شمعون وشهاب[١١٣]، إلا ان هذا الانسحاب الجزئي لم يلغ السخط العالمي الموجه ضد جيش الاحتلال الامريكي.

وازاء اختلاط الحابل بالنابل وتردي الأوضاع الأمنية فى لبنان والاحتجاج العالمي الواسع علىٰ تدخل لقوات الأمريكية فى لبنان تقرر في الامم المتحدة عقد دورة استثنائية للجمعية العامة يوم ١٣ آب ١٩٥٨. وقد ارسل مؤتمر الأحزاب والهيئات والشخصيات الوطنية في لبنان برقية الىٰ داغ همرشولد سكرتير الامم المتحدة اعلن فيها:

١ ـ سخطه علىٰ الاحتلال الامريكي.
٢ ـ المطالبة بوضع حد لهذا العدوان علىٰ الأراضي اللبنانية.
٣ ـ يعتبر المؤتمر ان كل وفد ترسله الحكومة التي لم تعد تملك من الشرعية ومن الثقة العامة ومن اسباب الحكم شيئاً لتمثيلها في جلسات الجمعية العامة وخصوصاً برئاسة أو عضوية شارل مالك[١١٤] لا يمثل الشعب في لبنان ولا يعبر عن ارادته.
٤ ـ يؤكد المؤتمر إرادة الشعب اللبناني في الاستقلال والسيادة وفقاً لمبادئ الامم المتحدة

---

(١١٣) الحرية، ١٣ ، ١٤ آب ١٩٥٨ .

(١١٤) انتخب شارل مالك بترشيح من حكومة سامي الصلح بعد مناقشات مجلس الأمن بشأن لبنان بأسابيع قليلة وعلىٰ وجه التحديد يوم ١٦ أيلول ١٩٥٨. وهو موعد ابتداء الدورة العادية الثالثة عشرة للجمعية العامة للامم المتحدة رئيساً للجمعية. اذ حصل علىٰ (٤٥) صوتاً مقابل (٣١) صوتاً حصل عليها منافسه محمد احمد محجوب وزير خارجية السودان. وكان لواشنطن الدور الأكبر في وصوله الىٰ رئاسة الجمعية العامة. انظر الحرية، ١٧ أيلول ١٩٥٨ .

ويرفض كل حل يأتي من الخارج ولا يحترم وجوده كدولة ذات سيادة حرة مطلقة أولاً يأتلف مع الكرامة الوطنية أو يتعارض مع الروابط الطبيعية مع العالم العربي الذي هو جزء منه.

واختتم المؤتمر برقيته قائلاً ان الامم المتحدة ليست دولة عالمية تعلو سيادة الدول المنظمة اليها ولا تملك حق التصرف بمقدرات الشعوب ارضاءاً لارادات خارجية(١١٥) .

افتتحت الدورة الاستثنائية للجمعية العامة حول لبنان في الساعة ٥٫٤٥ من بعد ظهر ١٣ آب ١٩٥٨ بتوقيت بغداد. وقدمت عدة مشاريع منها المشروع الامريكي والمشروع السوفيتي. احتوىٰ المشروع الأمريكي الذى تلاه ايزنهاور بنفسه على ست نقاط اهمها الدعوة لانشاء قوة بوليس دولية تابعة للامم المتحدة تحل محل القوات الأمريكية التى تنسحب من لبنان. اما المشروع السوفيتي الذي قدمه اندريه جروميكو وزير الخارجية رئيس الوفد السوفيتي فقد اتهم امريكا بارتكاب العدوان المباشر على لبنان، وان ما تدعيه امريكا من تطبيق للمادة (٥١) من ميثاق الامم المتحدة لا صحة له لأن هذه المادة لا تنطبق إلا فى حالة تعرض الدولة الىٰ عدوان خارجي مسلح وهذا ما لم يحدث في لبنان أو الأردن. ثم دعا جروميكو الى انسحاب القوات المحتلة من لبنان والأردن، وتدعيم هيئة المراقبين في لبنان. وقد امتدح محمود فوزى رئيس وفد ج. ع. م المشروع السوفيتي واثنىٰ عليه(١١٦) وقد انتهت مناقشات الدورة الاستثنائية يوم ٢١ آب ١٩٥٨ بالموافقة علىٰ مشروع القرار العربي الذي يدعو إلىٰ انسحاب القوات الأجنبية من لبنان والأردن في وقت مبكر، ونص القرار ايضاً علىٰ احترام جامعة الدول العربية لنظم الحكم في دول الجامعة والامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية للأنظمة الحاكمة(١١٧) .

ولا شك ان قرار الأمم المتحدة هذا لم يكن واضحاً وصريحاً في اقرار قاعدة عدم التدخل إلا بما خص علاقات الدول العربية بعضها ببعض، أما الدول الاجنبية فلم يؤكد وجوب

(١١٥) الحرية، ١٤ آب ١٩٥٨ .

(١١٦) الحرية، ١٤ آب ١٩٥٨ .

(١١٧) الحرية، ٢٢ آب ١٩٥٨ .

اقتناعها هي الأخرىٰ عن التدخل في شؤون الغير[١١٨]. وقبل ان يصدر هذا القرار كانت واشنطن قد سحبت في ١٩ آب كتيبة ثانية مؤلفة من (١٨٠٠) جندى فبقي في لبنان زهاء (١١) الف جندى بينما بلغ عددها الاقصىٰ قبل اسبوعين من ذلك (١٥) الف جندى[١١٩] هذا في الوقت الذي بدأ فيه عهد شمعون عده التنازلي، وعهد شهاب اقترابه يوماً بعد آخر، ولكن التحالف الكتائبي ـ الشمعوني الانعزالي أبىٰ إلا أن يعمل علىٰ تأزيم الوضع الأمني في لبنان بزيادة حدة التوتر بين قواه السياسية .

---

(١١٨) فؤاد عمون، مصدر سابق. ص ٧٠ .

(١١٩) الحرية، ٢٠ آب ١٩٥٨ .

الفصل الثاني

«العهد الشهابي والحلول الوسطية»

الثورة المضادة للكتائب :

قبل أن يطل يوم ٢٣ أيلول ١٩٥٨ وهو اليوم الذي كان من المقرر ان ينتهي فيه عهد شمعون ليبدأ عهد فؤاد شهاب بتسلمه سلطاته الدستورية كرئيس للجمهورية، وبينما كان الجو السياسي ـ العسكري يستعيد هدوءه وتأخذ الغيوم المتلبدة في سماء لبنان بالانقشاع، والقتال خف بصورة تدريجية الى ان توقف كلياً، افتعل حزب الكتائب حادثاً خلاصته «اختطاف» الصحفي الكتائبي فؤاد حداد المحرر في جريدة «العمل» لسان حال حزب «الكتائب اللبنانية» في نهار ١٩ أيلول ١٩٥٨ لتفجير الأزمة من جديد، خاصة بعد أن دعت الكتائب على لسان رئيسها بيير الجميل الى الاضراب العام بهدف توتير الوضع من جديد حتى يتسنى اطالة أمد بقاء القوات الأمريكية بحجة عدم توفر الأمن واستتبابه فضلاً عن الحيلولة دون تولي الرئيس المنتخب فؤاد شهاب لسلطاته الدستورية بهدف تكريس الفوضى والفساد والفتن الطائفية بعد ان تعذر تجديد عهد شمعون مرة أخرى. وليس من السهل الفصل بين مؤامرة الكتائب هذه وبين مسألتين هما:

١ ـ احباط ضباط استخبارات الجيش اللبناني خطة كانت ترمي الى تجديد عهد شمعون ست سنوات أخرى بالقوة ومنع شهاب من تولي سلطاته الدستورية[١٢٠].

٢ ـ اجتماع فؤاد شهاب اثر اكتشاف المؤامرة برشيد كرامي أحد قادة المعارضة لشمعون مرتين الأولى يوم ١٦ أيلول والثانية يوم ١٧ أيلول ففهم من هذا ان كرامي هو المرشح لتشكيل الوزارة الجديدة التي ستتسلم مسؤولياتها بعد تولي شهاب السلطة يوم ٢٣ أيلول. ومما زاد وضع شمعون والكتائب حرجاً تأكيد الرئيس شهاب يوم ١٧ أيلول، وأثر مقابلته

(١٢٠) الحرية، ١٩ أيلول ١٩٥٨ .

لكرامي، بأن الوزارة الجديدة لن تضم أي شمعوني وان مهمتها الأولىٰ هي العمل من اجل تحقيق انسحاب القوات الأمريكية(١٢١).

إلا أن التصرف الكتائبي المفتعل المحسوب بدقة لم يمنع شهاب من أداء اليمين الدستورية في جلسة عقدها مجلس النواب يوم ٢٣ أيلول ١٩٥٨ متسلماً السلطة من شمعون الذي غادر بيروت الىٰ قرية «عين القبو» في كسروان ـ لبنان، في حين كان الاضراب الجديد الذي دعت إليه الكتائب ساري المفعول في بعض المناطق اللبنانيـة الخاضعة الىٰ نفوذ العصابات الكتائبية والمتعاطفين معها .

ولكن رغم الجو الارهابي الذي خلقته الكتائب، فقد عمت مظاهر الابتهاج مدينة بيروت بمناسبة انتهاء عهد شمعون وتسلم شهاب لسلطاته الدستورية. وتجلت مظاهر الفرحة بالأعيرة النارية التي اطلقها الناس احتفالاً بهذه المناسبة. وشارك رجال الجيش اللبناني الشعب فرحته فاطلقوا الرصاص من بنادقهم ورشاشاتهم وحلقت الطائرات في سماء بيروت مشاركة منها بالمناسبة. وحملت طائرة حربية لافتة كبيرة من القماش كتب عليها (لبنان لجميع اللبنانيين) وتجمع أفراد الشعب حول اجهزة الراديو لسماع خطاب شهاب وبعد انهائه القسم الدستوري الذي أداه في المجلس النيابي يوم ٢٣ أيلول القىٰ الرئيس شهاب خطاباً استهله بشكر النواب الذين منحوه ثقتهم بانتخابه رئيساً. وقد أكد الرئيس الجديد في خطابه علىٰ ضرورة ازالة التوتر في العلاقات بين لبنان وبعض شقيقاته العربيات، وتحقيق انسحاب القوات الأجنبية من أرض الوطن بأسرع وقت، وطرح سلاح اللبنانيين كافة واعادة الحياة والنشاط الىٰ الاقتصاد اللبناني واعادة بناء ما خرب من مرافق البلد ومعالمه(١٢٢) .

وفي ٢٤ أيلول تجددت الاشتباكات في بيروت بين «المقاومة الشعبية» التي كانت قد دعت الىٰ فك اضراب القوى الانعزالية الأخرىٰ الداعية الىٰ الاضراب الجديد واستمراره، فتدخل الجيش وسقط عدد كبير من الضحايا .

واثر هذه الاشتباكات التي شملت مناطق فرن الشباك وطريق الشام ومحلة الجميزة والصيفي وساحة الشهداء وقرب سينما ريفولي، اصدرت قيادة الجيش التي دخلت قواتها

(١٢١) الحرية، ١٧، ١٨ أيلول ١٩٥٨ .

(١٢٢) الحرية، ٢٤ أيلول ١٩٥٨ .

للفصل بين المشتبكين من الطرفين بلاغاً جاءت فيه القرارات التالية رغبة في المحافظة على الأمن :

١ ـ يمنع منعاً باتاً نقل الاسلحة في شوارع بيروت وضواحيها حتى ولو كان مرخصاً به من وزارة الداخلية أو قيادة الجيش .

٢ ـ لقد اعطيت التعليمات المشددة لكافة قوى الأمن لاطلاق النار فوراً ودون سابق انذار على كل شخص يظهر في الشارع ينقل سلاحاً .

٣ ـ ان البيوت والمنازل التي تطلق منها النار لأي سبب كان سوف ترد عليها قوى الأمن بالمثل من اسلحتها الاوتوماتيكية وتقصف هذه المنازل بالمدافع[١٢٣]

كلف الرئيس فؤاد شهاب، في اليوم الأول لتوليه الرئاسة، أحد قادة المعارضة لنظام شمعون وهو رشيد كرامي بتأليف الوزارة الجديدة بعد أن لمس ان كفة القوى الوطنية والمناهضة لحكم شمعون المندثر هي الأرجح في الشارع اللبناني رغم ضعف هذه الكفة نفسها في المجلس النيابي اللبناني بسبب التزييف الذي ساد انتخابات (١٩٥٧) كما رأينا، مضافاً لذلك تآمر القوى الأنعزالية ضد شهاب للحيلولة دون توليه الرئاسة لمد عهد شمعون كما سبقت الاشارة. وقد نجح كرامي في تشكيل وزارته ـ التي يبدو انه كان متفقاً عليها بين شهاب وكرامي منذ اجتماعيهما يومي ١٦ و١٧ أيلول الآنفي الذكر ـ الثمانية (تألفت من ثمانية وزراء) خلال يوم واحد، فقد اعلنت هذه التشكيلة في ساعة متأخرة من ليلة ٢٤ أيلول ١٩٥٨ على النحو التالي:

١ ـ رشيد كرامي لرئاسة الوزراء والداخلية والدفاع الوطني.
٢ ـ فيليب تقلا للخارجية والمغتربين .
٣ ـ شارل حلو للاقتصاد الوطني والأنباء .
٤ ـ محمد صفي الدين للتربية الوطنية والصحة العامة .
٥ ـ يوسف السود للعدلية والعمل والشؤون الاجتماعية .
٦ ـ رفيق نجم للمالية .

---

(١٢٣) الحرية، ٢٥ أيلول ١٩٥٨ .

٧ ـ فريد طراد للاشغال العامة والمواصلات والتصميم .
٨ ـ فؤاد النجار للزراعة والبريد والبرق والهاتف[١٢٤]

وقد أكد كرامي في مؤتمر صحفي عقده صباح ٢٥ أيلول ان انسحاب القوات الاجنبية من لبنان مسألة في غاية الاهمية وسيجرى بحث هذه المسألة في أول اجتماع تعقده الوزارة اللبنانية، وقال كرامي ان «الرئيس ايزنهاور ومستر دالاس كانا قد ذكرا ان القوات الامريكية ستنسحب من لبنان عندما تطلب ذلك الحكومة اللبنانية أو عندما تسمح بذلك الأوضاع في لبنان وبذلك فأني واثق ان هذه القوات ستنسحب قريباً». وقال انه سيتقدم يوم السبت ٢٧ أيلول بطلب رسمي لسحب القوات الامريكية من الأراضي اللبنانيـة خاصة وان الرئيس شهاب اكـد ذلك في أول خطاب له بعد توليه الرئاسة واعتبر الانسحاب في مقدمة المطالب[١٢٥] .

لم تنه التشكيلة الوزارية الثورة المضادة للكتائب بل زادت من حدتها خاصة وان رأيها لم يؤخذ بالتشكيلة الوزارية المعلنة، إلا أنه رغم ذلك نجحت قوات الجيش في ١ تشرين الأول ١٩٥٨ في ان توفر الهدوء لبيروت على نحو افضل مما كان عليه في الأيام السابقة لهذا التاريخ، ففتحت المحال التجارية أبوابها وزاولت عملها كالمعتاد، اذ تمكنت هذه القوات من السيطرة ـ ولو مؤقتاً كما سنرى ـ على الموقف في العاصمة اللبنانية منذ صباح اليوم المذكور فأخذت وحداتها تنتشر في المراكز والشوارع الرئيسية وفي المداخل الشرقية للمدينة حيث مركـز ومعقل القوى الانعزاليـة ولا يزال، وفق اسطح العمارات والمنازل المشرفة على مقر عصابات الكتائب والأحياء الشرقية كلها. وقامت قوات الجيش بفتح الطرقات المؤدية الى المصايف في الجبال مبتدئة بطريـق برما، وبدأت بتطهير المناطق الجبليـة كلها من خلايـا عصابات الكتائب وحلفائهم[١٢٦] .

وخلال اليوم نفسه اعلن روبرت ماكلنتوك السفير الامريكي في بيروت في مؤتمر صحفي له ان قوات الاحتلال الأمريكية ستنسحب خلال الأيام القريبة القادمة من لبنان. وقال انه

(١٢٤) الحرية، ٢٥ أيلول ١٩٥٨ .
(١٢٥) الحريه، ٢٦ ايلول ١٩٥٨ .
(١٢٦) الحرية، ٢ تشرين الاول ١٩٥٨ .

سيجتمع بالرئيس شهاب للبحث فى هذا الموضوع(١٢٧).

ويبدو أن اصرار حكومة كرامي علىٰ تهدئة الوضع وايقاف الكتائب وعصاباتها ومن يساندها عند حدها دفع هذه القوىٰ التي تهيمن بشكل ملحوظ علىٰ المجلس النيابى اللبناني الىٰ التهديد بالتصويت ضد حكومة كرامي عند طلبها الثقة، اذ اعتبر هؤلاء هذه الوزارة ضدهم علىٰ الرغم من ان تشكيلها لم يلبّ مطالب الانتفاضة الشعبية وتطلعاتها، بحجة انهم لم يستشاروا في تأليفها. وازاء ذلك صرح رشيد كرامي في ١ تشرين الأول ١٩٥٨ ان حكومته تعتزم حل مجلس النواب اذا استمر النواب في مناوراتهم ضد حكومته واكد ان موضوع حل المجلس النيابي هو قيد البحث الجدي بينه وبين الرئيس شهاب. وكان عادل عسيران رئيس المجلس قد طالب بضرورة تعديل الوزارة وادخال العناصر النيابية فيها لأنه لاحظ ان النواب الشمعونيين يحاولون اسقاط الوزارة. وقد رفض كرامي رفضاً باتاً هذه النصيحة واعلن انه لن يعدل او يزيد عدد الوزراء وانه مستعد لحل المجلس. وقد اثرت هذه التصريحات علىٰ بعض النواب الذين اخذوا يتراجعون عن مواقفهم معلنين عن استعدادهم لمنح حكومة كرامي الثقة. وقد ثبت ان شمعون هو الذي اثار هؤلاء النواب وحرض علىٰ حجب الثقة عن حكومة كرامي الجديدة(١٢٨).

مما لا شك فيه ان جزءاً من اضطراب حبل الامن كان سببه تواطؤ بعض المسؤولين في الحكومة مع الكتائب وحلفائها وعدم اتخاذهم أي اجراءات جدية لمطاردتهم وقطع دابر سوء تصرفهم، خاصة وان التطهير في اجهزة الدولة لم يكن قد بدأ لاستئصال العناصر الشمعونية من المناصب الحساسة، ولا سيما المناصب الثلاثة مدير الامن العام الذى كان يتولاه فؤاد شمعون شقيق كميل شمعون ومدير الشرطة العام صلاح البابيدي وقائد الدرك الزعيم سيمون

---

(١٢٧) الحرية، ٢ تشرين الاول. بدأت عمليات جلاء القوات البريطانية عن الأردن يوم ٢٥ تشرين الاول ١٩٥٨، أي في نفس اليوم الذى انتهت فيه عمليات جلاء الجيش الأمريكي عن لبنان. واستمرت عمليات الجلاء البريطانية خمسة أيام انتهت في الساعة ٢,٣٠ من بعد ظهر يوم الأربعاء المصادف ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٨. وقد نقل أفراد القوات البريطانية الى قبرص ولندن. وكان عدد رجال المظلات الفي جندي. وكان آخر المنسحبين قائد القوات البريطانية البرية وقائد القوات الجوية. وكان الميجر جونس أحد المراقبين الدوليين أحد المشرفين علىٰ عمليه الانسحاب. انظر الحرية، ١٧، ٢٦، ٣٠ تشرين الأول ١٩٥٨.

(١٢٨) الحرية، ٢ تشرين الأول ١٩٥٨.

زوين. وهكذا اتخذت حكومة كرامي قراراً صباح ٢ تشرين الأول ١٩٥٨ باعادة تنظيم قيادات قوىٰ الأمن في لبنان، فقد اصدر رشيد كرامي بوصفه وزيراً للداخلية ثلاثة مراسيم تقضي بتعيين الزعيم يوسف سمعان قائداً عاماً للدرك والمقدم عزيز الأحدب مديـرا عاماً للشرطة والنقيب توفيق جلبي مديـراً للأمن العام. وقد اجتمع الضباط الثلاثة حال صدور مراسيم تعيينهم بالرئيس كرامي ثم تسلموا مناصبهم علىٰ الفور. كما صدرت في الوقت نفسه ثلاثة مراسيم اخرىٰ بوضع المسؤولين الثلاثة السابقين تحت تصرف وزارة الداخلية. وقد صرح مصدر مسؤول بأن هذه التغييرات انما هي خطوة نحو اعادة تنظيم قيادة الامن العام وتطهيرها من العناصر الموالية للعهد السابق(١٢٩) .

ولا شك ان عزل هؤلاء الثلاثة لم يكن كافياً ليستتب الأمن ويعود الىٰ سابق عهده، ولكن الاجراء اتخذ لكي تماشي كوادر شمعون «البائد» مسؤولي العهد «الجديد» لأن اعداداً كبيرة من اعوان شمعون وازلامه كانوا لا يزالون يسرحون ويمرحون ويتسيدون الكثير من المناصب والمسؤوليات ذات الأهمية التي لا يمكن اغفالها، لذا حذر حزب البعث العربى الاشتراكي في بيان له من ان عناصر وعوامل التخريب المشبوهة ما تزال نشيطة وستحاول باستمرار داخل اجهزة الحكم وخارجها ان يبقىٰ لبنان ضمن منطقة النفوذ الاستعماري، ولكي يبقىٰ لبنان في انقسام داخلي يحول بينه وبين الانطلاق بسياسة استقلالية وطنية تؤمن مصالحه وتنسجم مع ارتباط شعبه التاريخي ببقية العرب(١٣٠) .

وقد صح ما توقعه الحزب بعدما استمرت عصابات الجميل باطلاق الرصاص في الشوارع لأرهاب الناس وتطبيق الاضراب اليميني بالقوة، فوقعت مذبحة البرج التي افتعلتها هذه العصابات وراح ضحيتها (٤٠) قتيلاً و (٦٠) جريحاً، وأخذت القنابل تنفجر هنا وهناك وظلت معظم المحال مقفلة بفعل الأرهاب لعدة أيام بعد فترة الاقفال الطويل اثناء الحرب الأهلية التي سبقت تولي شهاب لسلطاته .

ولكن بالرغم من ذلك فان عملية التطهير الآنفة الذكر كانت ضربة قاصمة لشمعون، فبدأ نوع من التنسيق الجديد بين الأخير والسفير الأمريكي ماكلنتوك، فقد اعلنت السفارة

(١٢٩) الحرية، ٣ تشرين الاول ١٩٥٨، وانظر QuBain, op. cit, p. 162

(١٣٠) نضال البعث، جـ ٨، ص ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

الأمريكية في بيروت بشكل استفزازي ان ماكلنتوك غادر بيروت صباح ٢ تشرين الأول بطائرة هيليوكوبتر للاجتماع بكميل شمعون، وقد تم الاجتماع فعلاً في مكان لم تشأ السفارة ان تعلن عنه[١٣١].

وكان هذا التدخل الفاضح من السفير في شؤون لبنان الداخلية بحجة الوساطة مثار سخط واحتجاج القوى الوطنية اللبنانية. وقد استنكر الرئيس شهاب ايضاً هذا التدخل ودعا السفير الى ترك موضوع «الوساطة» وان يترك للحكومة معالجة الموقف. وصرحت مصادر رسمية بأن الحكومة اللبنانية رفضت هذه الوساطة رفضاً باتاً. وكان ماكلنتوك قد عقد فضلاً عن زيارته لشمعون عدة اجتماعات مع بعض المسؤولين اللبنانيين، فقد عقد اجتماعاً في داره حضره عادل عسيران رئيس المجلس النيابي وفيليب تقلا وزير الخارجية وبعض الساسة المعارضين والمحايدين من بينهم غسان تويني، تقي الدين الصلح، بيير الجميل، موريس الحميل، ووليم حاوي. وعلم ان السفير الأمريكي تحدث في الاجتماع عن الأزمة اللبنانية وعرض في ختام حديثه الحلول التالية للخروج من هذه الأزمة:

١ ـ تعديل وزارة رشيد كرامي بحيث تضم اليها بعض العناصر التي تمثل العهد السابق.
٢ ـ زيادة عدد اعضاء المجلس النيابي الى ٨٨ نائباً.
٣ ـ منح الثقة لحكومة رشيد كرامي.

وقالت المصادر المطّلعة ان بيير الجميل عرض وجهة نظر حزب الكتائب وقال انها تقوم على مبدأ «لا غالب ولا مغلوب»، واقترح بعض الحضور تسوية جديدة للازمة على أساس تعديل الوزارة والبحث بصورة جدية عن الصحفي الكتائبي «المختطف» فؤاد حداد. ووعد تقلا وزير الخارجية بدراسة هذه الاقتراحات بعد التشاور مع زملائه الوزراء[١٣٢].

ولما لم تلق مقترحات الجميل اذنا صاغية لدى كرامي توتر الجو في بيروت من جديد مساء ٤ تشرين الأول ١٩٥٨ عندما احرقت عصابات الكتائب سيارة لنقل البترول قرب بيروت. وقد زادت حدة الثورة المضادة عندما قامت هذه العصابات بخطف بعض افراد القوات

(١٣١) الحرية، ٣ تشرين الأول ١٩٥٨.
(١٣٢) المصدر نفسه.

الشعبية التي ردت بالمثل فاختطفت بعض افراد الكتائب. وقد اعتدت عصابات الكتائب علىٰ سيارة للمراقبين الدوليين كانت تسير علىٰ طريق طرابلس ـ بيروت. فضلاً عن اعتقال هذه العصابات لبعض عاملات شركة الريجي في ضواحي بيروت واعتدوا عليهن بالضرب وشوهوا وجوههن واحرقوا سيارتهن في ضاحية الحديث. وقد دعا كرامي الىٰ ضبط النفس والأعصاب. إلا أن تمادي الكتائب دفعه الىٰ التصريح بأن سياسة حكومته في معالجة الموقف الراهن في لبنان تقوم علىٰ استعمال الشدة للقضاء علىٰ عناصر الشغب مع الحكمة لعله يمكن الوصول الىٰ نتيجة تسير بعدها الأمور في نصابها الطبيعي. وان النية متجهة الىٰ تطبيق تدابير مشددة لفرض هيبة الدولة واحلال الأمن(١٣٣).

واعلنت الجبهة الوطنية في لبنان من جهة أخرىٰ رفضها لاجراء أي تعديل وزاري أو زيادة عدد الوزراء في الوقت الحاضر. وقد جاء ذلك في بيان لأقطاب الجبهة: صائب سلام، رشيد كرامي، عبدالله اليافي، حسين العويني، كمال جنبلاط لدىٰ اجتماعهم يوم ٥ تشرين الأول في بيت سلام. ولكن وكالة اليونايتد بريس الأمريكية اشارت رغم ذلك الى «احتمال التوصل الى تسوية للموقف المتأزم خلال اليومين القادمين». واكدت ان عدة اتصالات قد جرت بين ممثل الحكومة وحزب الكتائب وانه تقرر عقد اجتماع في منزل الرئيس شهاب يحضره كرامي رئيس الوزراء وصائب سلام وبيير الجميل زعيم الكتائب(١٣٤).

ومن جهة أخرىٰ كشف الصحفي الهندي المعروف كرانجيا في مقال له بصحيفة (بلتنر) بعض الحقائق عن التدخل الاستعماري في شؤون لبنان الداخلية حين قال ان واشنطن ولندن تقدمان كل مساعدة ممكنة لمختلف الهيئات الرجعية المتطرفة في لبنان ومنها الكتائب لاثارة حرب أهلية. وأضاف ان الحكومة اللبنانية قد صادرت كميات كبيرة من الاسلحة (البنادق والقنابل اليدوية والذخيرة وغيرها من المعدات الحربية) التي وصلت علىٰ احدىٰ طائرات الخطوط الجوية السويسرية باسم الرئيس السابق شمعون، كما وصلت شحنات من الأسلحة للملحق العسكري البريطاني وبعض الهيئات الامريكية في بيروت. ونشرت صحيفة (بلتنر) وثيقة تثبت وصول (٣٣٩) صندوقاً للذخيرة للملحق العسكري البريطاني يوم ١١ تموز

(١٣٣) الحرية، ٥ تشرين الاول ١٩٥٨ .

(١٣٤) الحرية، ٦ تشرين الاول ١٩٥٨ .

١٩٥٨. وهذه الوثيقة تؤكد التدخل الاجنبي المباشر في شؤون لبنان. كما اشار كرانجيا الى ان القوات الأمريكية الموجودة في لبنان تعتزم تسليم معظم اسلحتها لعصابات الكتائب(١٣٥).

وقد صرح يوسف السود وزير العدل اللبناني تعليقاً على الأحداث التي افتعلتها عصابات الكتائب قائلاً: «لا شك ان الحالة في لبنان مفتعلة وان هناك أيد غربية تلعب به»(١٣٦).

ورغبة في انهاء الأزمة ومعالجتها على وجه السرعة عقد اجتماع في منزل الرئيس شهاب يوم ٦ تشرين اول ١٩٥٨ حضره رشيد كرامي وعبدالله اليافي وصائب سلام واحمد الاسعد وصبري حمادة وكمال جنبلاط ورينيه معوض. واقر الحاضرون الدعوة الى اجتماع يعقد خلال يومين لتهدئة الخواطر على ان يسبقه اجتماع آخر خاص يعقده الرئيس شهاب مع جميع النواب اللبنانيين. وعلم أن اجتماع تهدئة الخواطر سيضم زعماء لبنان من المسيحيين والمسلمين. وقد صرح عبدالله اليافي ان الاجتماعات التي ستعقد في منزل الرئيس شهاب لا تهدف مطلقاً الى أي بحث في تعديل الوزارة أو زيادة اعضائها وانما هي تمهيد للمصالحة الوطنية(١٣٧).

وصرحت مصادر جبهة الاتحاد الوطني بأن الرئيس شهاب قال لاقطاب الجبهة عند اجتماعه بهم يوم ٦ تشرين اول انه يؤمن بأن هناك ايد بعيدة عن لبنان تحاول خلق الأزمة وزيادة التوتر، وعلى المواطنين ان يحذروا هذه المحاولات(١٣٨).

واشارت اخبار اليوم التالي ٧ تشرين اول ان عصابات الكتائب وشمعون ما تزال مستمرة في خلق جو من التوتر والارهاب في العاصمة اللبنانية، ولكن الشعب اللبناني منصرف تماماً الى اعماله لا يبالي بحوادث الشغب هذه تحرسه قوات الجيش. وقد عمد أنصار شمعون في هذا اليوم الى اطلاق الرصاص وتفجير الديناميت، كما وقع اصطدام مسلح بين قوات الجيش وبعض افراد من الكتائب كانوا يحاولون منع السيارات من المرور في شارع بشارة الخوري واسفر الصدام عن عشرة جرحى من بين الكتائب وافراد آخرين. وفي اليوم نفسه زرعت

(١٣٥) المصدر نفسه.

(١٣٦) الحرية، ٧ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٣٧) المصدر نفسه.

(١٣٨) الحرية، ٨ تشرين الاول ١٩٥٨.

عصابات الكتائب طريق الجبال المؤدية الىٰ بيروت بالمسامير فتعطلت اغلب السيارات عن السير. وعمدت تلك العصابات الىٰ اشعال النار في اطارات السيارات ووضعتها في وسط الطرقات لعرقلة السير. وقد جنحت الىٰ هاتين الوسيلتين بعد ان عجزت عن اغلاق الطرق المؤدية الى بيروت(١٣٩).

وفي مقابلة صحفية مع بيير الجميل بقصد افتعال الاحداث الطائفية بعد بدء عهد شهاب وكرامي، قال زعيم الكتائب من بين ما قال: «اننا ضد سياسة جمال عبدالناصر، ونحن نؤمن بالتعاون مع الدول الغربية... لا يمكن الوصول الى حياد حقيقي. الحياد الآن معناه الشيوعية. وقد أراد عبدالناصر ان يضم لبنان الى الجمهورية العربية «المتحدة» كما فعل مع سوريا ولكن هذا لن يكون. ولذلك فاننا أيدنا كميل شمعون»... وتأكد من خلال حديث الجميل انه ضد الوحدة العربية، ضد تأميم قناة السويس. والشيء الوحيد الذي لم يكن ضده هو مبدأ ايزنهاور ... ثبت ان من بين أهداف الفتنة التي افتعلها وعصاباته الانتقام لسقوط شمعون... لسقوط من فشل في محاربة القومية العربية(١٤٠).

وهكذا وقف حزب الكتائب الىٰ جانب شمعون، وسكت عن التدخل الأمريكي في لبنان، وساهم الىٰ حد بعيد في كافة العمليات المسلحة التي جرت ضد الحركة الوطنية اللبنانية، ودون ان يعترض علىٰ مواقف الانتقاص من سيادة لبنان وحريته واستقلاله. ومنذ ذلك الوقت بدأ حزب الكتائب يتحول شيئاً فشيئاً الىٰ حركة سياسية تستثمر كل شيء دون تورع لتمتد علىٰ الصعيد اللبناني. فاستمرأ الوقوف بوجه محاولات التغيير مع تعاظم النزعة الفاشستية في أهدافه السياسية. وكانت هذه النزعة تطفو الىٰ السطح وتتأكد باستمرار مع ازدياد الوعي السياسي الوطني ومع امتداد القوىٰ الوطنيـة وانتشارها بين قطاعات واسعة من الجماهير اللبنانيـة. وقد دفع هذا الوضع الناشيء الكتائب الىٰ ان تكشف أكثر فأكثر عن نزعتها الأرهابية(١٤١) الأمر الذى دفع البطريرك الماروني المعوشي وغيره من زعماء لبنان من المسيحيين ان يستنكروا الفتنة الطائفية التى أججتها الكتائب وغيرها من القوىٰ الطائفية الانعزالية

---

(١٣٩) المصدر نفسه .

(١٤٠) موسى صبرى، مخبر صحفي، ص ص ٢٣٩ ـ ٢٥٩ .

(١٤١) الطيب عزيز، عن التسوية والتغيير وحرب الكتائب ص ٢٨ .

مؤكدين انها من فعل المستعمرين وان مصيرها الفشل. واكد المعوشي ان البعض ممن يتصور ان الدول الغربية يمكن ان نساعدهم مضلل في فهمه، وان الاستعمار الغربي يعمل لأثارة الفتنة الطائفية(١٤٢) وهكذا لم يبق أمام الكتائب إلا ان تلعب الورقة الأخيرة بهدف تأزيم الموقف وابقاء القوات الأمريكية اطول فترة ممكنة بحجة عدم استتباب الأمن بزعم ان هدف هذه القوات المحتلة هو المحافظة على الأمن الذى كانت تقصد به، طبعاً أمن النظام اللبناني ذو التركيبة الرأسمالية الطفيلية، وأمن السياسيين التقليديين والاقطاع السياسي المستفيدين من ذلك .

ويبدو ان جرائم العصابات الشمعونية الكتائبية لم تشف غليل شمعون ـ الجميل، فحاولت مجموعة من عصابات الكتائب يوم ٧ تشرين اول ١٩٥٨ حصار القرية التي يقيم فيها الرئيس شهاب في محاولة ذات عدة وجوه كما يبدو، أولها تأزيم الموقف ورفع درجة توتره لاستثماره، وثانيها عرض للعضلات والقوة الهدف منه التأكيد على ان الكتائب لا تزال قوية لدرجة كبيرة حتى انها تجرؤ على حصار بيت رئيس الدولة. ولا يستبعد ان ثالثها استهدف استخدام الحصار كورقة للضغط على الرئيس شهاب لتلبية مطالب الكتائب أو بعضها على أقل تقدير، فضلاً عن الرغبة في اثبات «حقيقة» مفادها ان لا هدوء بدون أخذ رأي الكتائب ولا أمن ولا اطمئنان دون ترضية زعيمها بيير الجميل، خاصة وان اجتماع المصالحة أو تهدئة الخواطر على الأبواب علّ ذلك التأزيم للموقف يكسب الكتائب موقعاً اقوى وغنيمة وزارية أكبر اذا ما تقرر حل الوزارة واحلال تشكيلة جديدة محلها. ولكن سلطات الأمن احبطت هذه المحاولة. وقد أقام رجال العصابات الكتائبية المتاريس من الأحجار الضخمة وأخذوا يرجمون السيارات التي كانت تحاول العبور وأقاموا ستاراً من الدخان. وقد افتحمت سلطات الأمن اللبنانيــة بعرباتها المصفحة هذا الحصار الكتائبي وفتحت نيرانها على الكتائبيــين فولوا الأدبار(١٤٣) .

وازاء هذا التطور غير المتوقع في الأحداث وجنوحها نحو التأزم الشديـــد، دعا مجلس الوزراء اللبناني ظهر يوم الأربعاء ٨ تشرين اول الى اجتماع عاجل برئاسة فؤاد شهاب . وقد عقد الاجتماع في القصر الجمهوري ببيروت ودار البحث فيه حول التدابير اللازمة لحفظ الأمن

(١٤٢) موسى صبرى، مصدر سابق، ص ٢٨٩ .

(١٤٣) الحرية، ٨ تشرين الاول ١٩٥٨ .

في لبنان واستعمال الشدة لقمع الاضطرابات. وبحث مجلس الوزراء ايضاً موضوع تحديد جلسة الثقة بالوزارة والمصالحة الوطنية، والحالة الراهنة في لبنان علىٰ وجه العموم. وقد دام الاجتماع ساعتين. اما موضوع الوساطات التي كانت تجري لحل الأزمة وغير ذلك فقد ترك مجلس الوزراء امر بحثها للرئيس شهاب وكرامي واتخاذ الاجراءات اللازمة لعلاج الوضع القائم في لبنان. وبعد انتهاء الاجتماع سئل كرامي عما اذا كان المجلس قد وضع حداً لحالة الفوضى التي تسود بيروت، فأجاب بأنه لا توجد حالة فوضى بل هو غليان من فئة معروفة لأسباب معروفة .

وقد أصاب تأزم الموقف بشكل عنيف من جديد فكرة عقد اجتماع للمصالحة الوطنية بشيء من الركود المؤقت لحين هدوء الأحوال واستتباب الأمور في البلاد، لذا تقرر تأجيل اجتماع تهدئة الخواطر الذي كان مقرراً عقده برئاسة شهاب الخميس أو الجمعة ٩ ، ١٠ تشرين اول ١٩٥٨ الىٰ موعد يحدد فيما بعد ريثما يفرغ الرئيس شهاب من اتصالاته الشخصية بشأن دراسة الحالة في البلاد .

وقد صرح شارل حلو وزير الأنباء اللبناني بأن شهاب ما زال يبدي جهوداً كبيرة للوصول الىٰ حل للأزمة. واضاف انه جرت اتصالات مع عدد من اعضاء المجلس النيابي علىٰ نطاق واسع لتسوية الأزمة القائمة الآن في لبنان . وأكدت المصادر المتصلة بعادل عسيران رئيس المجلس النيابي انه اقترح علىٰ رشيد كرامي حل مجلس النواب واعلان حالة الطوارىء في حالة عدم التوصل الى حل يحفظ للحكومة هيبتها بحل الأزمة(١٤٤).

وما ان شمّت الكتائب رائحة توجه شهاب وكرامي نحو اشراكها في الحكم وحل الوزارة القائمة علىٰ الرغم من ان شيئاً رسمياً لم يصدر، حتى بدأت تخفف من غلوائها وارهابها واستمر الحال علىٰ ذلك الهدوء النسبي ستة أيام امتدت بين ٩ ـ ١٥ تشرين اول، تخللها اجتماع بين رشيد كرامي وبيير الجميل عقد يوم ١٠ تشرين أول في مكتب كرامي واستغرق ساعتين. وخلال المقابلة ابدىٰ الجميل استعداده للمشاركة في وزارة كرامي. وفي اليوم التالي كتب في جريدته «العمل» مؤكداً تبنيه لسياسة «لا غالب ولا مغلوب» داعياً اللبنانيين الىٰ دعم الرئيس شهاب وفي اليوم نفسه (١١ تشرين اول) التقى الجميل. بجنبلاط* . وفي هذه الأثناء كان

(١٤٤) الحرية، ٩ تشرين الاول ١٩٥٨ .

* QuBain, op. cit, p. 160

شهاب يوالي اتصالاته مع النواب اللبنانيين والتصريحات اخذت تتوالىٰ يوم ١٤ تشرين أول عن ان الأزمة الوزارية ستحل خلال ٤٨ ساعة. وفي اليوم نفسه استقبل رشيد كرامي عدة نواب لبحث المشكلة الوزارية وترددت الانباء بأن هناك بوادر للاتفاق علىٰ تعديل الوزارة. وقد اقترح المجتمعون علىٰ كرامي، كحل للازمة، اشراك موريس الجميل من الكتاب وجورج الراوي احد نواب كتلة البقاع ومنير ابو فاضل. وقابل بيير الجميل الرئيس شهاب بمنزله في جونيه في اليوم نفسه، وطالب بتعديل الوزارة وزيادة عدد أعضائها الىٰ أربعة عشر وزيراً. وعادت المصادر السياسية المطلعة في بيروت الىٰ التأكيد علىٰ ان الازمة ستحل خلال الثماني والأربعين ساعة التالية علىٰ أساس زيادة عدد الوزراء الىٰ عشرة أو اثنى عشر وزيراً على ان لا يشترك فيها أنصار كميل شمعون(١٤٥) .

ولكن تكهنات المصادر السياسية في بيروت لم تكن دقيقة كل الدقة فهي علىٰ الرغم من انها كانت صادقة في قولها ان الازمة ستحل خلال ٤٨ ساعة اعتباراً من ١٤ تشرين اول إلا ان عدد وزراء الوزارة الجديدة لم يكن صحيحاً علىٰ الاطلاق، فقد كان مجرد حدس أو بالأحرىٰ تكهن.

ومما يجدر ذكره ان جبهة الاتحاد الوطني عقدت عدة اجتماعات يومي ١٣ و ١٤ تشرين اول للاتفاق علىٰ اسماء المرشحين للاشتراك في الوزارة الجديدة. وقد طلب بعض النواب ليلة ١٤ تشرين اول ١٩٥٨ من الرئيس شهاب حل مجلس النواب اذا ظل النواب المعارضون للحكومة القائمة (حكومة كرامي الثمانية) عقبة في طريق تشكيل حكومة جديدة. وعلمت وكالة انباء الشرق الأوسط ان الرئيس شهاب رفض حل المجلس النيابي لأنه لن يتمكن من اجراء انتخابات نيابية في خلال شهرين، ورفض الرئيس شهاب ايضا فكرة تعديل الدستور(١٤٦) .

---

(١٤٥) الحرية، ١٥ تشرين الاول ١٩٥٨ .

(١٤٦) جريدة «الزمان» البغدادية، ١٥ تشرين الاول ١٩٥٨ .

وهكذا بدا لشهاب وكرامي ان الازمة لن تحل(١٤٧) وان ارهاب وعصابات الكتائب وشمعون ومن يساندهما لن يتوقف إلا باسناد بعض الحقائب الوزارية لها أو للكتائب على أقل تقدير بعد ان تشبث كل من شهاب وكرامي بموقفهما الرافض لاشراك أي شمعوني في الوزارة الجديدة وهذا ما صار فعلا .

استقبل الرئيس فؤاد شهاب رئيس الجمهورية اللبنانية مساء ١٤ تشرين اول ١٩٥٨ في منزله بضاحية جونية اعضاء الوزارة اللبنانية الثمانية المقر استقالتها برئاسة رشيد كرامي. وتم في هذا الاجتماع الذى عقد بدعوة من شهاب تقديم استقالة وزارة كرامي الأولى في عهد شهاب. وقد جاء في نص الاستقالة :

«نرفع استقالتنا لكم لتقرروا ما ترونه مناسباً في هذه الظروف الحرجة لتنقذوا الوطن من الشرور التي تحيط به وندعو الله ان يوفقكم لما فيه خير لبنان».

وقد قبل الرئيس شهاب الاستقالة فوراً وكلفه بتشكيل وزارة جديدة كان متفقاً عليها بتفاصيلها، لذا صدرت مراسيم تشكيل الوزارة الجديدة المؤلفة من اربعة وزراء فقط ـ لم يسبق لاثنين منهما (ريمون اده وبيير الجميل) الاستيزار قبل ذلك* ـ في الساعة الثانية والنصف من صباح ١٥ تشرين اول بالشكل التالي:

١ ـ رشيد كرامي: للرئاسة والدفاع والمالية والاقتصاد والانباء.
٢ ـ حسين العويني: للخارجية والعدل والتخطيط .
٣ ـ ريمون اده: للداخلية والشؤون الاجتماعية والبرق والبرد والهاتف.
٤ ـ بيير الجميل: للاشغال العامة والصحة والتربية والزراعة .

---

(١٤٧) صرح كمال جنبلاط بعد انتهاء الازمة اللبنانية وفي محاضرة له قائلاً :
«ان قوى الامن كانت تستطيع ان تضع حداً للفتنة الطائفية التي بدأت تذر قرنها في العاصمة دون سواها من المناطق اللبنانيـة كافة، وذلك بواسطة مائتين أو ثلثمائة جندي وثلاث مصفحات لا اكثر، وبعزل المنطقتين البيروتيتين احداهما عن الاخرى بواسطة حاجز مسلح. وذلك باعلان منع التجول في الشارع الرئيسي الكبير الذي يفصل بين المنطقتين». وأكد «انه كان بالامكان تفادي الفتنة لو نظمت فوراً قوى المقاومة الشعبية واخضعت لنظام وقيادات معروفة متناسقة». انظر كمال جنبلاط في مجرى السياسة اللبنانية، ص ص ١٤ ـ ١٥ .

* QuBain, op. cit, P. 161

وعقد رشيد كرامي اول اجتماع لوزارته الجديدة في الساعة العاشرة من صباح ١٥ تشرين الأول. واعلن في اعقاب الاجتماع بأن سياسة حكومته الجديدة تقوم علىٰ الحياد والصداقة. وان حكومته تأمل ان تعيد الهدوء سريعاً الىٰ البلاد. وقد قوبل تأليف الوزارة الجديدة ـ علىٰ حد قول وكالة الأنباء ـ بالارتياح في جميع الأوساط. وعلّق السيد صائب سلام قطب جبهة الاتحاد الوطني علىٰ تشكيل الوزارة الجديدة بقوله: «اعتقد ان كل اتفاق اليوم علىٰ وزارة تنهي حالة التوتر القائمة في البلاد يجب ان نباركـه وانني ادعو الجميع الىٰ الخروج من موقف الحذر والتشكيك الىٰ ميدان التعاون الايجابي راجياً لهذه الوزارة التوفيق في مهمتها واعادة البلاد الىٰ الحالة الطبيعية التي ينشدها كل لبناني».

اما بيير الجميل فقد صرح ـ بعد ان اصدر أوامره الىٰ اذاعة الكتائب التى كانت تذيع أثناء الحرب الأهلية باسم «صوت لبنان» السرية بالتوقف بعد ساعات من اعلان التشكيلة الوزارية الجديدة «وزارة الانقاذ»(١٤٨) ـ قائلاً: «ان الاضراب الذى كان حزب الكتائب قد دعا اليه يعتبر لاغيا بعد صدور المراسيم بتشكيل الوزارة الجديدة». وبدأت الأوضاع تعود الىٰ حالتها الطبيعية بعد اضطرابات استمرت ثلاثة اسابيع اشعلت فتيلها الكتائب(١٤٩).

وقد اعتبر حزب البعث العربي الاشتراكي في بيان له انهاء الأزمة بهذا التشكل دليلاً علىٰ عدم تقدير الانتفاضة الثورية ضد العهد الشمعوني، وعدم تجاوز عقلية الحكم التي أدت الىٰ الثورة ... وختم الحزب بيانه بالقول: ان شعار «لا غالب ولا مغلوب» شعار طائفي استغل أسوأ استغلال(١٥٠). أما جنبلاط فقد أدان هذا «الحل المشؤوم» الذى كرس الطائفية وسمّىٰ هذه الوزارة الرباعية أو «النصف بنصف» بـ «قائمقامية النصارى وقائمقامية الإسلام» تذكيراً بأحداث ١٨٤٠ الطائفية في لبنان وتقسيمه طائفياً(١٥١).

وهكذا يبدو واضحاً ان الثورة المضادة عززت مواقع القوىٰ الانعزالية في لبنان. وفوتت، بفضل دعم الجيش الأمريكي ماديا ومعنوياً، علىٰ الثوار تحقيق أمانيهم ووضع بعض تطلعاتهم

---

(١٤٨) الزمان، ١٧ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٤٩) جريدة «الجمهورية» البغدادية، ١٦ تشرين الاول ١٩٥٨، جريدة «اليقظة» البغدادية، ١٦ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٥٠) نضال البعث، جـ ٨، ص ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(١٥١) كمال جنبلاط في مجرىٰ السياسة اللبنانية، ص ص ١٢ ـ ١٣.

موضع التنفيذ. بل لا يمكن ان ننسى بأن دخول الجيش الأمريكي زائداً الثورة المضادة أبعد بشكل جدي ومخطط له الانتفاضة الشعبية عن تحقيق طموحاتها ورسخت من مواقع القوى الانعزالية في لبنان. وفوتت، بفضل دعم الجيش الامريكي ماديا ومعنوياً، على الثوار تحقيق أمانيهم ووضع بعض تطلعاتهم موضع التنفيذ. بل لا يمكن ان ننسى بأن دخول الجيش الأمريكي زائداً الثورة المضادة أبعد بشكل جدي ومخطط له الانتفاضة الشعبية عن تحقيق طموحاتها ورسخت من مواقع القوى الانعزالية اليمينية في لبنان ودورها في «اقرار الهدوء» لما فيه بعد موجة ارهاب قادتها ضد القوى الوطنية استمرت ثلاثة أسابيع.

وقد ترتب على الانتفاضة الشعبيــة والثورة المضادة لها سقوط عدة آلاف من القتلى والجرحى، وشلل لحركة التجارة والصناعة، وتوقف لحركة الاصطياف والسياحة وما تشكله من مورد رئيسي للاقتصاد اللبناني، وبذلك منيت البلاد بخسائر فادحة تقدر بمئات الملايين من الليرات اللبنانية(١٥٢).

اجتمع الرئيس فؤاد شهاب بالوزارة اللبنانية الجديدة للمرة الأولى يوم ١٦ تشرين اول ١٩٥٨ لوضع الصيغة الأولى للبيان الذي تقرر ان تتقدم به الحكومة الى مجلس النواب اللبناني لنيل الثقة. وقد اشارت انباء بيروت الى عدم وقوع أي حادثة عنف منذ تشكيل الوزارة الائتلافية بعد ان اخذت الامور تعود الى مجاريها في الاحياء التجارية. وقد استقبل صائب سلام قطب المعارضة وفداً يمثل الكتائبيين الذين كانوا يعارضون حكومة كرامي المستقيلة(١٥٣).

وقد تقرر التصويت بالثقة على «وزارة الانقاذ» يوم الجمعة ١٧ تشرين أول ١٩٥٨. وقد دعا عادل عسيران رئيس مجلس النواب اعضاء المجلس الى الاجتماع هذا اليوم. وقد حازت حكومة رشيد كرامي على ثقة مجلس النواب بالاجماع. وحضر الجلسة (٥٠) نائباً وتغيب (١٦)(١٥٤). واستقبل النواب بيان الحكومة الذي القاه كرامي موضحاً فيه سياسة وزارته

---

(١٥٢) انظر الحسني، الوزارات، جـ ١٠، ص ٢٩٠.

(١٥٣) الحرية، ١٧ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٥٤) من الغياب بسبب وجودهم خارج لبنان (سامي الصلح، حميد فرنجية، شارل مالك، فوزي الحمصي، كامل الاسعد، اميل البستاني، ايليا ابو جودة، فيليب تقلا). اما الغائب بسبب المرض وموجود في لبنان فهو النائب شفيق مرتضى. اما النواب الموجودين داخل لبنان ولم يحضروا الجلسة ولم يقدموا عذراً فهم: «جوزيف سكاف، مجيد أرسلان، موريس زوين، محمود عمار، شفيق نصيف، اسد الاشقر، قحطان حمادة». انظر الزمان، ٨ تشرين الأول ١٩٥٨.

الرباعية في الميدانين الداخلي والخارجي بالتصفيق والحماس (١٥٥).

واثر تشكيل الوزارة بدأت بيروت تستعيد هدوءها الطبيعي فخيم الاستقرار ونشطت الحركة التجارية، واخذ الاهالي يتبادلون التهاني والزيارات بعد ستة اشهر من التوتر واعمال العنف بعدما أزيل ما كان متبقياً في العاصمة اللبنانية من متاريس. وقد تلقى الرئيس شهاب ورئيس وزرائه رشيد كرامي سيلاً من «برقيات التهاني» لنجاحهما في حل الأزمة. ولم تتعرض المدن اللبنانية أو احياء بيروت لأي حادث يستحق الذكر، خاصة بعد ان نشطت قوى الأمن للتأكد من هدوء الحالة والقضاء على أية محاولة للعبث بالامن (١٥٦) وأفادت التقارير الواردة الى وزارة الداخلية اللبنانية من جميع المراكز الادارية ان الامن قد استتب تماماً في البلاد ولم تقع أي حوادث مخلة بالأمن في غضون الأيام الأخيرة اعتباراً من ١٥ تشرين اول ١٩٥٨ (١٥٧).

واكد كرامي في خطاب له بعد أربعة أيام من تشكيل وزارته الجديدة ان لبنان يطير بجناحيه المسلم والمسيحي معيداً للأذهان كلمات رياض الصلح عن الميثاق الوطني اللبناني لعام ١٩٤٣. وأكد كرامي مرة اخرى ان ازمة لبنان كانت مفتعلة وان الشعب اللبناني غريب عنها وكأنه أراد بذلك ان يبرئ الكتائب من فعلتها وارهابها. ودعا كرامي الى تطهير لبنان من عناصر الفتنة والدس ليسلم الشعب (١٥٨) وكأن كرامي بتبرئته للكتائب اراد أن يرد الفضل لبيير الجميل الذي صرح قبل ذلك الى مراسل مجلة نيوزويك الامريكية قائلاً: «ان كرامي يخدم وطنه. ويبذل اقصى ما في وسعه لخير الجميع ..» (١٥٩).

بوزارة رشيد كرامي الرباعية عن أمله في ان تتمكن جامعة الدول العربية من تحقيق التعاون الصادق المستمر بين العرب. كما اعرب عن تقديره لشخص البطريرك الماروني المعوشي الذي وصفه بأنه «سيظل مرجعا ودعامة لاستقلال لبنان والحكم والعدل بين اللبنانيين عامة والموارنة خاصة» (١٦٠)، على الرغم من أن الجميل ضرب عند بدء ثورته المضادة بنصائح المعوشي، بعدم اشعال نار الفتنة الطائفية، عرض الحائط.

---

(١٥٥) الزمان، ١٧، ١٨ تشرين الاول ١٩٥٨؛ اليقظة، ١٧، ١٨ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٥٦) الحرية، ١٧ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٥٧) الحرية، ٢٠ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٥٨) المصدر نفسه.

(١٥٩) المصدر نفسه.

(١٦٠) الحرية، ٢٢ تشرين الاول ١٩٥٨.

ويبدو ان هدوء الحالة لم يرق للبعض خاصة لشمعون ومن ورائه المخابرات خاصة الأمريكية. فقد اكتشفت السلطات اللبنانية يوم ١٩ تشرين أول ١٩٥٨ حركة تخريبية تغذيها بعض السفارات والأيدي الأجنبية بافتعال الحوادث بقصد القضاء على الوحدة الوطنية، التي سادت مختلف الهيئات بعد تأليف الحكومة الجديدة. وتبين ان الخطة تهدف الى القيام بعدة حوادث اغتيال في الجبل لكي تندلع الفتنة الطائفية من جديد. وقد اتخذت الحكومة اللبنانية التدابير اللازمة لمكافحة هذه الحركات والضرب بشدة على أيدي كل من حاول ان يقوم بدور في مثل هذه الأعمال الاجرامية.(١٦١)

ثم لم تلبث الحكومة اللبنانية ومعها «جبهة الاتحاد الوطني» ان تعرضتا الى انتكاسة في المجلس النيابي حين هزم مرشحها لرئاسة المجلس صبري حمادة رغم تنازل كاظم الخليل عن ترشيح نفسه لصالح حمادة فقد فاز عادل عسيران يوم ٢١ تشرين اول ١٩٥٨ بانتخابات الرئاسة للمجلس النيابي في دورته الجديدة بأغلبية ٣١ صوتاً مقابل ٢٦ صوتاً أحرزها مرشح الجبهة(١٦٢) .

ورغم هدوء الوضع في بيروت بشكل ملموس فقد أثر ريمون اده وزير الداخلية اللبناني استمرار نظام حظر التجول رغم تقليص ساعاته الى ان يسود الأمن في انحاء بيروت تماماً ويختفي ظهور الافراد المسلحين في المدينة على الرغم من انه كان من المقرر الغاء حظر التجول

(١٦١) الحرية، ٢٠ تشرين الاول ١٩٥٨؛ اليقظة، ٢٠ تشرين الاول ١٩٥٨ .

(١٦٢) الحرية، ٢٠ ، ٢٢ تشرين الاول ١٩٥٨ .

نهائياً يوم ٢٥ تشرين أول ١٩٥٨ وهو اليوم الذي انسحب فيه آخر جندي أمريكي من لبنان نهائياً (١٦٣).

وبعد ان انسحبت القوات الأمريكية من لبنان، قرر مؤتمر الأحزاب والشخصيات والهيئات الوطنية في اليوم نفسه مطالبة الحكومة بالغاء المراسيم التعسفية التي كانت قد اتخذت لحل الأحزاب، واعادة النظر في اجهزة الدولة وقانون الانتخابات. كما طالب المؤتمر باطلاق الحريات الدستورية التي قيدتها الاساليب الجائرة في عهد شمعون، والعمل على اعادة الاستقرار والهدوء بعد المؤامرات والدسائس الأجنبية وعدم السماح للأجانب بالاشتغال بالسياسة واتخاذهم لبنان وكراً للعمل ضد سلامة الاقطار العربية الشقيقة. وطالب المؤتمر كذلك

(١٦٣) استمر رحيل القوات الامريكية ابتداءاً من يوم ١٣ آب ١٩٥٨ جواً وبحراً، ففي أواخر أيلول وأوائل تشرين الأول ١٩٥٨ غادر (٦٠٧) جندى امريكي بطريق الجو. وفي ٥ تشرين الاول غادر لبنان الجنرال سكوت قائد فرقة المشاة بالاسطول السادس/الاحتياط الثانية واركان حربه عائداً الى الولايات المتحدة. وتواكب رحيل الدخلاء يومياً عائدين الى قواعدهم في المانيا الغربية وفرنسا. وكان عددهم في ٧ تشرين اول (٥٩٠٠) رجل بعد ان كان يتراوح بين (١٤ ـ ١٥) الف جندي وهو اعلى رقم وصلته هذه القوات في لبنان. وقد بقي حتى ٧ تشرين اول ايضاً (٧٥) دبابة فضلاً عن بعض طائرات الهليوكوبتر. وكانت وزارة الخارجية الأمريكية قد اعلنت ليلة ٨ تشرين اول انه سيتم سحب جميع القوات الامريكية من لبنان في موعد لا يتجاوز ٣١ تشرين اول ١٩٥٨، إن لم تحدث «تطورات غير متوقعة تحول دون ذلك». واكد ناطق الخارجية ان دافع هذا القرار تحسن الاوضاع واستقرارها في الشرق الأوسط وكان جنود المظلات الامريكان ينسحبون اعتباراً من منتصف تشرين اول ١٩٥٨ ولعدة أيام بمعدل (٤٠٠) جندي يومياً. وغادرت سفينة النقل الامريكية بلاكسفورد ميناء بيروت يوم ١٩ تشرين اول ١٩٥٨ وهي تحمل على ظهرها ثلاثة آلاف جندي من مشاة البحرية الأمريكية. ثم رست في ٢٢ تشرين اول اربع سفن تابعة للاسطول السادس وجرى شحنها بمعدات القوات الأمريكية التي رحلت قبل معداتها. واعلن ان الـ (٣٦) ساعة التالية ستشهد رحيل آخر جندي. وتقرر ان يكون رحيل آخر الف جندي عن طريق الجو. وفي ٢٥ تشرين اول ١٩٥٨ انتهت عملية جلاء جميع القوات الامريكية عن لبنان، فقد سافرت صباح ٢٥ تشرين اول آخر دفعة من قوات المظلات على عدة طائرات حربية الى ألمانيا الغربية. وكانت آخر دفعة من القوات البرية (مشاة البحرية) وعددها (١٥٠٠) جندي قد غادرت ميناء بيروت ليلة ٢٤ تشرين اول على ظهر سفينة حربية تابعة للاسطول السادس . وقد غادر بيروت ايضاً ظهر يوم السبت ٢٥ تشرين اول الى المانيا الغربية الجنرال أدمز قائد القوات الجوية الأمريكية في لبنان يرافقه مساعدوه العشرة. وقد تم رحيل أدمز فور اتمام عمليات الجلاء. ولم يبق في بيروت بعد هذا التاريخ سوى عشرة ضباط لانهاء الاجراءات والمعاملات المالية التي يحتاج انهاؤها شهر. وبذلك كان يوم ٢٥ تشرين اول هو اليوم الذى غادر فيه آخر جندي امريكي لبنان رسمياً وليس ٢٧ تشرين اول كما يذكر كوبين. انظر الحرية، ٢، ٥، ٨، ٩، ٢٠، ٢٣، ٢٦ تشرين الأول ١٩٥٨؛ وانظر QuBain, op. cit, P. 115

سحب شكوى لبنان ضد ج. ع. م واعادة العلاقات الأخوية معها صوناً للمصالح العربية المشتركة(١٦٤). وقد طلبت وزارة الخارجية اللبنانية فعلاً يوم ١٦ تشرين ثاني ١٩٥٨ برقياً من وفدها في نيويورك تقديم طلب رسمي الى مجلس الأمن الدولي لشطب الدعوى ضد ج. ع. م فوراً. وقد تم ذلك فعلاً(١٦٥).

وكان فيليب تقلا وزير الخارجية في الوزارة الثمانية المستقيلة قد اجتمع في ٥ تشرين الأول ١٩٥٨ مع عبدالعزيز طاهر القائم بأعمال سفارة ج. ع. م في بيروت. وقد اعرب الوزير عن ضرورة اعادة العلاقات التقليدية بين البلدين الى سابق عهدها من الود والصفاء(١٦٦).

ومن الجدير بالاشارة ان ريمون اده وزير الداخلية رغبة في اشاعة الهدوء ومنع اسباب التوتر قرر دخول قوات الدرك يوم ٣١ تشرين اول ١٩٥٨ الى منطقة الشوف للمحافظة على الأمن هناك، بعد استمرار استفزازات عصابات شمعون هناك ضد جنبلاط وانصاره. وقد اتخذت هذه الخطوة بالاتفاق مع كمال جنبلاط زعيم منطقة الشوف(١٦٧). وبعد ذلك بأربعة أيام اعلن ريمون اده وزير الداخلية ان قوات الدرك، التي دخلت الشوف بعد تأخر لعدة أيام، استولت على كميات من الأسلحة في احدى قرى الشوف وهي من القرى التي كانت مسرحاً للاشتباكات المسلحة بين انصار جنبلاط وانصار شمعون يوم ٢ تشرين الثاني ١٩٥٨ بعد تأخر دخول قوات الدرك الحكومية وقد راح ضحية الاشتباك أربعة قتلى وعدد كبير من الجرحى من الطرفين(١٦٨) ومن الجدير بالذكر ان السلطات العسكرية اللبنانية كانت قد صادرت يوم ١٤ تشرين اول ١٩٥٨ ثمانية صناديق مملوءة بالاسلحة وصلت الى مطار بيروت قادمة على احدى الطائرات من بروكسل لحساب شمعون وباسمه(١٦٩). وعلى اثر عودة الهدوء الى الشوف اجتمع الرئيس شهاب بوفد من «جبهة الاتحاد الوطني» ضم رشيـــد كرامي، صائب سلام، كمال جنبلاط، صبري حمادة، احمد الاسعد، رينيه معوض، نسيم مجدلاني. وقد استمر الاجتماع

---

(١٦٤) الحرية، ٢٦ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٦٥) الحرية، ١٧ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٦٦) انظر الحرية، ٦ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٦٧) الحرية، ٣١ تشرين الاول ١٩٥٨.

(١٦٨) الحرية، ٥ تشرين الثاني ١٩٥٨.

(١٦٩) الزمان، ١٥ تشرين الاول ١٩٥٨.

ساعتين ابلغهم شهاب خلاله ان سحب المراقبين الدوليين[١٧٠] سيتم في نهاية شهر تشرين الثاني ١٩٥٨. وابلغ الوفد أيضاً ان قرار العفو العام الذي سيصدر سيشمل ايضاً اعمال العنف التي سادت دير العشائر والشوف وحوادث ٣٠ أيار ١٩٥٨ التي مر ذكرها[١٧١]. وبعد ان تدعم الهدوء والأمن معظم انحاء لبنان بعد تعزيز القوات الحكومية في منطقة الشوف، قررت وزارة الداخلية الغاء حظر التجول نهائياً في بيروت والمناطق الأخرىٰ التي لم يلغ فيها[١٧٢].

ونظراً لاستتباب الأمن وانتهاء الظروف غير الطبيعية التي مر بها لبنان والخسائر التي تكبدها اقتصاده خلال الاشهر الستة الممتدة بين أيـــار وتشرين اول ١٩٥٨، كان من الضروري اعطاء صلاحيات استثنائية لمجلس الوزراء اللبناني ليتلافى بعض الخسائر ويحول دون انهيار ما بقي من اعمدة الاقتصاد اللبناني دون الرجوع الىٰ السلطة التشريعية، أي اعطاء الحكومة صلاحية اصدار القوانين والمراسيم. وقد اقر بالفعل مجلس الوزراء اللبناني في اجتماعه يوم ٤ تشرين ثاني ١٩٥٨ المشروع الخاص بمنح الحكومة سلطات استثنائية في حقول التنظيم الاداري والأمن والمال، واحيل المشروع الىٰ مجلس النواب لاقراره[١٧٣]. واعلنت جبهة الاتحاد الوطني تأييدها لمشروع الحكومة هذا واستعدادها للتصويت بجانبه عند عرضه علىٰ مجلس النواب[١٧٤]. وقد وافق مجلس النواب اللبناني يوم ١٣ تشرين ثاني ١٩٥٨ علىٰ منح الحكومة الصلاحيات الاستثنائية بأغلبية ٣٤ صوتاً مقابل صوت واحد وامتناع واحد عن التصويت وتغيب الباقين[١٧٥]. وكان من بين اهداف الحكومة من مشروعها هو اطلاق يدها لتطهير أجهزة الدولة من اعوان شمعون وانصاره لما يلعبون من دور في التأثير علىٰ مسيرة

(١٧٠) الحرية، ٥ تشرين الثاني ١٩٥٨.

(١٧١) كان مصدر لبناني مسؤول قد صرح يوم (١) تشرين ثاني ١٩٥٨ بأن الدوائر المختصة وضعت مشروع مذكرة تتضمن سحب المراقبين الدوليين من لبنان، وان المشروع سيعرض علىٰ مجلس الوزراء للموافقة. وقال المصدر أيضاً ان وزارة الخارجية اللبنانية ستكلف بعد ذلك بالاتصال بهمرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة لاقرار طلب الحكومة اللبنانية. ولكن رئيس المراقبين اعلن في ٨ تشرين الثاني ١٩٥٨ انه سينسحب مع مراقبيه من لبنان دون طلب رسمي من الحكومة اللبنانية، وان الانسحاب سيتم في نهاية تشرين الثاني ١٩٥٨.

(١٧٢) الحرية، ٢٦ تشرين اول ١٩٥٨، الحرية، ٥ تشرين الثاني ١٩٥٨.

(١٧٣) الحرية، ٥ تشرين الثاني ١٩٥٨.

(١٧٤) الحرية، ٧ تشرين الثاني ١٩٥٨.

(١٧٥) الحرية، ١٤ تشرين الثاني ١٩٥٨.

الاستقرار والأمن دون العودة الىٰ مجلس النواب لما فيه من زخم لشمعون وانصاره. وبالفعل بدأت حركة التطهير بقيام هيئة تفتيش الدولة بالتفتيش علىٰ جميع الوزارات لدراسة ملفات الموظفين تمهيداً لاجراء الحركة التطهيرية(١٧٦). ولا ننسىٰ ان الحكومة اللبنانية في ظل الصلاحيات المذكورة اعلنت علىٰ لسان حسين العويني وزير خارجيتها يوم ١٦ كانون اول الانسحاب من مبدأ ايزنهاور مؤكداً بأن «مشروع أيزنهاور» يعتبر غير قائم «بالنسبة للبنان»(١٧٧) وبذلك تخلص الشعب العربي في لبنان من حمل ثقيل علىٰ صدره وعلىٰ عروبته.

(١٧٦) الحرية، ٣ تشرين الثاني ١٩٥٨.

(١٧٧) الزمان، ١٧ كانون الاول ١٩٥٨.

الانتفاضة الشعبية في الميزان

قبل كل شيء لا بد من القول ان الانتفاضة اللبنانية لم تحقق أهدافها. بل حيل بينها وبين تلك الاهداف الرامية الى تخفيف حدة الصراع الطبقي واستئصال الطائفية باعتبارها عاملاً من عوامل شد لبنان الى الخلف، والرغبة في اظهار وجه لبنان العربي ليساهم بكل طاقته في الجهد العربي المشترك لما فيه خير الأمة العربية وتقدمها، والتخلص من العملاء الذين مرغوا استقلال لبنان في الوحل وشوهوا روحه وصورته العربية، فضلا عن الطموح في التخلص من الفساد الاداري والمحسوبية والرشاوي التي شوهت وجه لبنان وسيادته .

ولا ريب في ان الانتفاضة الشعبية لم تكن أول انتفاضة شعبية في الأرض العربية حيل بينها وبين أهدافها ولن تكون بالطبع آخر انتفاضة .. فكم من الانتفاضات ومنها انتفاضة شعبنا في لبنان - لم تنجح في تحقيق أهدافها، سواء بسبب قصور في نظرتها وافقها، أو عدم وضوح في خطها الفكري أو خططها الآنية والبعيدة المدى، أو بسبب عقدة عدم القدرة على التوفيق بين الاهداف وبين الواقع الذي تعيشه بما فيه من ظروف ضاغطة تدفعها الى الفشل دفعاً. أو بتعبير آخر عدم القدرة على استثمار الممكن لتحقيق الطموح فضلاً عن دور اعداء الثورة في احباط الثورة. ولا ننس ان انسجام القيادة فضلاً عن انحدارها الطبقي وايمانها بحتمية الثورة وجذريتها تهيمن عليها تطلعاتها القومية الاشتراكية عامل مهم من عوامل نجاح الثورة. وهذا ما لم يتوافر بصراحة لانتفاضة الشعب اللبناني لأن معظم قياداتها ذات منحدر برجوازي مهمتها تحريك الموقف لا حسمه... الوصول إلى المنتصف لا إلى نهاية الطريق .

ولكن هل هذا يعني ان الانتفاضة الشعبية اللبنانية فشلت عسكرياً وسياسياً ؟

ان أول ما يجب ايضاحه هو ان الانتفاضة قد انتصرت عسكرياً في لبنان، فقد سيطر الثوار على ثمانين بالمائة من أرض لبنان وركزوا انفسهم فيها... إنما كان ينقصهم القيادة الموحدة والخطط العسكرية المنسقة(١٧٨) . ورغم ذلك أبلى الثوار بلاءاً حسناً.. ولكن دخول

(١٧٨) كمال جنبلاط في مجرى السياسة اللبنانية، ص ٩ .

الجيش الأمريكي غيرّ الموقف لصالح شمعون وفتَّ بشكل لا يقبل الجدل عضد الثوار ودعم قادتها فرسان الحلول الوسطية .

اما سياسياً فان الانتفاضة قد نجحت في منع شمعون من تجديد رئاسته، ولكنها كما رأينا لم تنجح في طرد شمعون قبل موعد التجديد أي قبل نهاية مدته القانونية وذلك بسبب عدم تعاون قطاعات الثوار ضمن قيادة واحدة وتخطيط واحد، وبسبب الاحتلال الأمريكي. وتفرض الحقيقة علينا ان نقول ان وجود الاحتلال الأمريكي جعل اكثر من لبناني وطني يتهيب الموقف، ويجعل القبول بحل التسوية شيئاً يمكن القبول به بعد أن انزلق اليه بعض قادة الثوار أو معظمهم بتعبير أصح. ولا شك ان الانتفاضة رغم ذلك نجحت الى حد كبير في تصحيح الاعتراف بحكومة الجزائر وقتذاك والاعتراف بالصين الشعبية. ولكن كل هذه النجاحات في السياسة الخارجية فضلاً عن اعادة العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة وعودة سفيرها الى بيروت وشطب الدعوى ضدها من جدول الأمم المتحدة وانسحاب جيش الاحتلال الامريكي. كل هذه القرارات تعتبر نجاحات للانتفاضة الشعبية اللبنانية رغم بطء السير نحوها. ولا شك أيضاً في ان الفكرة العربية في لبنان قد تقوت بحيث اصبحت الشخصية اللبنانية لا يمكن فصلها عن القومية العربية. ولكن هذا كله دون طموح الثورة وتطلعها القومي التقدمي(١٧٩).

ولا بأس أخيراً وليس آخراً من التعرف على وجهة نظر الحزب الذى شكله شمعون سنة ١٩٥٨ بعد انتهاء رئاسته مباشرة وهو «حزب الوطنيين الأحرار» من أحداث ١٩٥٨ . يقول جوزيف مغبغب أحد قادة هذا الحزب واحد كبار أعوان شمعون عام ١٩٥٨ «برأينا ان أسباب حوادث ١٩٥٨، ان فئة لبنانية لم تعد تؤمن بالميثاق (يقصد الميثاق الوطنى اللبناني لعام ١٩٤٣ الآنف الذكر) خرجت عن الميثاق وظنت ان الحلم الكبير الذي يراود الكثيرين أصبح قريب التحقيق، فوقع الاصطدام. ونعتبر ان الصمود الذي أثبته الرئيس شمعون كان السبب الرئيسي لانقاذ لبنان»(١٨٠) وهو يقصد ولا شك ان موجة التحرر العربية القومية التى سادت

(١٧٩) المصدر نفسه ، ص ص ١٦ ـ ١٩ .

(١٨٠) القوى السياسية في لبنان، ص ١١٦ (من مناقشة محاضرة ممثل حزب الوطنيين الاحرار جوزيف مغبغب التي القاها في النادي الثقافي العربي في بيروت يوم ١٤ شباط ١٩٦٩) .

الأرض العربية بعد تأميم القناة وقيام الوحدة وبروز شخصية الرئيس جمال عبدالناصر. كانت وراء الثورة. اما الحلم فيقصد الرغبة في الانضواء لدى جماهير لبنان العربية تحت راية الوحدة العربية وضرب عملاء الاستعمار في المنطقة. ونسي ان موقف شمعون وارهابه هو الذي أدى الى سقوط المزيد من الضحايا الابرياء الذين لا ذنب لهم سوى حرصهم على عروبتهم وعلى كرامة وطنهم وسيادته ورفضهم الانتقاص من هذه السيادة وتلك الكرامة. ولكن يا ترى ما المقصود بالصمود الذى اثبته شمعون ؟ هل هو باستدعاء قوات الاسطول السادس الأمريكي، أم هو التسول على أبواب حلف بغداد لدعم نظامه، أم هو اطلاق الرصاص على النساء والأطفال العزل، أم هو الاختباء في قصره لينجو بنفسه من غضبة الجماهير الثائرة .

أما ما يزعمه من خروج على الميثاق الوطني فنترك الرد للسيد فؤاد عمون السياسي اللبناني المعروف الذي يقول «ومن الواجب الاقرار للحكومات اللبنانية المتعاقبة منذ ١٩٤٣ ليومنا هذا، انها لم تنثن عن تأييد استقلال لبنان وفاء بالميثاق الوطني، عدا حكومة واحدة، حكومة شمعون ، التي تنكرت للميثاق وضلت السبيل .. وعلى الرغم مما بذلت حكومة كميل شمعون من مساع وما حاكت من دسائس لتوهم الناس ان الثورة الوطنية ليست ثورة على فساد الحكم وانحراف سياسته، بل ترمي الى النيل من استقلال لبنان، وعلى الرغم من دعايات حكومية اثبتت قدرتها الفائقة على الاختلاق والدس والتضليل، فان قادة الثورة قد اكدوا غير مرة واثبتوا بالفعل ان ليس بينهم من يتنكر للسياسة التي كرسها الميثاق الوطني، بل ان الدماء قد سالت بسخاء لصيانة هذا الميثاق»(١٨١).

(١٨١) فؤاد عمون، سياسة لبنان الخارجية، ص ص ٥٥ ـ ٥٦ .

نظـرة ختامـية

اشرّ حزب البعث العربي الاشتراكي فى تقريره السياسي الصادر عن المؤتمر القطري العادي الثالث (كانون الأول ١٩٥٨) عاملين اساسيين تضافرا في التمهيد لحدوث المضاعفات التي رافقت المعركة وحرما الشعب من جني الثمرات العاجلة للانتفاضة التي أشعلها وهما :

العامل الأول: وكان كامناً مستترا، هو ضعف الوحدة الوطنية لدرجة الانعدام بين صفوف الفئات التي يتكون منها شعب لبنان .

العامل الثاني: هو ضعف قادة المعارضة السياسيين الذين قدرلهم ان يكونوا علىٰ رأس المقاومة الشعبية، فهؤلاء لم يكونوا في مستوىٰ الأحداث الثورية، وقد فقد الكثيرون منهم رصيدهم الشعبي أيام كانوا مسؤولين ومشتركين في تحمل مسؤوليات الفساد الداخلي ومسايرة الجهات الأجنبية الاستعمارية .

هذان العاملان هما اللذان ساعدا شمعون علىٰ البقاء وبعد ذلك علىٰ ارتكاب الخيانة العظمىٰ عندما استنجد بالجيوش الأجنبية. وهما اللذان مكناه مع بقية العناصر الضالعة معه من القيام بتلك الفتنة الهوجاء التي كادت تعصف نهائياً بلبنان دولة وشعباً .

وهكذا ولد العهد الجديد وهو مدين للجهات المعادية للثوار سواء منها الداخلية أم الخارجية أكثر مما هو وليد الاتجاه الثوري للمقاومة الشعبية، مما ادىٰ الىٰ حرمان الشعب من تحقيق انتصار جذري أساسي يضمن مجيء عناصر سياسية تتمتع - علىٰ الأقل - بعقلية جديدة في الحكم وصفات شخصية شعبية خصبة لبناء الدولة من جديـد واستئصال جميع آثار عهد شمعون وطغمته(١٨٢) .

---

(١٨٢) نضال البعث، جـ ٨، ص ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

وبذلك أبت «قيادة الثورة» ومعظمها ان لم يكن كلها من منحدر برجوازى، إلا أن تقف بالثورة وآمالها في منتصف الطريق كعادة البرجوازيين أنصاف الثوريين دائماً. وهذه هي عادة القوىٰ البرجوازية التي تتسلق القمة الهرمية للانتفاضات الشعبية وتركب موجتها الغاضبة، إذ غالباً ما تتغلب عليها انحداراتها الطبقية ومصالحها الخاصة علىٰ مصالح شعوبها المناضلة فتكف عن الثورة أو بتر المد الثوري حين تشعر انه أخذ يتحول الىٰ خطر قد يؤدي الىٰ تآكلها واستئصالها هي أيضاً، لذا نراها معظم الأحيـان تصل الىٰ الوسط ... الىٰ المنتصف مع الكادحين ثم تقف حين تنجح في تحقيـق أمانيها التي «ناضلت» من أجلها مستغلة براءة الجماهير وعفويتها أحياناً بل وطيبتها أحياناً أخرىٰ. ولذلك قلما تجد قيادة برجوازية لانتفاضة شعبية ذات تطلعات جذرية مشروعة تصل الىٰ نهاية الخط مع الثوار الذين يحركهم حس قومي معجون بحسهم الطبقي من خلال الالتحام الجدلي بين الصراعين القومي والطبقي، بين النضالين القومي والاجتماعي. وما أشبه قيادة انتفاضة الشعب اللبناني عام ١٩٥٨ بقيادة ثورة العشرين المجيدة في قطرنا العراقي رغم الفارق الزمني بينهما حينما نفض «قادة الثورة» أيديهم عن الثورة لما وجدوا في استمرارها خطراً علىٰ مصالحهم، وحين وجدوا الاستعمار البريطاني يفتح لهم اذرعه الاخطبوطية ليحتويهم منفذاً لهم بعض تطلعاتهم الشخصية وطموحاتهم اللامشروعة أو معظمها مقابل ذبح الثورة وجزرها مع الهاء الجماهير الثائرة ببعض الحلول الوسطيـة لأمتصاص مشاعر السخط والانقضاض. وهذا نفس ما حدث تقريباً للانتفاضة الشعبيـة اللبنانية حينما حلّت الحلول الوسطية النصفية ذات النفس البرجوازي والنكهة الرأسمالية محل الحلول الثورية ذات الطابع الجذري الأصيل، كما كانت تطمح جماهير الشعب اللبناني التي قدمت الكثير من الشهداء علىٰ مذبح الحرية والاستقلال واقامة نظام خال من الاستغلال والمحسوبية والطائفية .

ظهور المؤسسات الشهابية :

منذ تولي فؤاد شهاب مسؤولياته كرئيس للجمهورية برزت علىٰ ساحة السياسة اللبنانية ما عرف بـ «المؤسسة الشهابية» علىٰ حساب الاقطاع السيـاسي التقليـدي الذي انهكـه الصراع فيما بينه وأضعفه تفككه وعدم قدرته علىٰ تحقيق التوازن الداخلي، مما أفسح المجال للمؤسسة الشهابية أن تقبض علىٰ زمام السلطة ... لقد كان طموح الشهابية يتجه نحو تجديد

توازن التركيب السياسي الايديولوجي للنظام الرأسمالي، مما يجعله قادراً على الاستمرار والصمود وسط منطقة عربية تشهد تغييرات سياسية واجتماعية واضحة. ومن هنا مثلت الشهابية في بدايتها ـ أي بعد أحداث ١٩٥٨ ـ وطيلة العهد الشهابي الممتد حتى أيلول ١٩٦٤ سياسة خارجية متوازنة تدخل في حسابها قوة المعسكر العربي التحرري ممثلاً بالجمهورية العربية المتحدة، ومثل تلك السياسة الخارجية المتوازنة كانت تؤمن فضلا عن تجديد صيغة التوازن السياسي الطائفي في الداخل الحفاظ على دور النظام اللبناني الوسيط كنظام لا يستطيع الاستمرار الا عبر تعزيز روابطه الاقتصادية في المنطقة العربية، ولم تكن تلك السياسة لتمس دوره الوسيط ولا علاقته بالأمبريالية العالمية.

أما على صعيد السياسة الداخلية فقد مثلت الشهابية محاولة لتحديث النظام بحيث يستجيب من جهة لحاجات البرجوازية الجديدة وبحيث يؤمن مزيداً من السيطرة والهيمنة للسلطة التنفيذية على زعامات الاقطاع السياسي. ومن هنا كانت الشهابية مسوقة إلى افراز ظاهرة جديدة هي ظاهرة «تدخل الدولة» في الحياة الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية(١٨٣).

ورغم ذلك لا بد من القول ان الحكم الشهابي كان من الممكن ان يحقق تحولات اجتماعية ملموسة لو لا ضياع هذه الفرصة بسبب توسع السلطة العسكرية وابعاد الحركة الشعبية ومن ثم تفتيتها(١٨٤) وهكذا تحول قسم كبير من السلطة الى العسكريين من زملاء شهاب السابقين ممن أحاط نفسه بهم، وقد أصبح تدخل هؤلاء في شؤون السياسة والحكم عنصراً فعالاً مستتراً حينا وسافرا احياناً أخرى(١٨٥).

(١٨٣) القوى السياسية في لبنان، ص ص ١٧٦ ـ ١٧٧ (من محاضرة محمد كشلي ممثل منظمة الاشتراكيين اللبنانيين التي القاها في النادي الثقافي العربي ببيروت).

(١٨٤) بشارة مرهج، مصدر سابق، ص ٨٩.

(١٨٥) ايليا حريق، من يحكم لبنان، ص ٧٩.

تقويم ختامي لانتفاضتي ١٩٥٢ و ١٩٥٨ :

لو تساءلنا هل نجحت انتفاضتا ١٩٥٢ و ١٩٥٨ في تصحيح المسار ووضع النظام اللبناني علىٰ الطريق السليم وعلىٰ عتبة التغيير لما فيه خدمة الشعب والجماهير الكادحة، لكان الجواب بكل ثقة كلا، لأن الانتفاضتين الشعبيتين فشلتا في تحقيق الطموحات المرجوة من ورائهما .

يؤكد جورج سكاف «ان الاصلاح فشل مرتين [ويعني بهما محاولة ١٩٥٢ ومحاولة ١٩٥٨]، أي عندما تعرض الحكم لأزمتين عنيفة فأعنف، وقام علىٰ اعقاب الحكم في كل مرة حكم جديد يهدف الىٰ الاصلاح. وفي كلتا المرتين فشل الاصلاح. وان لم تكن المسببات ذاتها أو النتيجة ذاتها . لقد فشل الاصلاح في أن يأتي من فوق .

ففي المرة الأولىٰ كان الاصلاح يهدف إلىٰ تنظيف الادارة بعدما أصبحت بؤرة فساد وبعد «الانقلاب» الذي حصل في الحكم كان الجو مهيئاً لاجراء التطهير المطلوب والسير بالبلاد علىٰ أسس جديدة ـ ولكن الحكم الجديد جاء يعالج الوضع الفاسد بأشخاص ليسوا غريبين عنه وإذا بكل شيء يعود الىٰ فساده وأزيد، حتىٰ وصلنا الىٰ الأزمة الثانية .

ومن الأزمة الثانية خرجنا بأعتبار آخر، وهذا الاعتبار يقول ان رأساً جديداً من غير الطراز الذي تعودته البلاد يمكنه ان يقضي علىٰ كل الرؤوس التي فيها علل . وكاد الاصلاح ان ينجح طالما ان الاطارات القديمة بقيت بعيدة. ولكن الرأس الجديد وجد نفسه مضطراً للعودة الىٰ التعاون مع الاطارات القديمة التي عادت الىٰ المسرح بنهم أشد للقضاء علىٰ كل أمل بالأصلاح. ومن هنا نشأ الشعور بأن الاصلاح لا يمكن ان يأتي من رأس الهرم وينزل عافية وسلاماً على الزوايا الأساسية المصدعة»(١٨٦) .

اما تقي الدين الصلح السياسي اللبناني المعروف رئيس وزراء لبنان الأسبق الذي يسمي «ثورة» ١٩٥٢ بـ «الثورة البيضاء» وثورة ١٩٥٨ بـ «الثورة ـ الفتنة»(١٨٧) فيقول ان الشعب اللبناني «خاض معركته الأولىٰ لاصلاح الحكم الوطني (١٩٥٢) بثورة وطنية وشاملة

(١٨٦) جورج سكاف، نحو لبنان أفضل، ص ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(١٨٧) تقي الدين الصلح، في السياسة والحكم، ص ٨٢ .

أيضاً فانتصر. أما معركته الثانية لتقويم الحكم (١٩٥٨) فقد اخفقت، لأن الثورة لم تستطع الاحتفاظ بالطابع الوطني، ولم تتوصل الى الشمول، بل انتهت - والبعض يقول ابتدأت - فتنة طائفية ما زالت تجر ذيولها حتى الآن في ظروف متعددة[188].

وهكذا أنهيت انتفاضة الشعب العربي في لبنان لعام ١٩٥٨ دون ان تحقق اهدافها المرجوة لجملة اسباب اشرنا اليها في طيات البحث ولكن رغم ذلك ظلت شهور الانتفاضة الشعبية الممتدة بين أيـــار وتشرين الأول ١٩٥٨ صفحات مشرقة في تأريخ النضال العربي ضد الاستعمار واحلافه المشبوهة في لبنان وعلى رأسهم كميل شمعون وبيير الجميل .

---

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ٧٠ .

مصادر البحث

(١) بارنت، ريتشارد، حروب التدخل الأمريكية في العالم، ترجمة منعم النعمان، بيروت، دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٧٤ .

(٢) البعلبكي، منير، أوراق ثورية، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٥٩ .

(٣) Birdwood, Lord M. V. O, Nuri As-Said-Study in Arab Leadership, London, Cassell, 1959.

(٤) جريدة «الجمهورية» البغدادية .

(٥) جريدة «الحرية» البغدادية .

(٦) جريدة «الزمان» البغدادية .

(٧) جريدة «لواء الاستقلال» البغدادية .

(٨) جريدة «النبأ» البغدادية .

(٩) جريدة «اليقظة» البغدادية .

(١٠) جنبلاط، كمال، حقيقة الثورة اللبنانية، بيروت، دار النشر العربية، ١٩٥٩ .

(١١) جنبلاط، كمال، في مجرى السياسة اللبنانية، أوضاع وتخطيط، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، (لا ت) .

(١٢) حريق، ايليا، من يحكم لبنان، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٢ .

(١٣) حزب البعث العربي الاشتراكي، نضال البعث، الجزء الثامن، «القطر اللبناني ١٩٥١ ـ ١٩٦١»، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٣ .

(١٤) الحسن، حسن، القانون الدستوري والدستور في لبنان، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، الطبعة الثانية، ١٩٦٣ .

(١٥) الحسني، عبدالرزاق، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء العاشر، بيروت، مطبعة دار الكتب، الطبعة الرابعة المزيدة، ١٩٧٤ .

(١٦) حلقة دراسات لبنان الاشتراكي، العمل الاشتراكي وتناقضات الوضع اللبناني، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٩ .

(١٧) ابو خاطر، جوزيف، لبنان في عالم الديبلوماسية ذكريات وعبر، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٤
(١٨) الخوري، بشارة خليل، حقائق لبنانية، الجزء الثاني، بيروت، منشورات «اوراق لبنانية»، ١٩٦٠ .
(١٩) ابو دياب، د. فوزي ، لبنان والامم المتحدة، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧١ .
(٢٠) ديب، د. جورج، النظام السياسي والمواطن في لبنان، محاضرة من مجموعة محاضرات الـ «ندوة الدراسات الانمائية - بيروت» بعنوان «النظام السياسي الافضل للانماء في العالم الثالث - لبنان والدول العربية»، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٧١ .
(٢١) الرمادي، د. جمال الدين، صفحات من تاريخ لبنان السياسي ووضعها الاقتصادي، مقالة في «المجلة المصرية للعلوم السياسية»، العدد (٥٧)، يناير وفبراير (كانون الثاني وشباط) ١٩٦٦، مجلة علمية شهرية .
(٢٢) الرياشي، اسكندر، رؤساء لبنان كما عرفتهم، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦١.
(٢٣) Salem, Elie Adib, Modernization without revolution Leabanons Experience, Indiana University press, Bloomington, 1973.
(٢٤) سكاف، جورج، نحو لبنان أفضل، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦١ .
(٢٥) شمعون، كميل، مراحل الاستقلال - لبنان ودول الغرب في المؤتمرات الدولية، بيروت، مكتبة صادر، مطابع الف ليلة وليلة، ١٩٤٩ .
(٢٦) صبري، موسى، مخبر صحفي وراء أحداث عشر ثورات، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠ .
(٢٧) صدقة، نجيب صدقة وآخرون، دراسات عن حكومة لبنان - مجموعة محاضرات، بيروت، مطبعة دار الفنون، ١٩٥٦ .
(٢٨) الصلح، تقي الدين، في السياسة والحكم، بيروت، دار العودة، ١٩٧٢ .
(٢٩) الصلح، رغيد، لبنان على طريق المستقبل، بيروت دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٣ .
(٣٠) الصليبي، كمال سليمان، تاريخ لبنان الحديث، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٦٧ .

(٣١) عزيـز، الطيـب، عن التسويـة والتغيـير وحرب الكتائب، بيروت، منشورات «الثائر العربي»، ١٩٧٥ .

(٣٢) العقاد، صلاح، المشرق العربي ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨. العراق ـ سوريا ـ لبنان، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٦٧. صادر عن معهد البحوث والدراسات العربيـة ـ الجامعة العربية .

(٣٣) علم الدين، وجيه، مراحل استقلال دولتي لبنان وسوريا ١٩٢٢ ـ ١٩٤٣، بيروت ، مطبعة دار الكتب، ١٩٦٧ .

(٣٤) عمون، فؤاد، سياسة لبنان الخارجية، بيروت، دار النشر العربية ١٩٥٩ .

(٣٥) غلمن، ولدمار، عراق نوري السعيد، بيروت، مطابع مؤسسة الانتاج الطباعي، الطبعة الأولى، ١٩٦٥ .

(٣٦) فواز، عدنان، دور لبنان السياسي في العالم العربي، بحث من مجموعة بحوث نشرتها مؤسسة سلوى نصار للدراسات اللبنانية في كتاب بعنوان «دور لبنان في العالم العربي»، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤ .

(٣٧) QuBain, Fahim Issa, Crisis in Lebanon, Washington, D. C, The Middle East Institute, 1961.

(٣٨) مجذوب، د. محمد، محنة الديمقراطيـة والعروبة في لبنان، بيروت، دار منيمنة للطباعة والنشر، ١٩٥٧ .

(٣٩) مجلة «الجديدة» اللبنانية، اسبوعية سياسية مستقلة، العدد ٨٦ الصادر في ٨ آذار ١٩٦٨، موضوع بعنوان «البركان اللبناني من ١٩٢٠ الى ١٩٦٨، ص ص ٣٩ ـ ٤٤ .

(٤٠) محي الدين، جهاد مجيد، حلف بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث قدمت الى كلية الآداب/ جامعة عين شمس عام ١٩٧٠ .

(٤١) مرهج، بشارة، معركة العروبة والديمقراطية في لبنان، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤ .

(٤٢) مغيزل، جوزيف، لبنان والقضية العربية، بيروت، منشورات عويدان، الطبعة الأولى، ١٩٥٩ .

أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابئ مؤرخاً

٣١٣ – ٣٨٤هـ / ٩٢٥ – ٩٩٤م

عبد الرحمن حسين العزاوي
جامعة بغداد – كلية التربية
فرع التاريخ

المقدمـــــة:

تعتبر هذه الدراسة ضمن سلسلة سابقة ولاحقة ان شا الله لعدد من الاعلام العراقيين كمؤرخين.

كذلك تعتبر هذه الدراسات اسهاماً متواضعاً لدعوة العراق للمؤرخين والباحثين العرب في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي في ضوء معطيات العصر، وتواصلاً حياً لماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها و(اعادة كتابة التاريخ العربى الاسلامي تحتاج الى الجهد العلمي الملتزم بحضارة هذه الامة وتراثها العظيم.

وأبو اسحق ابراهيم الصابيء يعتبر من المؤلفين ذوى الثقافة المتنوعة اذ لم يهتم بالأدب والتاريخ فحسب . بل اهتم كذلك بنشاطات علمية مختلفة . فكان كاتباً مترسلاً بليغاً، وشاعراً مقتدراً رقيقا، وكان ايضاً علماً بالهندسة. والذي يهمنا هنا هو اهتمامه بالتاريخ الذي سلك فيه المنهج الموضوعي اذ لم يسر على المنهج الحولي الذي اتبعه سابقوه او معاصروه.

وعصر ابو اسحق الصابيء يعتبر من العصور المهمة فى التاريخ العربى الاسلامى عامة، وتاريخ العراق خاصة، وهو القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى الذي ازدهر فيه العلم والمعرفة ازدهاراً كبيراً، فى ظل عاصمة الدولة العربية والاسلامية، بغداد عاصمة الخلافة العباسية

فكان لبغداد الريادة فى العلم والمعرفة والثقافة.

والصابيء المؤرخ عاش في كنف بغداد وعلومها هذه.

وسنتناول فى بحثنا هذا حياته، ثقافته، مصادر ترجمة حياته. آثاره. ومنهجه في الكتابة التاريخية.

حياتــه:

هو ابو إسحق ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الحراني الصابيء المؤرخ، والكاتب الأديب المشهور.

وقد ولد - كما يقول - ياقوت: «في سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة، كذلك ذكره حفيده أبو الحسين هلال بن المحسن ابراهيم فى تاريخه...»[1] .

أما القفطي فقد كان أكثر دقة في تحديد مولده، بالليلة واليوم، والشهر، والسنة، فيقول: «وكان مولده في ليلة يوم الجمعة لخمس خلون من شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة...»[2].

على حين ذكر ابن النديم - أنه ولد سنة نيف وعشرين وثلاثمئة[3] ويأتي الثعالبي ليسلك سبيلاً آخر، فهو لا يكلف نفسه في أن يذكر يوم أو سنة مولده، بل يمد فى عمره طويلاً، فيقول: «انه قد بلغ من العمر تسعين عاماً خنقها في خدمة الخلفاء، وخلافة الوزراء»[4].

وكلام مثل هذا لاشك في بعده عن الصواب، ومجافاته الحقيقة، اذ ليس من المعقول أن يسلخ المرء مثل هذه المدة فى الخدمة الفعلية.

والذى أوردناه من ياقوت، والقفطى، هو الأصوب، لأن ذلك في قول أوثق المصادر، ونعنى بها حفيده هلالاً.

وفي الأغلب ولد في بغداد.[5] وعاش في عهد بني بويه، وهم من الأمراء المتغلبين على خلافة بغداد.

---

(١) معجم الأدباء - ياقوت الحموي ٢/٢٠-٢١

(٢) تاريخ الحكماء - ابن القفطي ص ٧٥-٧٦

(٣) الفهرست - ابن النديم ص ١٩٣.

(٤) يتيمة الدهر - للثعالبي ٢٤١/٢

(٥) تاريخ الأدب العربى - عمر فروخ ٥٥٨/٢

وأبو اسحق نشأ في بغداد على دين الصابئة الحرانيين[٦]. عفيفاً في مذهبه.

من ذلك «يحكى أن الخلفاء، والملوك، والوزراء، أرادوه كثيرا على الاسلام، وأداروه بكل حيلة، وتمنية جليلة، حتى ان عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة ان أسلم، فلم يهده الله تعالى للاسلام، كما هداه لمحاسن الكلام.[٧]

أما أبو منصور سعيد بن أحمد البريدي، فيقول عنه:

«ان أبا اسحق الصابيء، كان من نساك أهل دينه، والمتشددين في ديانته، وفي محاماته على مذهبه، وتصونه عما يدعو اليه الهوى»[٨].

وكذلك أبو نصر سهل بن المرزبان، قال عنه:

«بلغني أن الصابيء حضر يوماً مائدة المهلبي، فامتنع عن الأكل، لباقلاء كانت عليها، لأنه محرم على الصابئة كيفما كان مع السمك، ولحم الخنزير، ولحم الجمل، وفراخ الحمام، والجراد. فقال له المهلبي: لا تبرد كل معنا من هذه الباقلاء، فقال: أيها الوزير لا أريد ان اعصى الله في مأكول، فاستحسن ذلك منه»[٩].

ومع ذلك فهو حسن العشرة للمسلمين، يصوم رمضان، ويحفظ القرآن، ويصرف آياته في رسائله، قال الثعالبي:

«كان يعاشر المسلمين، احسن عشرة، ويخدم الأكابر ارفع خدمة، ويساعدهم على صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على اطرف لسانه، وسن قلمه، وبرهان ذلك ما أوردته في كتاب الأقتباس من فصوله التي احسن فيها كل الاحسان، وحلاها بآي من القرآن ...»[١٠]

---

(٦) مبدأ الصابئة ونسبتهم - تجد ذلك مفصلاً في بحث للمؤلف بعد للطبع ان شاء الله.

(٧) يتيمة الدهر ٢٤١/٢، معجم الأدباء ٢١/٢

(٨) يتيمه الدهر ٢٤٢/٢

(٩) المصدر نفسه

(١٠) المصدر نفسه - ومعجم الادباء - ٢١/٢

في سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م تقلد ابو اسحق الصابيء ديوان الرسائل، فكانت تصدر منه مكاتبات الى عضد الدولة تؤلمه[١١] فلما توفي عز الدولة امير الامراء سنة ٣٦٧هـ/٩٧٨م، واستولى عضد الدولة على بغداد، وكانت في صدره حزازه كبيرة لأبى أسحق من انشاءات له عن الخليفه الطائع في شأن عز الدولة بختيار نقمها منه، واحتقدها عليه .. قال الثعالبي:

«حدثني ابو منصور سعيد بن احمد البريدى، أبو طاهر محمد بن عبدالصمد الكاتب، قالا: كان من اقوى اسباب تغير عضد الدولة لأبي اسحق بعد ميله اليه وضنه به فصل له كتاب انشأه عن الخليفه في شأن بختيار وهو:

فجدد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق، والمعالى السوامق التي يلزم كل دان، وقاص، وعام، وخاص. ان يعرف له حق ماكرم به منها، ويتزحزح له عن رتبة[١٢] المماثله فيها[١٣]. فانه انكر عليه هذه اللفظه أشد انكار، فحبسه، فسئل فيه، وعرف بفضله، وقيل له:

مثل مولانا لا ينقم على مثله ماكان منه، فانه كان في خدمة قوم لا يمكنه الا المبالغة في نصحهم، ولو امره مولانا بمثل ذلك اذا استخدمه في ابيه، ماأمكنه المخالفه».

فقال عضد الدولة: قد سوغته نفسه،[١٤] فان عمل كتابا في مأثرنا وتاريخنا أطلقته.[١٥].

وكان ذلك الحل الوحيد للرأفه به والابقاء على حياته، فعكف على تأليفه وسماه «التاجي في أخبار بني بويه «نسبة الى لقب عضد الدولة «تاج الملة» ويذكر ياقوت: انه اشتغل بذلك في محبسه[١٦]، فبينما يذكر الثعالبي انه اشتغله في منزله.[١٧] وأنفق من روحه على تقريظه وتأنق

---

(١١) المصدر نفسه ٢٤٣/٢ ومعجم الادباء ٢٢/٢.

(١٢) سرير (رسائل ابى اسحق الصابيء ٢١٦/١- ٢٢٣).

مقام (رسوم دار الخلافة - لهلال الصابيء ص ١١٩).

(١٣) اليتيمة ٢٤٣/٢، رسوم دار الخلافة ص ١١٩.

تفضيل الاتراك على سائر الأجناد - ابن حسول ص ١٣ - ٢٠

(١٤) سوغ له كذا اعطاه اياه واجازه له

(١٥) معجم الادباء ٢١/٢-٢٢

(١٦) المصدر نفسه ٢٢/٢

(١٧) اليتيمه ٢٤٣/٢

كثيرا في تصنيفه، ولكن واشيا أفسد عليه الأمر، فقد سأله عما يعمله، بعد ان رأى اندماكه، فأجاب أبو اسحق:

«أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها.[١٨]

ولاريب في براءته من هذا القول، فليس لمثله تلك الجرأة، وهو يعاني شدائد الأعتقال أن يتفوه بذلك ولا اقل من ذلك وقد عرف بدماثه الخلق، ولين الطباع، ومداهنه الناس جميعاً ومهما يكن من أمر هذه الوشاية فقد امر عضد الدولة بأن يلقي تحت أرجل الفيلة.

فاكب ابو القاسم عبد العزيز بن يوسف، ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها، ويشفعان اليه في أمره، حتى أمر باستحيائه[١٩] وأخذ امواله واستصفائه[٢٠]، وتخليد السجن بدمائه، فبقى في السجن بضع سنين[٢١].

وتوفى عضد الدولة (٣٧٢هـ/٩٨٣م) وخلفه ابنه صمصام الدولة، فأطلق سراحه.. وقد رزحت حاله، وتهتك ستره، وكان الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ/٩٣٧م) يحبه اشد حب، ويتعصب له ويتعهده على بعد الدار بالمنح[٢٢]. مات أبو اسحق ابراهيم يوم الخميس الموافق ١٢ من شوال عام ٣٨٤هـ/٢٠-١١-٩٩٤م.[٢٣].

بينما ابن النديم ذكر مماته قبل الثمانين وثلاثمئة.[٢٤]

وقد اختلف في يوم وفاته فبعضهم يقول الخميس[٢٥]، والبعض الآخر يقول الاثنين.[٢٦].

---

(١٨) معجم الادباء ٢٢/٢، اليتيمة ٢٤٣/٢

(١٩) استحيائه - تركه حياً.

(٢٠) استصفى المال - أخذه كله.

(٢١) معجم الأدباء ٢٢/٢، اليتيمة ٢٤٣/٢، قال هلال:

(نقم عضد الدولة على ابراهيم بن هلال جدي وحبسه لأجله أربع سنين وشهوراً..) - رسوم دار الخلافة حتى ١٢١

(٢٢) اليتيمة ٢٤٣/٢.

(٢٣) معجم الأدباء ٢٠/٢، اليتيمة ٣٠٦/٢

(٢٤) الفهرست ص ١٩٣.

(٢٥) معجم الأدباء ٢٠/٢، اليتيمة ٣٠٦/٢

(٢٦) وفيات الاعيان ٥٣/١، شذرات الذهب ١٠٦/٣

اما دائره المعارف فسلكت مسلكا آخر فقالت توفي يوم الثلاثاء.[٢٧] والمهم انه مات ببغداد، ودفن في الموضع المعروف بالجنينه المجاور الشوفزيه.[٢٨].

ورثاه الشريف الرضي بقصيدته الداليه المشهورة التي مطلعها:

أرأيت من حملوا الاعواد أرأيت كيف غبا ضياء النادى[٢٩]

وعاتبه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا. فقال:

انما رثيت فضله.[٣٠].

ثقافته:

تجسدت في أبي اسحق الصابئ التطورات الثقافية التي حدثت في بغداد، في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، من علوم وفنون، واداب .

فما كان منه الا أن ينهل من هذا البحر الواسع الشاسع، الكبير وبرز ذلك واضحاً في سمو ما أخذه من علم، وادب وشعر، فكان اديباً بارعا، وكاتبا مترسلا، بليغاً، وشاعراً مقتدرا دقيقاً، وكان ايضا - عالما بالهندسة،[٣١] مجيداً في التاريخ.

حتى اصبح كاتب الانشاء ببغداد عن الخليفه، وعن عز الدولة بختيار البويهي[٣٢]، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م.[٣٣].

---

(٢٧) المجلد ١٤ ص ٨٤ (مادة الصابيء)

(٢٨) وفيات الاعيان ٥٣/١، شذرات الذهب ١٠٦/٣، دائرة المعارف الاسلامية ٨٤/١٤، تاريخ الحكماء ص ٧٦

(٢٩) ديوان الشريف الرضى - ٣٨١/١.

(٣٠) وفيات الأعيان ٥٣/١، شذرات الذهب ١٠٦/٣

(٣١) الفهرست ص ١٩٣

(٣٢) معجم الادباء ٢٠/٢، اليتيمة ٢٤٣/٢

(٣٣) تاريخ الادب العربي - عمر فروخ ٥٥٨/٢

قال الثعالبي فيه:

كان «أوحد العراق في البلاغه، ومن به تثنى الخناصر في الكتابه، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغايه من البراعه والصناعة.[٣٤]

كذلك «كان المهلبي لا يرى الا به الدنيا ويحف الى براعته وتقدم قدمه، ويصطنعه لنفسه، ويستدعيه في أوقات انسه».[٣٥]

ولمكانه ابي اسحق العلميه والادبية والخلقيه «مدحه شعراء العراق في جمله الرؤساء.»[٣٦].

وبالجمله فانه كان أعجوبة من الاعاجيب،[٣٧] وعلما من الاعلام الذين يشار لهم بالبنان.

مصادر ترجمته

نجد ترجمه حياته في المصادر والمراجع التي استفدنا بكثير منها وهي: الفهرست لابن النديم ١٩٣ - ١٩٤، وفيات الاعيان - لابن خلكان ٥٣/١ -٥٤، الكامل - لابن الاثير ١٠٦،١٥/٩، شذرات الذهب - لابن العماد ١٠٦/٣-١٠٩، معجم الادباء - لياقوت الحموي ٢٠/٢ -٩٤ (وهي ترجمة كبيرة)، يتيمة الدهر - للثعالبي ٢٤١/٢ -٣٠٦، تاريخ الحكماء ٧٥-٦، المنتزع من كتاب التاجي - لابى اسحق الصابيء - تحقيق د. محمد حسين الزبيدي - المقدمة، دائرة المعارف الاسلامية ٨٣/١٤ (ماده الصابيء)، تاريخ أبو الفدا (طبعة الاستانه ١٣٦/٢)، الوزراء - لهلال الصابيء المقدمة (ص ٣)، المختصر- لابن العبري (ط صالحاني) ص ٣٠٧، نهاية الأرب - للنويرى ٤٠/١، معاهد التنصيص لعبدالرحيم العباسي ٥٣/١، ١٥٤-١٦١، ١٧٤، ٢٢٧، ٢٥٧، ١١٤/٢-١١٥، النجوم الزاهرة - لابن تغري بردى ١٦٧/٤، ديوان الشريف الرضى ٣٨١/١/١، الاعلام - للزركلى ٧٣/١، د. س. مرجليوث - دراسات عن المؤرخين العرب ص ٢٥- ٦، رسائل الصابيء والشريف الرضي - مقدمة

(٣٤) اليتيمة ٢٤١/٢

(٣٥) المصدر نفسه ٢٤٣/٢

(٣٦) المصدر نفسه ٢٤٠/٢

(٣٧) شذرات الذهب ١٠٦/٣

المحقق، النثر الفني في ق ٤هـ - لزكي مبارك ٢/٢٩٠-٣٠١، تطور الاساليب النثريه في الادب العربى - لأنيس المقدسى ٢٦٣-٢٨٧، أدب اللغه العربية - لمحمد حسن نائل المرصفى ٢/١٣٤، تاريخ اداب اللغه العربية - لجرجي زيدان ٢/٢٧٥-٢٧٦، تاريخ الادب العربي - لعمر فروخ ٢/٥٥٨ -٥٦١، الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق لفاضل عبداللطيف الخالدي - المقدمة، ظهر الإسلام لاحمد أمين ١/٢٣٦- ٢٣٧، التاريخ والجغرافيه - لعمر رضا كحالة٦٥، ٩١.

الرسائل الجامعيه : المختار من رسائل أبي اسحق الصابيء - لمحمد يونس عبدالعال - رسالة دكتوراه جامعة القاهرة - كلية الآداب (المكتبه) ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م المقدمه ٧ -٥٨.

المجلات: أبو اسحق الصابيء سيرة وفنا- لعبدالقادر حسن أمين مجله كلية الآداب جامعة بغداد ١٣٩٥هـ/١٩٧٥ عدد ١٨ من ٧ -٢٧

آثــاره:

ندرج أدناه آثار ابي اسحق ، والتي تتمثل في تصانيفه التاريخيه والادبية:

أ) من تصانيفه التاريخيه هي:

١ - كتاب اخبار اهله وولد ابنه - عمله الى بعض ولده.[٣٨] وهو مفقود الآن.

٢ - كتاب دولة بني بويه واخبار الديلم وابتداء أمرهم، ويعرف بالتاجي[٣٩] «سنعرفه في الفقره التالية».

ب) ومن تصانيفه الأدبية:

٣ - ديوان شعره.[٤٠] وهو مفقود في الوقت الحاضر.

(٣٨) الفهرست ص ١٩٣، معجم الادباء ٢/٩٤

(٣٩) الفهرست ص ١٩٣، معجم الادباء ٣/٩٤

(٤٠) المصدران السابقان نفسها.

٤ - كتاب رسائله - وهو مشهور، نحو الف ورقة[٤١]، (عشرين الف سطر).[٤٢] وهي تفسم الى ابواب في المراسلات، والشفاعات والمعاتبات، ومانفذ الى العمال، والمتصرفين، والنواحي. وهو مطبوع[٤٣].

٥ - كتاب مراسلات الشريف الرضى[٤٤] مطبوع[٤٥]

٦ - كتاب اختيار شعر المهلبي[٤٦]. مفقود في الوقت الحاضر.

٧ - منشآت الصابيء[٤٧] موجود.

وصف الكتاب:

يعتبر كتاب «التاجي[٤٨] من التواريخ المعاصره[٤٩] للاحداث. وكذلك اعتبر من التواريخ الرسمية[٥٠]

وكما هو معروف لدينا ان هذا الكتاب مفقود في الوقت الحاضر باستثناء قطعه صغيره منه: المنتزع من كتاب التاجي - لابى اسحق الصابي' «وهي مخطوطه مصوره في مكتبه معهد

(٤١) المصدران نفسها

(٤٢) ذكر ذلك عمر فروخ في كتابه - تاريخ الادب العربي ٥٥٩/٢

(٤٣) طبع بعضها في بيروت بتحقيق شكيب ارسلان سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م. وقام بتحقيق مختار منها محمد يونس عبدالعال «رسالة دكتوراه» جامعة القاهرة - كلية الآداب ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م

(٤٤) الفهرست ص ١٩٣.

(٤٥) تحت عنوان (رسائل الصابيء والشريف الرضي) قد حققها محمد يوسف نجم - الكويت سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١.

(٤٦) ذكر ذلك صاحب معجم الادباء ٩٤/٢. أما صاحب الفهرست فلم يذكره.

(٤٧) ذكر جرجي زيدان حيث قال «في المكتبة الخديوية نسخة خطية بهذا الاسم تدخل في ٤٥٤ صفحة. تاريخ آداب اللغه العربيه ٢٧٥/٢

(٤٨) سمي بـ (التاجي) نسبة الى (تاج الملة) وهو احد القاب عضد الدولة البويهي.

(٤٩) المعاصرة: هي ان يعيش انسان (كالمؤرخ مثلاً) في العصر الذي يؤرخ له أو يترجم لسير رجاله، من وجهة نظر قريبة عائشة لذلك العصر، لأن القريبين من الاحداث زماناً ومكاناً هم أقدر الناس على وصفها وتصويرها فإن كانت في بعض الأحايين حجاباً يستر المؤرخ عن قول الحقيقة لاعتبارات عديدة منها الزلفى، والخوف، والمودة، والعداوة، وغير ذلك مما يقع للمؤرخ والمؤرخ لهم.

(٥٠) المؤرخون الرسميون - هم الذين تقتضي واجباتهم كرسميين تسجيل ما تريد الدولة أو الفئه السياسيه أو الدينية تسجيله وتوريخه.

المخطوطات بالجامعة العربية[٥١] وعند فحصنا لهذه المخطوطه وجدنا مؤلفها قد اتبع الاسلوب أو المنهج الموضوعي في الكتابه التاريخيه فيها.

وقد ادرج أبو اسحق الصابي، حديثه تحت فصول معينه مثل: «فصل في اسلام الديلم والجيل[٥٢]».

وفي هذا الفصل تحدث عن فضل اهل الديلم على من سواهم من أهل البلاد، وحسن سبوتهم، ودخولهم في الاسلام طوعاً وانقيادهم لمن دعاهم. وهو الحسن بن الاطروش.

وكذلك مثل:

«فصل في مساكن الديلم والجيل ومفاخرهم»[٥٣]

وتحدث فيه عن نسب البويهيين، وعن الديلم والجيل وعن عاداتهم، وظروف معيشتهم، وعن طبيعه بلادهم، وعن الصفات التي كانوا يتميزون بها.

ان هذه القطعه الصغيره قد تم تحقيقها ونشرها حديثا في بغداد[٥٤] - يقول مرجليوث عن كتاب أبى اسحق هذا مانصه:

«ويقال ان جزءا كبيرا من هذا الكتاب مقتطف في تاريخ مسكويه».[٥٥]

وفي مكان آخر قال:

«ويؤكد ابو شجاع انه «يقصد مسكويه» نقل تاريخ البويهين الذي الفه أبو اسحق ابراهيم الكاتب، وسماه «التاجي» نقلا حرفيا على وجه التقريب»[٥٦]

---

(٥١) عدد صفحاتها ٢٢ ورقة، قياسها ٢٨ × ١٩سم ورقمها ١٢٦٢/ تاريخ

(٥٢) المنتزع من كتاب التاجي - لأبي اسحق الصابي، مخطوط ورقة ٨ (مكتبة معهد المخطوطات بالجامعه العربية رقم ١٢٦٢/ تاريخ).

(٥٣) المصدر نفسه ورقة ٢.

(٥٤) المنتزع من كتاب التاجي لابى اسحق الصابي - تحقيق وشرح د. محمد حسين الزبيدى. كتب التراث ٤٤ / منشورات وزارة الاعلام العراقية - بغداد ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

(٥٥) د. س . مرجليوث - دراسات عن المؤرخين العرب ص ٢٥، ٢٦.

(٥٦) المرجع نفسه ص ١٤٨

في النص الأول الذي أوردناه لم يذكر مرجليوث مصدر قوله، اما في الثاني فنسبه الى أبي سجاع. وعند رجوعنا الى النص الذي ذكره ابوسجاع بصدد مسكويه وأبي اسحق، لم نجد ماذهب اليه مرجليوث. قال ابو شجاع في معرض حديثه عن كتاب «التاجي» لابي اسحق مانصه:

«ووجدنا آخره موافقا لآخر كتاب تجارب الامم، حتى ان بعض الالفاظ متشابه في خاتمتها، وانتهى القولان في التاريخ بهما الى امد واحد».(٥٧)

والذي يتصفح كتاب مسكويه «تجارب الامم» يجده يشير دائما الى رواته - وإذا كان فعلا قد اعتمد على «التاجي» فما الذي حدا به الى عدم ذكر مؤلفه ضمن رواته العديدين، والمتناثرين في صفحات كتابه؟.

كذلك ذكر مرجليوث ان بعض قطع منه (يقصد التاجي) في اليتيمه للثعالبي.(٥٨) وتاريخ اليميني للعتبى(٥٩)»(٦٠).

ان ماتضمنه كتاب اليتيمه من نصوص لابي اسحق لا يخرج عن نطاق رسائله، وشعره، ولا يتمثل فيها المعاني الأخبارية أو التاريخيه وعلى سبيل المثال، ندرج النص التالي لابي اسحق كما هو مدون في اليتيمه، ليعطينا صوره اكثر دقه لما ذهبنا اليه:

(«فصل عن بختيار في ذكر عضد الدولة وماجرى بينهما»)

والله العالم اني مع ماعودنيه الله من الاظهار، وأوجدنيه من الاستظهار، ومنحنيه من

(٥٧) ذيل تجارب الأمم - الروذراوري ٣/٢٣.

(٥٨) مطبعة الصاوي - القاهرة ٢/٢١٨-٢٨٦

(٥٩) سمي بـ (اليميني) نسبة الى (يمين الدولة) وهو أحد القاب محمود الغزنوي.

وطبع تاريخ اليميني - لأبى نصر محمد بن عبدالجبار العتبي - في القاهرة بجزئين سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م.

كذلك طبع في القاهرة بهامش الكامل - لأبن الاثير في الأجزاء ١٠، ١١، ١٢ ط. بولاق سنة ١٢٦٠هـ/١٨٧٣م

(٦٠) مرجليوث - دراسات عن المؤرخين العرب ص ٢٦.

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية من ان بعض المؤرخين المتأخرين قد استشهد بالتاجي، مثل: «ميرخواند» في النص الفارسي. (دائرة المعارف الاسلامية مادة ابي اسحق الصابيء).

شرف المكان، وظل السلطان وكثرة الاعوان، لا جزع في مناضله عضد الدوله من ان اصيب الغرض منه كما جزع من ان يصيب الغرض مني، واكره ان اظفر به، كما كره ان يظفر بي، واشفق من ان أطرف عيني بيدي، وأعض لحمي بنابي[٦١].»

ونجد اغلب النصوص التي اوردها الثعالبي لابى اسحق على هذه الشاكلة.

فإذا كانت هذه النصوص كما ادعى مرجليوث هي قطع من تاريخ «التاجي» فانها لا تماثل والنصوص التي اطلعنا عليها وتحدثنا عنها سلفا في **مخطوطه** «المنتزع من كتاب التاجي».

فالاولى (الموجوده في اليتيمه) يغلب عليها السجع والصناعة اللفظيه، بعكس ماهو، موجود في الثانيه (المنتزع من كتاب التاجي) التي فيها السجع أقل من الأولى. وكذلك اقل مما عند العتبي الذي الف كتابه اليميني، وحـــذا فيه حذو أبي اسحق.

وندون ادناه نص من كتاب اليميني للعتبى للتدليل على تزويقه اللفظى، وصناعتـه الادبيه، في كتابته التاريخيه.

(«ذكر ايام الامير الماضي ابى منصور سبكتكين رحمه الله تعالى واحواله».

بالاولى (الموجوده في اليتيمه) يغلب عليها السجع والصناعة اللفظية، بعكس ماهو موجود في الثانيه (المنتزع من كتاب التاجي التي فيها السجع أقل من الأولى. وكذلك اقل مما عند العتبي الذي الف كتابه اليميني، وجذا فيه حذو امى اسحق.

وندون ادناه نص من كتاب اليميني للعتبى للتدليل على تزويقه اللفظى، وصناعتـه الأدبيه، في كتابته التاريخيه.

(«ذكر ايام الامير الماضي ابى منصور من سبكتكين رحمه الله تعالى واحواله».

قد كان ذلك الامير قدس الله روحه في جبلته أبي النفس، الانف، جرى القلب، قوى

---

(٦١) اليتيمة - للثعالبي ٢/٢٢٩.

البطش. كريم الخيم رضى التدبير كبير الهمة، كثير الحكمه، يتبين ذلك كله في خصاله، وخلاله وتصرفات عزائمه، واحواله(٦٢).»

وفي ختام بحثنا عن أبي اسحق الصابيء نقف عند رأي السيد عبدالقادر حسن امين. حول انكاره وجود كتاب «التاجي» حيث يقول في معرض آثار الصابيء:

«أما كتاب التاجي فارجح عدم وجوده،اذ لم يقدم الصابيء على كتابته، واعتقد انه خبر مهلهل النسخ، أراد به المترجمون والمؤرخون اضافة جوانب جديده مثيرة لصورة البلوى التي احاطت بصاحبنا(٦٣).

وفي المقال نفسه يضيف قائلا:

«وكأني بعضد الدولة اراد ان يستغل محنة الصابيء فأمره ان يؤلف كتابا في أمجاد آل بويه ومآثرهم، وقد كان ذلك الحل الوحيد للرأفه به، والابقاء على حياته، فعكف على تأليفه سماه «التاجي» ....».(٦٤)

في النص الأول - ينكر السيد امين «كتاب التاجي» ويرجح عدم وجوده وفي النص الثاني - يؤكد وجود الكتاب.

وعليه نقول إن كتاب التاجي اثبته اغلب المترجمين والمؤرخين(٦٥) لابي اسحق الصابيء، ولتوكيد قولنا هذا، فقد عثر أخيرا على قطعة من هذا الكتاب(٦٦)، وهي مطبوعه تحت ايدينا.(٦٧)

---

(٦٢) تاريخ اليميني - للعتبي - مطبوع الهامش تاريخ الكامل - لأبن الاثير ٢٥/١٠ طبعة بولاق.

(٦٣) أبو اسحق الصابيء - سيرة وفناً - مقال: الاستاذ عبد القادر حسن أمين (مجلة لكلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٧٤/١٨/ص ١٦).

(٦٤) المرجع نفسه ص ١٤.

(٦٥) ابن النديم - الفهرست - ص ١٩٣-٤، ياقوت الحموي - معجم الادباء ٩٤/٢، الثعالبي - اليتيمة ٢٢٩/٢.

(٦٦) مخطوط مصور في مكتبة معهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ١٢٦٢/ تاريخ وعدد صفحاتها ٢٢ ورقة.

(٦٧) طبع في بغداد بعنوان (المنتزع من كتاب التاجي - لأبي اسحق الصابيء - تحقيق وشرح د. محمد حسين الزبيدي، كتب التراث ٤٤ منشورات وزارة الاعلام العراقية - بغداد ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)

١ - كتاب التاجي:
لابى اسحـــق الصابـــىء

كما هو معروف لدينا ان هذا الكتاب مفقود في الوقت الحاضر باستثناء قطعة صغيره منه، تم تحقيقها مؤخرا تحت عنوان
(المنتزع من كتاب التاجي - لابى اسحق الصابيء)[٦٨]

الفصل الأول - ذكر جمله أخبار الديلم والجيل ص٢٥
الفصل الثاني - فصل في مساكن الديلم والجيل ومفاخرهم ص ٢٩.
الفصل الثالث - فصل في ذكر اسلام الديلم والجيل ص ٣٨
الفصل الرابع - فصل في خبر أبي جعفر متي بن نعمان الديلمي الساهي ص ٧٣.

وأما مادتها، فهي تدور حول نسب الديلم والجيل[٦٩]، الذين منهم البويهيون.
فبين الصابيء ان القدماء عدتهم من بني ضبة[٧٠] بقوله: فالقدماء عدت من بني ضبة وهم الذين اقتضوا عذرة السكنى في هذه البلاد، وكانوا من اشد العرب بأسا، فلم يكن لمن سواهم طاقة بهم. وكثرت الطوابل عندهم، واصطلحت العرب عليهم ورنت المحاجر والمنادي بهم،

---

(٦٨) المرجع نفسه.

(٦٩) جيلان (كيلان): اقليم كبير يتكون من دلتا نهر سفيد رود عند مصبه في بحر الخزر (بحر قزوين). وقد اطلق الجغرافيون العرب اسم الجيل أو جيلان على المنطقة وفى جنوب هذا الاقليم وغربه مما يحاذي جبال ناحيتي الطالقان وتارم من اقليم الجبال كانت بلاد الديلم وعلى هذا فان بين جيلان وبلاد الديلم حدود مشتركة.
(لسترنج - بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٠٦- ٧)

(٧٠) بنو ضبة: بطن من العدنانية ينتسبون الى ضبة بن اد بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهم جمرات العرب الثلاث وكانت منازلها في جوار بني تميم. ثم انتقلوا فى الاسلام لجهة النعمانية. وذكر ان الديلم من ابناء باسل بن ضبة (الانساب - السمعاني ص ٣٦٠، جمهره انساب العرب - لأبن حزم ص ٢٠٣، معجم قبائل العرب - لعمر رضا كحاله ٢/٦٦١-٢).

فرحلوا الى اذربيجان[٧١]، فريقا فريقا متلاحقين، ثم تفرقوا في البلاد التي هي الآن وطن لهم[٧٢]. «واضاف قائلا»:

«وافترقوا فريقين عن بطنين لاخوين وهم: ديلم، وجيل فذريه كل واحد من هذين الاخوين، منسوبة اليه، واقتسموا البلاد[٧٣].»

ويحدثنا الصابيء عن قبائل هؤلاء ونسبتهم بقوله:

«فالجيليون يفخرون بأربع قبائل:

أولها وأشرافها قبيله (شير زيلاوند) من ناحية لناهج وهم منسوبون الى شير زيل ... وهم اسلاف مولانا الملك شاهنشاه عضد الدولة وتاج الملة ... ومرجعهم في النسب[٧٤] الى بهرام جودبن يزدجرد الملك الساساني. وانقطع من أصل الكتاب شيء من ذكر قبائلهم[٧٥]...»

وأردف قائلا:

«وأما الجيل فاصولهم كاصول الديلم، وناقلتهم كناقلتهم وقد تقدم من القول في ذلك،

---

(٧١) اذربيجان: ويلفظ اسم هذا الأقليم ازربيجان بالفارسيه الحديثة. وكان اقليم اذربيجان الجبلي في أيام الخلافة اقل شأناً مما صار اليه في أواخر العصور الوسطى ولاسيا بعد الغزو المغولى.
(المنتزع من كتاب التاجي - لأبى اسحق الصابيء - تحقيق د. محمد حسين الزبيدى ص ٢٩).

(٧٢) المنتزع - ص ٢٩- ٣٠

(٧٣) المصدر نفسه - ص ٣٠.

(٧٤) نسب بني بويه: ابوشجاع بويه فناخسرو بن ترام بن كوهي بن سيروزيل الاصغر بن شيره كذه بن شيروزيل بن ستادر بن بهرام جور الملك بن يزد جرد شاه بن سيسن فرو بن شيروزيل بن ستازر بن بهرام حور الملك بن يزدجرد الملك بن هرمز الملك كرمانشاه بن سابور الملك سابور ذي الاكتاف بن هرمز الملك بن نرسيى الملك بن بهرام الملك بن بهرام بن هرمز الملك سابور بن اردشير الجامع بن بابك بن ساساره الاصغر بن بابك بن ساساره الأكبر.
(الاكمال فى رفع الأرتياب عن المؤتلف والمختلف من الاسماء والكنى والانساب - ابن ماكولا ٣٧٢/١. البداية والنهاية - ابن كثير ١٨١/١١

(٧٥) المنتزع - ص ٣٣.

مايكتفى به(٧٦)، وقبائلهم العالية الخطر(٧٧) التى يفخرون بها، اربع وكلها تسكن السهل. اذ ليس للجيل مسكن في الجبال:

فأولها واشرفها: قبيله الملوك التي يقال لها (شاهانشاه باوند). وهم اجداد (هروسندان بزبيرداد) ملك الجيل.

ومسكنهم في الناحية المعروفه بداخل ... وفي عظمائهم شاجميل، وشهراكون، ابناهر سندان بن بيرداد بن مرذوابج وشمكير اما ديار بن وددامناه، وسيرخ بن ليلى، واسباهي بن اجريار وبامنصور، واسفهد وست من ابناء السكروان، وغيرهم.(٧٨).

والقبيله الثانيه: قاراوند منسوبه الى قار أحدهم. وهم يرجعونه في انسابهم وقدمهم الى عصبه هروسندان ... وسكنهم ايضا بناحية (داخل).(٧٩).

والثالثه: قبيله كيلان اداوند. وكان كيلان اداوند الذي ينسبون اليه رجلا مبرزا في الشجاعه وأبوه طاوى في خراسان الى بلد الجيل(٨٠).

والرابعة: قبيله هسبتاوند وهم منسوبون الى بيجاسب بن حسنويه، وكان له خطر كبير واجتمع مع دافع بن هرثمه.(٨١)

كذلك تحدث لنا عن مركز الجيل القديم. وأول ملوكهم. بقوله: «واما الجيل، فمركز ملكهم القديم الناحيه المعروفه بداخيل وأول من ذكر لنا من ملوكهم، بيرداد والدهر وسندان، ولما مضى لسبيله انتصب في موضعه ليلى بن شهدوست، والدسترج وهو ابن عمه من عصبته، وولى الملك بعده، هروسندان بن بيرداد.(٨٢).

---

(٧٦) يقصد في الاقسام الأولى من كتابة هذا - وهو مفقود.

(٧٧) الخطر - القيمة ، المكانة ، الجاه

(٧٨) المنتزع ص ٣٣- ٤٠

(٧٩) المصدر نفسه ص ٤٤.

(٨٠) المصدر نفسه ص ٤٤

(٨١) المصدر نفسه ص ٤٤

(٨٢) المصدر نفسه ص ٣٥.

والصابيء في كتابه هذا، قدم لنا صوره - لابأس بها وان تكن ناقصه لفقدان اجزاء كبيرة من مؤلفه هذا - عن انساب الديلم، والجيل وبالتالي عن البويهيين. اضافة الى التراجم العديده التي زخر بها كتابه، اضافه الى حديث عن اسلام هؤلاء القوم(٨٣)، كذلك عن المعارك التي حدثت بينهم وبين اعدائهم.(٨٤).

أما مصادره - فهي قليلة قلة ما تحت ايدينا من هذا الكتاب ومن رواته:

١ - احمد بن علي العماري الطبري المعروف بالعلوي.(٨٥)
٢ - محمد بن أمير الطبري، الزيدي.(٨٦).

اما مصادره المكتوبه فقد اعتمد عليها دون ذكرها كقوله :

(وقد تضمنت التواريخ في خبر مقتله ما نحن نذكر جملته ...»(٨٧)،

وكقوله:

«وبين يديك بعض ما وقع الينا من الاخبار في ذلك العصر..»(٨٨)

أما الرواة الذين أخذ عنهم الشعر منهم :

١ - الحسن بن علي.(٨٩)
٢ - أبو الحسن علي الناصر.(٩٠)
٣ - محمد بن احمد الوراق الجرجاني.(٩١).

(٨٣) المصدر نفسه ص ٣٨
(٨٤) المصدر نفسه ص ٤٠، ٧٣
(٨٥) المصدر نفسه ص ٢٦، ٣٥
(٨٦) المصدر نفسه ص ٢٨.
(٨٧) المصدر نفسه ص ٤٨
(٨٨) المصدر نفسه حتى ٤٥
(٨٩) المصدر نفسه ص ٥١ -٢
(٩٠) المصدر نفسه ص ٥٥ -٦، ٥٧، ٥٨.
(٩١) المصدر نفسه ص ٧٦ -٨٢

ومنهج الصابيء في مؤلفه هذا، هو اتباعه المنهج الموضوعي حيث نجده يتحدث عن موضوعات عديده لها صلة بعضها ببعض.

فعند حديثه عن موضوع مساكن الديلم والجيل(٩٢)، يسهب في الحديث تحت هذا الموضوع عن نسبهم، وعاداتهم، وظروف معيشتهم وطبيعة بلادهم، وكذلك عن الصفات التى كانوا يتميزون بها.(٩٣)

بعد هذا الموضوع ينتقل الحديث عن الموضوع الذي يليه بنفس الاسلوب الذى أتبعه في الفصل الذى سبقه.

والصابيء لم يسر على المنهج الحولي الذي اتبعه سابقوه أو معاصروه، ولهذا لم يذكر السنين لتحديد زمن الحوادث الا في حالات قليلة.(٩٤)

ومن طرق الاسناد التي اتبعها عند أخذه من رواته مباشرة استعمال (حدثنى ....). أو اجازه استعمال (أخبرني .....) بشكل مرن دون التقيد بطريقه المحدثين. كقوله:

حدثني محمد بن أمير الطبرى الزيدى قال.... (٩٥).

أو - أخبرنى احمد بن على العمارى الطبرى قال.... (٩٦).

وهناك طرق أخرى أتبعها في الاسناد، ولكن بصورة قليلة كقوله :

- يقال... (٩٧)
- اتفقت الروايات على ان... (٩٨)
- قالت طائفة... (٩٩).

---

(٩٢) المصدر نفسه ص ٢٩.

(٩٣) المصدر نفسه ص ٣١ -٢

(٩٤) المصدر نفسه ص ٤٠ سنة ٤٠هـ، ص ٤٩ سنة ٢٨٦هـ، ص ٥٨ ٣٠٤هـ، ص ٦٧سنة ٣٥٠هـ، ص ٧٦ سنة ٣٠٩هـ.

(٩٥) المصدر نفسه ص ٢٨.

(٩٦) المصدر نفسه ص ٣٥

(٩٧) المصدر نفسه ص ٥٧

(٩٨) المصدر نفسه ص ٧٣

(٩٩) المصدر نفسه ص ٦٠

وهكذا قدم «كتاب التاجي» صورا حيه عن تاريخ الديلم والجيل ولا يملك قارؤه سوى ابداء الاسف على ضياعه، وعسى ان تكشفه الايام وعند ذلك تتكشف لنا جوانب كبيرة عن هؤلاء القوم، بما فيهم من تناقض ومن حيويه.

نعود هنا لاستكمال حديثنا عن تاريخ الانساب (التراجم) فنقول:

ان سياده النظرة النسبيه في العلاقات الانسانيه باعتبارها قوة محركه في التاريخ. قد توغل الاهتمام بالنسب الى كتب التراجم.

والتراجم(١٠٠) - هي الكتابه عن كل من اشتهر بالعلم، والمعرفة حتى ولو اشتهر بحديث واحد فقط، رجلا كان أو امرأة، يدونون تاريخ مولده، وأصله، ونسبه، والبلاد التي تجول فيها، والعلماء الذين اخذ عنهم، وما حدث له في حياته، وتاريخ وفاته بالشهر بل باليوم يدورون على الناس فى بيوتهم، وعلى العلماء في بلادهم، يأخذون ذلك عن الرجال، والنساء، بل وحتى عن الاماء، ويسندونه اليهم، ويتشددون في الرواية والسماع، وقد عنى المحدثون بوجه خاص في هذه التراجم لمعرفة احاديث الرسول الصحيحة بأسانيدها، وروايتها خلال العصور.

وقد نشأ عن ذلك علم (الجرح والتعديل) في نقد كل ماكانوا يسمعونه فألفت الكتب في نقد المحدثين، وبيان الصادقين منهم والكاذبين(١٠١)

وأخذت التراجم بمرور الازمنة تتباين محتوياتها، تبعا لموضوع البحث والناحيه التي يعالجها المؤلف منه، والعنصر المشترك الوحيد المنتظر وجوده في التراجم كافه، ماعدا أقدمها، هو تواريخ وفيات الاشخاص المترجمين، التى كانت عادة معروفة أو يمكن استنتاجها.

وتاريخ الوفاة هو التاريخ الثابت في حياة الشخص، أما تاريخ الولادة فقلما كان يعرف

---

(١٠٠) التراجم - جمع ترجم، والتُرْجُمان، والتَرْجُمان - المُفسّر للسان. وقيل هو الذي يترجم الكلام، أي ينقله من لغة الى لغة أخرى.

«لسان العرب - ابن منظور ٣٣٢/١٤- ترجم، فصل التاء، حرف الميم» وتطور مدلول هذه الكلمة الى الكتابة عن كل من اشتهر بالعلم والمعرفة.

(١٠١) موجز تاريخ الحضارة العربية - د. ناجي معروف، د. عبدالعزيز الدوري ص ٢٧١ -٢.

الا في حالات بعض الشخصيات، بل ان كثيرا من هؤلاء لم يكن يعرف تاريخ ولادتهم، وهذا التاريخ لا يعرف عادة الا اذا أخبر به المترجم له نفسه.

وتبدأ كتب التراجم عادة بذكر ولاده المترجم وتنهيها بذكر وفاته وهذا هو النظام المألوف في التراجم الاسلامية. (١٠٢) وفي كثير من الاحيان يذكر تاريخ الميلاد والوفاة في بداية الترجمه والراجح ان المؤرخين اعتادوا ذكر ترجمه أي شخص تبعا للسنة التي توفي فيها(١٠٣).

أما ذو المحتد والنسب الاصيل، فكثيرا ما تبدأ تراجمهم ببعض الملاحظات عن النسب، وقد تكون هذه الملاحظات مطوله، كما هي الحالة في كتابة سيره الرسول (صلى الله عليه وسلم) او بعض الخلفاء، والامراء والوزراء مثال ذلك كتاب نشوار المحاضره واخبار المناكره للتنوخي

ملاحظة:

لثبت بعض المصادر والمراجع الرجوع الى فقرة «مصادر ترجمة المؤلف فقد اوضحنا هذه المصادر والمراجع بشكل كامل ودقيق والتى استفدنا بكثير منها في هذا البحث ..

والله الموفق .

(١٠٢) نجد ذلك سائداً في التراجم التى اوردها الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) في كتابه (تاريخ بغداد).

(١٠٣) روزنتال - علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٤٤

قبيلة بكر بن وائل

وحروبها في الإسلام

د/ رمزية محمد الأطرقجي
مركز احياء التراث
جامعة بغداد

مقدمــــة:

تعد قبيلة بكر بن وائل من أعظم القبائل المحاربة، وفيها الشهرة والقوة وهي من القبائل التي تفرعت منها جملة قبائل ولذا عرفت بـ (أم القبائل). كان لها شأن معروف عند ظهور الاسلام، وقد تركت ديارها القديمة تهامة على أثر حروب كثيرة إلى اليامة يرد ذكرها لأول مرة فى القرن الرابع الميلادى، اذ كانوا في ذلك العهد يخرجون من البحرين واليامة ويغيرون هم واحلافهم من بني تميم وبني عبد القيس على بلاد فارس المجاورة لهم، فقد غزت هذه القبيلة تخوم بلاد فارس في عهد شابور حوالي ٣٣٠م.

عاش بنو بكر في كنف أهل اليمن في القرن الخامس الميلادى، وفي منتصف هذا القرن نجح حجر آكل المرار وهو أمير من كندة في جمع شمل القبائل العربية التي تسكن وسط جزيرة العرب ومنها بكر وتغلب، ثم انفصم عرى هذا الحلف وأصبح كليب وائل سيد بكر وتغلب الذى قتل من قبل جساس بن مرة فنشبت لذلك حرب البسوس بين بكر وتغلب حوالي سنة ٤٩٠م واستمرت هذه الحرب أربعين سنة ثم أصلح بينهما المنذر الثالث ملك الحيرة - وبذلك انتهت حرب البسوس حوالي عام ٥٢٥م.

ونزحت تغلب عندئذ إلى أرض الجزيرة بينا بقيت بكر في حمى اللخمينيين بالحيرة وساعدوهم في حروبهم ضد الغساسنة بالشام وانتصروا كذلك للنعمان بن المنذر آخر امراء اللخميين فاحتمى هو وأسرته ببني شيبان عندما استدعاه كسرى ابروزيز للمدائن .

لقد عاشت قبائل بكر في منطقة من اخصب المناطق وأهمها فهي في تخوم العراق وعلى نهر الفرات تأخذ المدد من الصحراء وتتقى هجمات الغزاة من القبائل وغزوات الفرس لذا فقد جمعت الروح الوثابة وقوة العزم والشجاعة إلى جانب الصدق والوفاء، وانهم جربوا الحروب مرارا مع جيوش كسرى وكانوا السيف القاطع الذى قطع كل يد كسرويه امتدت إلى عرب العراق وعرب الجزيرة.

نسبها:

وهي قبيلة عربية عظيمة من القبائل المستعربة(١)، من نسل اسماعيل عليه السلام وهي بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمى بن جديلة بن اسد بن ربيعة بن نزار بن معد من العدنانية(٢)، ومن ابناء عمومتهم تغلب وعنز، ومن بطونهم(٣) يشكر بن بكر بن وائل(٤)، وبدن والحارث، وجشم، وعلى، وغنم ومن بطون بكر المهمة ايضا ذهل وعجل وحنيفة وقيس وشيبان(٥)، وقيس بن ثعلبة كانت منازلهم بين البحرين واليمامة(٦)، ومن قيس خرج كثير من الشعراء منهم اعشى قيس والمرقش الاكبر والاصغر، وطرفة بن العبد(٧)، وبنو شيبان(٨) بن ثعلبة وكانت منازلهم في العراق.

مواطنها:

عاشت قبيلة بكر في تهامة واليمن واليمامة والبحرين ومنها إلى اطراف سواد العراق وناحية الأبلة إلى هيت وما والاها(٩)، وقد تقدموا شيئا فشيا في العراق، فقطنت دجلة في المنطقة المدعوة الآن باسمهم ديار بكر(١٠)، واخذت تغير على الدولة الساسانية.

(١) أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر جـ ١٠٤/١.

(٢) ابن حزم: جمهرة ص ٤٥٢، والقلقشندى، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ١٧٨، وابن خلدون: مقدمة جـ ٦٢٥/٢، وكحالة: معجم القبائل جـ ١ مادة بكر، وابن قتيبة: المعارف، والطبعة الأولى ، ص ٤٣ وابن دريد: الاشتقاق ص ٣٣٥.

(٣) ابن عبدربه: العقد الفريد جـ ٣/ ٣٦٠ - ٣٦٣

(٤) دائرة المعارف الاسلامية: مادة بكر.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الحموى: معجم البلدان جـ ٢/ ٨١١

(٧) دائرة المعارف: مادة بكر، وابن دريد: الاشتقاق ص ١٤٠ - ٣٤١

(٨) البغدادى خزانة الادب جـ ٤١٩/٤، وابن دريد: ص ١٤٠-١٨٤-٣٤١

(٩) البكرى: معجم ما استعجم جـ ٨٦/١ الطبعة الأولى (القاهرة) ١٩٤٥.

(١٠) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٦٩ ، وكحالة: معجم جـ ١ مادة بكر. وتقع الجزيرة بين دجلة والفرات، وتشمل على بلاد ديار بكر، ومضر، وربيعة (القزويني) : اثار البلاد واخبار العباد ص ٣٥١. فقد سمى العرب ما بين النهرين بالجزيرة بعد فتحهم العراق سنة ١٦هـ وقسموها الى اربعة اقسام. كان القسم الممتد على سواطى الفرات هو ديار بكر وقاعدته امد (ل. أ. سيدبو) تاريخ العرب العام ص ١٢٥

وكانت ديار بكر جزءا من ديار ربيعة التي كانت تشمل ايضا ارض تغلب وقد استقرت تغلب في الجزيرة منذ حرب البسوس[١١]، فجاورتها بكر التي كانت المشاكل قائمة ومستمرة بينهما[١٢].

وجاء في معجم القبائل، انه كان للنعمان بن المنذر كتيبة يقال لها الصنائع وهم صنائع الملك واكثرهم من بكر بن وائل[١٣] في الحيره.

وهناك قول أخر هو أن بكر بن وائل سكنت أرض العراق مع غيرها من القبائل العربية من ربيعة ومضر في أزمان متطاولة تمتد إلى ما بعد سيل العرم[١٤]، وتقدمت قبائل عربية غرب الخليج العربي باتجاه الابلة ثم استقرت في الأحواز يذكر الطبرى بطونا من بكر بن وائل، من عجل وسدوس وشيبان وبنو حنظلة[١٥].

والاماكن التي سكنتها بكر في الجزيرة هي آمد وكانت تعرف بآمدة وهي الحاضرة التي تعرف الآن بديار بكر كما ان اسمها الرسمي قرة آمد أى آمد السوداء لان اسوارها من البازلت الاسود، ومدينة اسعرد، ودينسيره وحصن كيفا، وحيزان ورأس عين، وماردين وميافارقين[١٦].

---

(١١) الاستقاق: ص ٣٣٨، وحرب البسوس هى الايام التى بقيت تتوالى بين بكر وتغلب ، وهما اعظم قبائل ربيعة شأنا ودامت هذه الحروب اربعين سنة - نشبت في العسر سنين الأخيرة من القرن الخامس الميلادى على اثر مقتل كليب وائل وهو وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن غنم بن تغلب، وكليب لقب له ويضرب المثل بانفته (ابن الاثير: الكامل، جـ١/٥٢٣، القلقشندى نهاية الارب ص ٩٥ وبكاريوس: نهاية الارب في اخبار العرب ص ٩٥، مرسيليا ١٨٥٢، وابن حبيب: مختلف القبائل ومؤتلفها ص ٢١ والتبريزى: شرح ديوان الحماسة جـ ١٩٧/٢ والالوسي: بلوغ الارب جـ ١٥١/٢.)

قتل كليب لغطرسته وقاتله جساس بن مرة من بني شيبان وهو سيد بكر وكان كليب قد تزوج اخت جساس، فاستعد المهلهل اخو كليب لحرب بكر، انظر التفاصيل في العقد الفريد لابن عبد ربه: جـ ٢١٣/٥، وجواد على المفصل في تاريخ العرب جـ ٤٩٦/٤.

(١٢) الاصفهاني: الأغاني جـ ٤٢/١١

(١٣) كحالة: معجم جـ ٩٥/١

(١٤) رفيق العظم: اشهر مشاهير الاسلام جـ ٣٤٤/٢

(١٥) الطبرى : تاريخ جـ ٥٩٣/٣.

(١٦) دائرة المعارف الاسلامية

ومن الجهات التي يطلق عليها ديار بكر وتغلب تارة وديار ربيعة تارة أخرى مدينة نصيبين[١٧].

ويذكر المقدسي انه كان هناك قسم من بكر وقضاعة وكلب فوق الانبار[١٨]، ويؤكد البلاذري ذلك أي انه كان لبكر وقضاعة احياء بالسوق الذى فوق الانبار بالقرب من مساكن تغلب[١٩]، من هذا الشعر:

صبحنا بالكتائب حي بكـــــــــر ... وحيا من قضاعة غير ميـــــــــل
ابحنا دارهم والخيل تــــــــردى ... بكل سميدع سامي الذلـــــــيل

وسكنت بكر بن وائل البصرة وهي القبيلة الثالثة من القبائل التي سكنت البصرة وهي: تميم، الأزد، وبكر، وقد نزحت بكر بن وائل إلى البصرة عند تأسيسها سنة ١٦هـ وتقدمت مع سويد بن قحطبة حين انظم إلى عتبة بن غزوان ومعها تميم[٢٠]، ووصفت بكر بانها اطوع من تميم والأزد للحكام، من حديث جرى بين المغيرة بن شعبة وبنت النعمان بن المنذر حين قال لها: أى العرب أحب إلى أبيك قالت:اطوعهم له: قال: ومن أولئك، قالت: بكر بن وائل[٢١].

وكان مالك بن مسمع من بكر بن وائل[٢٢]. وهو من أحسن بيوتات البصرة[٢٣]، وحين

(١٧) المصدر السابق.

(١٨) المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٤٦

(١٩) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٥٠ - ص ٢٥١.

(٢٠) ياقوت: معجم البلدان: جـ ٤٣١/١ وعن تأسيس البصرة سنة ١٦هـ جاء في الطبرى جـ ٣ حوادث سنة ١٤هـ ان عتبه بن غزوان نزل البصره سنة ١٤هـ وقيل ان البصرة وحدت في سنة ١٦هـ بالكامل لابن الاثير جـ ٢٢٢/٢ بوهامشة شرح القرماني ان البصره بنت سنة ١٧هـ.

(٢١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣٤/٣

(٢٢) البلاذري: انساب جـ ٢٥٩/٥

(٢٣) الهمداني: كتاب البلدان ص ١٩٠، وكان مالك بن مسمع ينعم عند بكر بن وائل بمنزلة عاليه تدل على عليها هذه الابيات لشاعر ازدى:

فردّ الخلافة ياابن الزبيـــــــر ... الى اهلها قبل ان تخلـــــــع
اضاف عليك زياد العـــــــراق ... واخشى عليك بن مسمـــــــع

شارل بلات: الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ص ٦٥ دمشق ١٩٦١).

تولى زياد بن ابيه البصرة سنة ٤٥ هـ جعل منطقة البصرة من حيث التنظيم القبلي اخماسا وهم العالية، وبنو تميم، وبكر بن وائل، وعبدالقيس، والازد، وكندة. وكان رؤوساء الاخماس هم رؤوساء هذه القبائل[٢٤].

وكان بالبحرين خلق كثير من العرب من عبدالقيس وبكر بن وائل، وتميم[٢٥]، مقيمين في باديتها وكان عليهم على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) المنذر بن ساوى وسكنت بكر بن وائل ايضا بلاد فارس وبخاصة اقليم خراسان[٢٦]، وان سابور ذى الاكتاف اسكن قبائل من بنى تغلب وعبدالقيس وبكـر بن وائل اسكنهم كرمان وتوج والاحواز، وقيل بلاد السوس[٢٧].

اما وديان بكر ومعها تغلب فهي وادى شبيث والأحصى ويقول في ذلك المهلهل حين استعد لقتال بكر[٢٨]:-

وادي الاحصى لقد سقاك العـــدى   فيض الدموع باهلة الدعـــس

ويقول جساس حين طلب منه كليب شربة من ماء قبل ان يموت: هيهات تجاوزت شبيثا والاحصى[٢٩].

أما مياه بكر في العراق فهي ذو قار بالقرب من الكوفة والحنو وسلمان والشيطان[٣٠] وكلاً وتان في البصرة ومن ديانها، الاشاقّي في بلاد شيبان والثرثار الذى أصبح لتغلب، ومن جبالها، اسود العُشَاريات والطور البرى وهولشيبان، وهناك مواضع أخرى مشتركة بينها وبين تغلب[٣١].

(٢٤) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٧٤

(٢٥) الخضرى: تاريخ الامم الاسلامية ص ٢٢

(٢٦) دائرة المعارف الاسلامية: مسادة بكر استوطنت بكر بن وائل البحرين قبل الاسلام وخاصة بعد يوم «قضه» وهو اخر ايام حرب البسوس (البكرى: معجم ص ٨٥ -٨٦)

(٢٧) المسعودى: مروج ص ٢٨٤ والازدى: تاريخ الموصل ص ٣٨١

(٢٨) ابن الاثير: جـ ٥٢٣/١ (والدعسى) في منازل بكر

(٢٩) السويدى: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص ١٠٦ وشبيث والاحصى غديران في منازل ربيعة بنجد (العقد الفريد جـ ٢١٣/٥ ومابعدها.

(٣٠) الشيطان: وادبان لبكر بن وائل، البكرى، جـ ١٠٢/٢، وجاد للولى، ايام العرب ص ٢١٧.

(٣١) المصدر السابق.

ديانتها قبل الإسلام

كانت بكر تعبد الأصنام في الجاهلية ومن أصنامها أوال وهذا الأسم كانت تعرف به البحرين في الزمن القديم(٣٢)، ويذكر ابن الكلبي أن اوال صنم لبكر وتغلب(٣٣)، والكعبات، هو بيت كان لربيعة يطوفون به، وقيل انه كان لبكر وتغلب واياد بسنداد(٣٤)، قال الاسد بن يعفر(٣٥)،

اهل الخورنق والسدير وبـــــارق　　　والبيت ذى الكعبات من سنـــــداد

والمحرق صنم لبكر بن وائل(٣٦)، وكان يعبده بنو عجل بنوع خاص، وكانوا قد جعلوا لكل حي من ربيعة له ولد(٣٧).

ومن اصنام بكر - عوض(٣٨)، وكان فريق من بكر، هم، تيم اللات وضبيعة وبعض بنو عجل يعتنقون النصرانية(٣٩).

وكتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى بكر بن وائل يدعوهم للاسلام، اما بعد فاسلموا تسلموا وكان الذى اتاهم بهذا الكتاب ضبيان بن مرثد السدوسي(٤٠)، وقدم وفد من بكر بن وائل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيه بشير بن الخصاصية(٤١)، وعبدالله بن مرثد،

(٣٢) البكرى: معجم مااستعجم، جـ١/٦٩

(٣٣) ابن الكلبى: الاصنام ص ١٠٧

(٣٤) سنداد موضع بناحية الكوفة، ابن هشام: سيرة النبى جـ ٩٤/١، وجاء في معجمها أستعجم جـ = /٦٩ ان ذو الكعبين، بيتنا بسنداد عبدتها قبيلة اياد فقط في الزمن القديم.

(٣٥) على ابراهيم: التاريخ الاسلامى، ص ١٥٤

(٣٦) ابن الكلبى ، ص ١١١

(٣٧) البكرى جـ ١ /٦٩

(٣٨) الالوسي : بلوغ الارب ، جـ ٢١٠/٢، وعلى ابراهيم: التاريخ الاسلامى ص ١٥٦

(٣٩) دائرة المعارف الاسلامية: مادة بكر

(٤٠) ابن سعد جـ ٢٨١/١، الاستعاب جـ ١٧٢/١، وابن كثير، السيرة النبوية جـ ١٧٨/٤.

(٤١) والخصاصيه امه، وهو بشير بن معبد السدوسى، كان اسمه في الجاهلية زحما فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): انت بشير، الاستعاب جـ ١٧٢/١

وحسان بن خوط فأسلموا وعادوا إلى ديارهم(٤٢)، وقال رجل من ولد حسان يفتخر باسلام أبيه(٤٣):

انا ابن حسان بن خوط وأبـــــــي رسول بكر كلها إلى النبـــــــي

وقد وفد اخر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعه (حريث بن حسان الشيباني) فاسلم على يديه وكان معه عبدالله بن الاسود بن شهاب بن عوف بن عمرو بن حارث بن سدوس، وكان ينزل اليامة فباع ماكان له من مال باليامة واستقر بالمدينة(٤٤)، وحين قدم على الرسول كان برفقته قيلة بنت مخرمة، وكان لها ولد يدعى حزاما ذكرت انه قاتل مع النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم الريذه ثم ذهب يشــار من خيبر فاصابته حمّاها فمات(٤٥).

حروب بكر بن وائل في الاسلام مع القبائل الاخرى:

١ - حروبها مع قبيلة خزاعة:

بالاضافة إلى ماكان بين بكر وتغلب من حروب قبل الإسلام، كان ايضا بينها وبين قبائل اخرى حروب عرفت بايام مشهورة، ثم جاء الاسلام وحجز ماكان بين بكر وخزاعة من عداء وتشاغل الناس بالإسلام. فلما كان صلح الحديبية بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، وبين قريش وكان من بنود هذا الصلح، احلال السلام بين المسلمين وقريش مدة عشـر سنوات وفيا اشترطوا ايضا على الرسول صلى الله عليه وسلم، وشرط لهم، أنه من أحب ان يدخل في عهد رسول الله وعقده دخل فيه ومن أحب ان يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه. فدخلت بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة في عقد رسول الله(٤٦). فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو

---

(٤٢) ابن سعد: جـ ٣١٥/١، وابن كثير السيرة جـ ١٧٨/٤

(٤٣) ابن سعد: الطبقات جـ ٣١٥/١

(٤٤) وحين دخل المدينة كان معه جراب من تمر فدعا له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالبركة، المصدر السابق.

(٤٥) المصدر السابق

(٤٦) ابن هشام : جـ ٤/٤، ابو يوسف : الخراج، ص ٢١٠، الطبري : جـ ٤٣/٣

الديل، وهم من بكر بن وائل وانضم عدد من رجال قريش في صفوف بكر[٤٧] وأصابوا من خزاعة ثأرا ثم خرج نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاخبره بما اصاب منه وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، وكان ذلك مما هـاج فتح مكة[٤٨] فارسلت خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاخبره بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبني بكر، وطلب النصرة من المسلمين وانشد عنه ابياتا منها:[٤٩].

يارب اني ناشد محمـــــــدا   حلف ابيه وابينا الاتلـــــدا

فانصر رسول الله نصرا ابـــــدا   وادع عبدالله ياتـوا مـــــددا

في فيلق كالبحر يجرى مزيـــــدا   ان قريشا اخلفوك موعـــــدا

فقال الرسول الكريم: نصرت ياعمرو بن سالم[٥٠].

٢ - حروبها مع قبيلة تميم:

استمرت نيران الحرب بين بكر وتميم، وكانت بكر قد جرت على ان ترعى ابلها في أرض تميم التي تجاور أرضها وكان هذا يقنعها في الاغارة على ديارها مما أدى إلى احتدام الخصومة بين هاتين القبيلتين[٥١]، ومن أيامهم مع تميم في الاسلام يوم القرقيط[٥٢]، ويوم الشيطين[٥٣]، فلما ظهر الاسلام قبل ان يسلم أهل نجد والعراق سارت بكر بن وائل إلى السواد، وكانت قد تركت الشيطين لانها اجدبا ونزلوا موضع يقال له (لعلع) ولما علمت بكر بخصب أرضهم - الشيطين - اجمعوا على الاغارة على بني تميم حتى صبحوهم وهم لا يشعرون ورئيسهم يومئذ بشر بن مسعود بن خالد بن ذى الجدين، فقتلوا بني تميم قتلا ذريعا واخذوا أموالهم وقيل قتل

(٤٧) ابو يوسف: ص ٢١٢

(٤٨) ابن هشام : جـ ١٠/٤

(٤٩) محمد محمد ابو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القران والسنة جـ ٢٦٤/٢، وكان ذلك سنة ٨ هـ ولم يمضى على صلح الحديبة الا عامين.

(٥٠) المصدر السابق .

(٥١) ابن عبد ربه: جـ ٢٠٤/٥-٢٢٦، ودائرة المعارف، مادة بكر

(٥٢)كحالة: معجم جـ ١ مادة بكر

(٥٣) جـ ١٠٢١/٢، وجاد المولى: ايام العرب ص ٢١٧

في هذا اليوم ستمائة رجل فوفد وفد تميم على النبى (صلى الله عليه وسلم) فقالوا: ادع الله على بكر بن وائل، فأبى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال رشيد بن وميض العنزى[٥٤]:-

وماكان بين الشيطين ولعلـــــــــــع	لنسوتنا الا مراجع أربـــــــــــع
فجيئنا بجمع لم ير النـــاس مثلــــه	يكاد له ظهر الوريعة يطلـــــــع
فخلوا لنا صحن العراق فانـــــــه	حمى منهم لا يستطاع منّـــــــع

ونرى قبيلة تميم تتضامن مع قبيلة بكر في حروبها ضد الفرس في معركة ذى قار حتى أن أسرى من تميم يقربوا من مئتي أسير طلبوا القتال مع بكر ضد الفرس.

ولبكر أيام مع قبائل اخرى ولكن نكتفي بهذا لنذكر مواقفها وحروبها ضد الفرس وأهم الشخصيات التي ظهرت فى بكر بن وائل وبطونها والتي كان لها ادوار في مختلف المجالات على مسرح التاريخ.

ابرز شخصيات بكر بن وائل - وحروبها ضد الفرس:

كان في فرع بني شيبان كثرة من الرؤوس والاشراف، وبنو شيبان بن ذهل بن ثعلبة ... بن بكر بن وائل من أوسع بطون بكر بن وائل وأكثرها شعوبا وكانت لهم كثرة في صدر الاسلام شرقي دجلة في جهات الموصل[٥٥]، وأكثر ائمة الخوارج في ربيعة منهم، وسيدهم في الجاهلية مرة بن ذهل بن شيبان، ومن بني شيبان هانيء بن مسعود صاحب يوم ذي قار، وقيس بن مسعود سيد بكر وابنه بسطام بن قيس (من بني ذى الجدين)، وجساس (قاتل كليب) والمثنى بن حارثة الذى فتح سواد العراق أيام أبي بكر وعمر، وأخوه المعنى بن حارثة وعمران بن حطان من اعلام الخوارج[٥٦]، والحوفزان بن شريك - مطر بن شريك (ومن ولده معنى بن زائدة، ويزيد بن مزيد) وشبيب بن يزيد الخارجي، والضحاك بن قيس الخارجي[٥٧]، وكان

(٥٤) البكرى: جـ ١٠٢١/٢

(٥٥) ابن خلدون جـ ٦٢٧/٢

(٥٦) المصدر السابق ، وديوان الاعشى ص ٤٩

(٥٧) ابن خلدون جـ ٦٢٧/٢

الضحاك قد بويع أيام مروان بن محمد - على مذهب الصفرية، وملك الكوفة وغيرها وبايعه بالخلافة جماعة من بني أميـة ومنهم سليان بن هشام بن عبدالملك وعبدالله بن عمر بن عبدالعزيز.[٥٨]

ومن فروع قيس بن ثعلبة ... بن بكر بن وائل [الشاعر طرفة بن العبد[٥٩]. والاعشى (ميمون بن قيس)، فقد عرفوا بنو قيس بن ثعلبة بالفصاحة].

وساتناول الكلام عن بعض الشخصيات المهمة والتي ابلت بلاء عظيا في الحروب ضد الفرس منذ أزمنة تاريخية بعيدة.

ولم تكن نساء بكر اقل شجاعة وبلاءا في الحروب من رجالها فكّن في يوم قبضة (تحالق اللمم) يحملن المـاء لقـي الجرحى في ساحة القتال، وكُن يهوين بالهراوة على العدو[٦٠]، وسيأتي الكلام عن موقف المرأة العربية في حروب العرب مع الفرس .

ومن اهم شخصيات بكر بن وائل التاريخية:

١ - هانيء بن مسعود بن عامر بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، وهو من أوسع بطون بكر بن وائل وأكثرها شعوبا، وهاني' هو الذى منع حلقة النعمان من ابرويز وادى هذا إلى

(٥٨) ديوان الاعشى ص ٤٩

(٥٩) هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل (ديوان طرفة بن العبد) ص ٥

وكان اسم طرفة عمرو، وهو اشعر الشعراء بعد امرئ القيس (البغدادى): خزانة الادب جـ ٤١٩/٢، والاشتقاق ص ٣٥٧.

(٦٠) وجاء في ديوان طرفه بن العبد، يصف شجاعة نسا بكر بن وائل في يوم -تحلاق اللمم - وسمي بهذا الاسم لان الحارث بن عباد شيخ بكر، أمر بني بكر ان يحلقوا رؤوسهم ليكون علامة النساء فيسقين من حلق راسة، ويضربن بالهراوة من كان خالف ذلك، وكان هذا اليوم لبكر على تغلب ، وفى هذا اليوم يقول طرفه بن العبد:

سائلوا عنا الذى يعرفنـــــــــا ــــ بقوانا يوم تحلاق اللمــــــم

يوم تبدى البيض عن اسواقهـــــا ــــ وتلف الخيل اعراج النعـــــم

(ديوان طرفه ص ١٢٧)

وقوع معركة ذي قار[٦١]، وتفصيل خبر الواقعة، جاء ذلك في العقد الفريد لابن عبدربه[٦٢]، فقد ذكر أن النعمان بن المنذر[٦٣]، لما قتل بن زيد العبادي[٦٤] وكان من تراجمة كسرى سار ابنه زيد بن عدي إلى كسرى، وكان أيضا من تراجمة كسرى فعزم على الانتقام من قاتل أبيه، ووشى على النعمان إذ دخل يوما على كسرى، وكان قد علم بطلبة من النساء له ولأهله وولده وأخذ يذكر أمامه نساء آل المنذر وجمالهن فرغب كسرى بمصاهرة النعمان، وطلب زيد من كسرى أن يرسله إلى النعمان يطلب منه أن يرسل إليه بابنته، وقيل باخته، فلما قرأ النعمان كتاب كسرى قال ليزيد: اما لكسرى في مها السواد وفارس كفاية حتى يتخطى إلى العربيات؟ وأنت تعرف ما على العرب في تزويج العجم من الفظاظة والشناعة ثم كتب إلى كسرى: ان الذي طلبه الملك ليس عندي، ثم عاد زيد بن عدي إلى كسرى وأخبره امتناع النعمان عن تلبية طلبه وبالغ في ذلك وطلب كسرى من النعمان الحضور إلى المدائن، فلحق النعمان ببني شيبان وأودع حلقته وهي ثمانمائة درع وسلاحا كثيرا، وجعل ابنته هند التي تسمى (حرقة) عند هاني بن مسعود الشيباني ثم رحل إلى كسرى ليرى فيه رأيه[٦٥]، فحبسه ابرويز بساباط المدائن ثم أمر به فطرح للفيلة[٦٦] وكتب كسرى إلى إياس بن قبيصة الطائي[٦٧].

(٦١) ذوقار، وادي متاخم لسواد العراق، شيخو: شعراء النصرانية، ص ٢٣، وهو بين الكوفة وواسط الزبيدي: تاج العروس، ص ٥١١، وكانت وقعة ذي قار، وقد بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) وخبر اصحابه بها فقال: اليوم انتصفت فيه العرب على العجم نصروا، العقد الفريد جـ ١٦٢/٥، وابن خلدون، المجلد الثاني ص ٣٦١، وقيل سنة ٦١١م قبل الهجرة باحدى عشر سنة، شعراء النصرانية ص ٢٣، ويذكر المسعودي ان هذه الوقعة كانت لتمام اربعين سنة من مولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بمكة بعد ان بعث، وقيل بعد أن هاجر، وفي رواية اخرى للمسعودي، ان الوقعة كانت بعد معركة بدر باشهر ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة المسعودي: جـ ٣٠٧/١

(٦٢) العقد الفريد: جـ ٥ /٩٥

(٦٣) كان للنعمان بن المنذع كتيبة عربية يقال لها الصنائع من بكر بن وائل ـ كما مر سابقا، وجاء في معجم القبائل لكحالة جـ ٩٥/٥.

(٦٤) وهو من العباديين، العباديون، نصارى من بطون وقبائل نزلوا الحيرة قبل الاسلام الكرملي: لغة العرب المجلد الثاني ص ٥١١

(٦٥) ابن عبدربه : العقد الفريد ، ٢٦٢/٥، والمسعودي: ٣٠٧/١٠

(٦٦) ابن خلدون: المقدمة المجلد الثاني ص ٣٦١

(٦٧) المصدر السابق والمسعودي جـ ٧٧/٢

وكان قد استعمله كسرى على العرب بعد النعمان - ان يضم ماكان للنعمان. فأبى هانيء الشيباني ان يسلم ذلك اليه، وهنا تتجلى الاخلاق العربية باسمى معانيها من أمانة ووفاء فقد أبى أن يخفر الذمة وامتنع من تسليم ودائع النعمان. فغضب كسرى واراد استئصال بكر بن وائل، وقدم على كسرى النعمان بن زرعه التغلبي، وقد طمع في هلاك بكر بن وائل وقال له: اقرهم، حتى اذا قاظوا جاءت[٦٨] بكر إلى ماء يقال له ذو قار، حتى اذا نزلت بكر بن وائل حنوذى قار، ارسل اليهم كسرى النعمان بن زرعة يخبرهم بين ثلاث خصال: اما ان يسلموا الحلقة واما ان يعروا الديار، واما ان يأذنوا بحرب، فقال حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي لهانيء بن مسعود: أخرج هذه الحلقة ففرقها في قومك، فأن تظفر فسترد عليك، وان تهلك فأهون مفقود فأمر بها فأخرجت وفرقت بينهم[٦٩]. وكان عامل كسرى على طف السفوان[٧٠]، قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذى الجدين، وامره ان يوافى اياس بن قبيصة، فلما ذنا قيس من بكر انسل إلى قومه ليلا فأتى هانئا وأشار عليهم كيف يصنعون، وقيل أنذر قيس قومه بقصيدة منها :

الا ليتني ارشو سلاحي وبغلتي . لمن يخبر الانباء بكر بن وائل

ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود اذا انسل إلى قومه حبسه حتى مات فى حبسه اما هانيء بن مسعود فقسم الدروع والسلاح، في ذوى القوة والجلد فى قومه وقال لهم: ملك معذور خير من منجي مغرور، المنيه خير من الدنية واستقبال الموت خير من استدباره، ولما تقارب الزحفان، أخذالناس يرجزون وهذا حنظله بن ثعلبة العجلى يقول:

ياقوم طيبوا بالقتال نفسا . اجدر يوم ان تفلوا الفرسا

وامر حنظلة ان تضرب له قبة وآلى لا يفر حتى تفر القبة، ولكي تثبت الرجال على القتال عمد إلى قطع وضن الهوادج - حزم الرحال - فسمى مقطع الوضن، وبادر إلى هودج ابنته

(٦٨) الطبرى جـ ٢/٢٠٧

(٦٩) العقد الفريد: جـ ٥/ ٢٦٢/٢٦٢

(٧٠) قيل جعله كسرى على الابله وما والاها، على ان يضمن له بكر بن وائل الا يدخلوا السواد ولا يغيروا عليه. جاد المولى: ايام العرب ص ٢٥.

ماريه وقبل (امرأته) فوقعت إلى الأرض وقطع وضن النساء فوقعن إلى الأرض وقال: ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته، وقطع يومئذ سبعمائة رجل من بني شيبان ايدى اقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف فتجالد القوم(٧١)، وضرب الله وجوه الفرس فانهزموا فأتبعهم بكر حتى دخلوا السواد في طلبهم يقتلونهم، وكان مالك بن ثعلب من بكر بن وائل أول من قتل فارسا من الاعاجم في يوم ذى قار(٧٢)، وأسرى النعمان بن زرعه التغلبي اما اياس بن قبيصة فهرب على فرسه، وكان كسرى لا يأتيه أحد بهزيمة جيش الا نزع كتفه، فلما أتاه ابن قبيصة سأله عن الجيش فقال: هزمنا بكر بن وائل واتيناك ببناتهم، فأعجب بذلك كسرى وأمر له بكسوه، ثم استأذنه بالسفر إلى أخيه قيس بن قبيصة وكان بعين التمر فأذن له، ثم أتى كسرى رجل من أهل الحيرة، فسأل: هل دخل على الملك أحد، فقالوا اياس فظن أنه حدثه خبر الهزيمة، فدخل عليه واخبره بهزيمة القوم فأمر به فنزعت كتفاه(٧٣).

ومع ان القوات التي اشتركت في يوم ذى قار كانت قليلة العدد نسبيا، فقد عد العرب هذا النصر فاتحة عهد جديد، كما أن قبائل الصحراء قد وثقت على الوقوف موقفا عدائيا وبدأت تظهر الكراهية والاحتقار للفرس ولم تعد تخشى بطشهم حتى وطأوهم بأقدامهم فى النهاية .

وتغنى الشعراء بهذا اليوم الخالد الذى كان تمهيدا لمعركة القادسية الأولى، بأنهم حاربوا الملوك وتزايد قوة القبائل وقال العديل بن الفرج العجلي(٧٤).

وماأوقد الناس من نار لمكرمـــــــة ... الا اصطلينا وكنا موقـدى النـــار
ومايعدون من يوم سمعت بــــــــه ... للناس أفضل من يوم بذى قـــار
جئنا باسلابهم والخيل عابســــة ... لما استلبنا لكسرى كل اســـوار

---

(٧١) الطبرى جـ ٢/٢١٠
(٧٢) الاستقاق : ص ٣٤٣
(٧٣) العقد الفريد : ص ٢٦٦
(٧٤) المصدر السابق

وهذا اعشى شيبان يتغنى بيوم ذى قار[٧٥]:

ونحن غداة ذى قار اقمنـــــــــا وقد شهد القبائل محلبينـــــــــا
وقد جاؤوا بها جاؤواه فلقـــــــا ململمة كتائبها طحونـــــــــا
ليوم كريهة حتى تجلـــــــــت ظلال دجاه عنا مصلتينـــــــــا

اما دور المرأة الشيبانية في معركة ذى قار فكان موقفا مشرفا فهذه ابنة القرين الشيبانية تحث رجال قومها على الاستبسال في القتال وتقول[٧٦]:

ويها بني شيبان صفا بعد صـــــف ان تهزموا يصبغوا فينا الكلـــــف

وابنة قرين هذه من فواضل نساء عصرها جزعت العجم من العطش في احدى الوقعات مع العرب ولم تقـــر لمحاصرتهم فهربت إلى (الجبابات)[٧٧]، فتبعتهم بكر وعجل[٧٨].

وتخاطب حرقة ابنة[٧٩] النعمان محرضة بني شيبان علي مقاتلة العجم تقول لعمرو بن ثعلبة:

حافظ على الحسب النفيس الارفع بمدججين مع الرماح الشـــــــرّع
وصوارم هنديـــــة مصقولـــــــة بسواعد مفتولة لم تمنـــــــع[٨٠]

---

(٧٥) البلاذرى: ص ٢١٣، وسعراء النصرانية ص ١٣٤

(٧٦) الطبرى: جـ ٢/٢١٠، وكحالة: اعلام النساء، جـ ٤/٢٠٦

(٧٧) الجبابات ، موضع قريب من ذى قار، قال الأغلب: ـ

اما الجبــابات فقــد غشينا بفــاقرات تحت قاقرنــا
يتـركـن من ناهينة ورهينـا

(٧٨) كحالة : الاعلام جـ ٢٠٦/٤

(٧٩) شيخو: شعراء النصرانية ص ٢٢-٢٣

(٨٠) المصدر السابق

وقالت تنذر بكر بن وائل في وقعة ذي قار:(٨١)

الا ابلغ بنى بكـــر رســـــولا فقد جد النفير بعنقفيـــــر
فليــت الجيش كلهــم فداكـــــم ونفسي والسريــر وذا السريــــر
كأني حين جدبهم اليكــــــم معلقة الذوائب بالعــــبور
فلواني اطقت لذاك دفعـــــا اذا لدفعتة بدمي وزيـــــرى

ويبدو من اخبار العرب ان الحرقه بعد أن قتل كسرى أباها طلبها (كسرى) وألح في طلبها فأبت الاقتران به واستجارت بحيي بكر وتغلب فاجتمعت القبائل وجرت وقائع وقالت لما استجارت ببني شيبان:(٨٢)

شيبان قومي هل قبيل مثلهـــم عند الكفاح وكرة الفرســـان
لا والذوائب بين فروع ربيعـــة ما مثلهم من نائب الحدثـــان
قوم يجيرون اللهيف من العــدى عند الكفاح ومن صروف الزمـــان
بال شيبان طفرتم في الدنـــى بالفخر والمعروف والاحســـان

واستمرت المقاومة العربية بعد ذى قار وكان غالب الوائلى وكليب بن وائل الكلبى من أبرز قادتها في الاحواز، وقطبة بن قتادة السدوسى فى منطقة الابلة (البصرة) والمثنى بن حارثة فيما بين الابلة والحيرة(٨٣).

---

(٨١) كحالة اعلام جـ ٥/٢٦١

(٨٢) شيخو: ص ٢٢-٢٣. وقيل ان هند كان قد خطبها عدى بن زيد العبادى وزير النعمان وتزوجها، وكانت معه حتى قتل ابيها. غير ان بعض المؤرخين برى ان هندا التى تزوجها عدى ليست ابنة النعمان، وانما هى امراة بدوية وان زواج عدى من هند ابنه النعمان قد بنى بعضهم على ماورد في قول الشاعر ان صلة عدى بالبيت المالك صلة زواج وقد ذكر عدى مصاهرته للنعمان في شعره

اجل الله قد فضلكم ودوني كان منكم واصهاري

وديوان عدى ص ١٤

(٨٣) الحدود الشرقية للوطن العربى، دراسة تالأيخية،جمعية المورخين والآثاريين في العراق ص ٢٣ .

٢ - ومن الشخصيات العظيمة التى ظهرت في بني شيبان ايضاً وقاتلت الفرس، هو المثنى بن حارثة(٨٤). وفد على النبى (صلى الله عليه وسلم) سنة ٩ هـ مع وفد قومه، فرضى الله عنه وارضاه(٨٥) وقيل لما عرض رسول الله نفسه على القبائل، اتى شيبان، فلقى مفروق بن عمرو(٨٦)، والمثنى بن حارثة فدعاهم، وروى عن النبى أنه تلا (قل وأتل ما حرم ربكم عليكم)(٨٧)، والاية على بنّي شيبان(٨٨).

والمثنى اول من حرك في نفس ابي بكر (رضى الله عنه) أمر العراق وهو ممن لم يتابع بكرا على ردتها وبقي وقوفه على الاسلام وكان يغير على سواد العراق على رجال من قومه فبلغ أبو بكر الصديق خبره فسأل عنه فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقرى(٨٩)، هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد وهذا المثنى بن حارثة الشيباني.

لقد أطمع المثنى أبابكر والمسلمين في الفرس وهون أمر الفرس عندهم، والظاهر ان المثنى بمجاورته لبلاد فارس وتوالى غاراته على أطراف ملكهم من جنوب العراق،(٩٠) عرف حالهم ووقف على أمورهم وعلى اضطراب حبل(٩١) دولتهم فقدم على أبي بكر ورغب اليه ان يستعمله على من اسلم من قومه ليغزو بهم أطراف فارس وسهل لديه أمرهم ورغبة بغزوهم(٩٢) فكتب له أبو بكر في ذلك عهدا وسار إلى بلاده ثم أرسل أبوبكر خالدا إلى العراق وأمر المثنى بالسمع والطاعة له، حين وصل خالد إلى العراق سنة ١١ هـ انضم اليه ثمانية آلاف من بكر

---

(٨٤) هو المثنى بن حارثة بن سلمة ابن ضمضم بن سعد بن مره بن ذهل بن هيبان بن ثعلبه بن عكابه بن صعب بن على بن بكر بن وائل، وكانت منازل قومه في العراق والبحرين (ابن الاثير اسد الغابة جـ ٥ /٥٩ - ٦٠

(٨٥) المصدر السابق ، ورفيق العظم: (المجلد الأول، اشهر مشاهيلاً الاسلام في الحرب والسياسة جـ ٣٠٩/٢ الطبعة الخامسة.

(٨٦) من بكر بن وائل اسد الغابة جـ ٥ /٢٥٠، وكان بينهم ايضا هانى بن قبيصه والنعمان بن شريك.

(٨٧) سورة الانعام: اية ١٥١.

(٨٨) اسد الغابة: جـ ٢٥٠/٥

(٨٩) المصدر السابق جـ ٥٩/٥-٦٠

(٩٠) من محافظتي المثنى وذى قار حاليا

(٩١) الدينوري: الاخبار الطوال ص ١١٧

(٩٢) العظم: م١ جـ ٣٠٩/٢

يتزعمهم المثنى، وتمكن خالد بمعونتهم من هزيمة الفرس من الموضع الذى عرف بعد ذلك بالبصرة وتعرف هذه الوقعة (ذات السلاسل)[٩٣]. وكانت بكر بن وائل في جملة القبائل التي كان يطمئن خالد بن الوليد إلى ولائها .

ولما سار خالد إلى الشام عادت امارة الجند إلى المثنى وكان خير كفوء لها بعد خالد بن الوليد[٩٤].

وكانت وفاة المثنى على أثر أنتقاض جراحه كانت اصابته في وقعة الجسر واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية.

كان المثنى على جانب من الشجاعة والاقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب، وقد أوصى سعدا قبل وفاته بوصية، وقبل ان يراه بوصية وافقت رأى الخليفة عمر بن الخطاب ووصيته لسعد ان لا يقاتل الفرس اذا اجتمع امرهم، وان يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلي أرض العرب[٩٥]. وقد حاول الفرس بعد وفاته ان ينالوا من شيبان ومن معهم من بكر بزعامة المعني اخي المثنى ولكنهم لم يفوزوا بطائل[٩٦].

يقول بن خلدون في مقدمته[٩٧]، كان لبني بكر بن وائل مع بعض القبائل الاخرى مثل عبدالقيس وسائر ربيعة والازد، وكنده، وتميم قدم في الفتوحات الاسلامية.

وبعد ان تولى سعد بن أبي وقاص الجيش بعد وفاة المثنى بن حارثة تقدمت القبائل العربية، وقد امر عمر بن الخطاب سعدا باعداد كبيرة من القبائل، من اليمن، ونجد، وتميم،

---

(٩٣) وقد كان اهل العراق ايام على (رضى الله عنه) إذا بلغهم عن معاوية شيء، يقولون (نحن اصحاب ذات السلاسل). محمد ابو الفضل: ايام العرب ص ١٩٣، ورغم ان فريقاً من بكر كان قد تنصر الا انهم سارعوا الان الى الدخول فى دين العرب الفاتحين (انتونى: العرب انتصاراتهم وامجاد الاسلام ص ٥٤

(٩٤) البلاذرى: شرح ص ١١٨ والطبرى : ٤٠٨/٣

(٩٥) العظم: جـ ٣٠٨/٢

(٩٦) دائرة المعارف ماده بكر

(٩٧) ابن خلدون م ١٠٢٦/٢

وبني اسد، وستة الاف من بكر بن وائل، وكان قتادة الدهلي يناوش الساسانيين بقومه من بكر بن وائل(٩٨).

وعلى هذا الاساس تم بناء البصرة من قبل عتبة بن غزوان عام ١٤ هـ لتكون مركزاً ومنطلقا للقبائل المتقدمة نحو الفتح(٩٩).

بكر بن وائل وحركة التمرد فى البحرين ضد الاسلام

كان بالبحرين(١٠٠) فى الجاهلية خلق كثير من العرب من عبدالقيس، وبكر بن وائل، وتميم، مقيمين فى باديتها(١٠١) وكان إلى جانبهم الفرس الذين كان لهم يد في حركة التمرد ضد الإسلام وسلطانه، ويظهر أن هؤلاء رأوا أن توطد سلطان الاسلام في هذه الانحاء يهدد مصالح دولتهم في العراق وسواحل الخليج(١٠٢).

ولم يمض وقت طويل على انبثاق الدعوة الإسلامية سوى ثمان سنوات وقيل ست حتى وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) أحد اتباعه العلاء(١٠٣) الحضرمي إلى منطقة البحرين،

---

(٩٨) البلاذري: فتوح ص ٢٤٣

(٩٩) ياقوت: البلدان جـ ٤٣١/١

(١٠٠) كانت تشمل البحرين انداك جزيرة البحرين الحالية بالاضافة الى الاحساء، والقطيف والهفوف البلادري: فتوح ص ٨٨ وكانت تسمى اوال: نسبة الى قبيلة وائل التى سكنت الجزيرة، ياقوت جـ ٣٩٥/١، وإلى صنم كان يعبدونه حينذاك، خضير العبيدى: البحرين، من امارات الخليج العربى، الطبعة الأولى ص ١٠ ويبدو ان بكر بن وائل حين كانت بالبحرين كانت قبيلة بدويه لم تساهم في التجارة والصناعة، (البحرين فى صدر الاسلام رسالة ماجستير، اطروحة (على الالة الكاتبة لعبدالرحمن النجم

(١٠١) ابن خلدون :١٩٧/٤ والخضرى: تاريخ الامم الاسلامية ص ٢٢.

(١٠٢) دروزة: تاريخ الجنس العربى ص ٥٥ العقاد: عبقرية خالد ص ١٧٤

(١٠٣) واسمه الكامل عبدالله بن عمار وقيل بن عباد - بن اكبر بن ربيعة بن مقمع الحضرمي الصدفى وهو من حضرموت، ولذا قيل الحضرمي (الذهبى: تاريخ الاسلام جـ ٤٣/٢ وذكرايضا ابن حجر العسقلاني، فى تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، ص ٥٠٦، وقيل ان جده سكن مكة المكرمة، وبقي واليا على البحرين حتى مات بها سنة ٢١هـ وكان حليفا لحرب بن امية (السمعانى: الانساب جـ ١٨١/٤، وكان العلاء من فضلاء الصحابه ولاء الرسول (صلى الله عليه وسلم)البحرين حين افتتحها ثم ابو بكر وعمر (الذهبى: جـ ٤٣/٢، اما اب كثير ، فيذكر فى كتابه السيرة النبوية جـ/٦٩٢- ٦٩٣ ان عمر بن الخطاب ولى العلاء الحضرمى البصرة قبل وفاته فلما كان فى اثناء الطريق توفي.

وكان عليهم على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) المنذر بن ساوى[١٠٤] ودعاه للاسلام فأجابه واسلم معه جمع غفير من الناس.

ولما مات النبي (صلى الله عليه وسلم) انحاز فريق من بكر ومعهم قيس بن ثعلبة على قطيف بزعامة الحطم بن ضبعة اخو بني قيس بن ثعلبة وخرج على الردة من تجمع اليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافرا[١٠٥].

فعزمَ أبو بكر على محاربة أهل البحرين، وكان نفر من بكر بن وائل يعادون قبائل عبدالقيس وعبدالقيس يومئذ بالبحرين متمسكون بدين الاسلام، ولم يرتدوا مع من ارتد، وقد اجتمع مع بكر بن وائل على عبدالقيس كفار الفرس في البحرين، وجعل قول الذين ارتدوا من بكر بن وائل بعضهم لبعض، تعالوا حتى نرد الملك في دار النعمان بن المنذر، وارادوا ان يملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر فأنه احق بهذا الامر من ابن أبي قحافة[١٠٦].

وقال في ذلك رجل من بني ضبيعة بن عجل، يدعى وهبا يعير من ارتد من بكر بن وائل.

ألم تران الله يسبك خلقـــــــــــه
فيُنبــت اقوام ويصغوا معشـــــــــــر

لحمى الله اقواما اصيبوا بخنقـــــــــــة
اصابَهُمُ زيد الضلال ومعمـــــــــــر[١٠٧]

---

(١٠٤) احد بني عبدالله بن زيد بن عبدالله بن زاوم، وعبدالله بن زيد هذا هو الأسمذي نسب الى قرية بهجر ويقال انه ينسب الى الاسمد بن وهم قوم كانوا يعبدون الخيل (البلاذري: فتوح ص ٦٥ - ٦٦) وقيل ان هذا الوالي هاجر من ساحل الاحساء الى جزيرة البحرين وقد اصطحب معه عدد من غسيل الدخيل وفرسها في جزيرة البحرين (العبيدي، البحرين من امارات الخليج ص ٢٢.

(١٠٥) الطبرى جـ ٣٠٢/٣ حوادث سنة ١١

(١٠٦) ابن اعثم: الفتوح جـ٤٥/١-٤٦، وابن الاثير: الكامل جـ ٣٧٠/٢ وكان المنذر بن النعمان يسمى الضرور فلما اسلم كان يقول، انا المغرور ولست بالمغرور، وقيل ان العرب سمته المغرور (القرماني: اخبار الدول وانار الاول في التاريخ ص ٢٣٢).

(١٠٧) الطبرى جـ ٣٠٢/٣

وكتب المثنى بن حارثة يعدُ لهم على مقالهم وينهاهم عن محاربة اخوانهم عبدالقيس، وكتب اليهم ابياتا فلما وصلت إلى بكر بن وائل هذه الابيات جعل يقول بعضهم لبعض حسدنا المثنى على ثلاث خصال: على ملك المنذر بن النعمان وعلى صلحنا لكسرى وعلى التوسع في البحرين ثم توسطوا البحرين واجتمعت عبد القيس الى رأس من رؤسائهم يقال له الجارود بن المعلى العبدى[١٠٨] في اربعة الاف من عبدالقيس واحلافهم وعبيدهم ومواليهم[١٠٩] ودنت منهم بنو بكر بن وائل في تسعة آلاف من الفرس وثلاثة آلاف من العرب فاقتتل القوم قتالا شديدا فكانت الدائرة على عبدالقيس ودامت الحرب بينهم اياما كثيرة وانهزمت عبدالقيس إلى حصن يقال له جواثا.

واقبلت بنو بكر بن وائل والفرس حتى نزلوا على الحصن فاحدقوا به وحاصروا عبد القيس حصارا شديد ومنعوهم من الطعام[١١٠].

ولما علم ابوبكر ماقد اجتمع عبد القيس من كفار الفرس وبين بكر بن وائل عقد للعلاء بن الحضرمي علما وكان ذلك سنة ١٢هـ[١١١]، وضم اليه الفي رجل من المهاجرين والانصار وامره بالمسيرة إلى البحرين إلى نصرة عبدالقيس وقال له لا تمرن بحي من احياء العرب الا استنهضهم إلى محاربة بكر بن وائل فسار العلاء حتى صار بارض اليمامة فاستقبله ثمامة بن أثال الحنفي في مسلمة بن حنيفة، وكان هو مسلما فسار ثمامة مع العلاء في نفر من بني عمه[١١٢].

---

(١٠٨) اسمه بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى، يكنى ابا غياث او ابا عتاب وفد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) سنة ٩ هـ فاسلم وحسن اسلامه وعاد الى قومه عبدالقيس وقبل كان نصرانيا (ابن عساكر - تهذيب تاريخ ابن عساكر ص ٣٥٤ - ٣٥٥) والجارود لقب كان اصاب ابله داء فخرج بها الى قومه من بكر بن وائل ففشا الداء في ابلهم حتى اهلكهم فقالت العرب: كما جرد الجارود بكر بن وائل) الاشتقاق ص ٣٢٦

(١٠٩) دائرة المعارف الاسلامية:- مادة بكر

(١١٠) ابن اعثم ص ٤٦-٤٧ وكان في ناحية البحرين جماعة كبيرة من الفرس يقيمون الى جانب العرب، وكان لهم يد في حركة التمرد ضد الاسلام ورأوا ان توطد سلطان الاسلام في هذه الانحاء يهدد مصالح دولتهم في العراق وسواحل الخليج (دروزة: تاريخ الجنس العربي ص ٥٥)

(١١١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٧٦.

(١١٢) ابن الاعثم: - الفتوح جـ ٥٢/١-٥٤

وصار العلاء إلى أرض بني تميم وأخيه قيس بن عاصم[113]، المنقرى فأخذه معه في عشرين فارسا من بني تميم واجتمع المشركون كلهم الى الحطم الا اهل دارين[114]. واقتحم العلاء معسكرهم فوجدهم سكارى فلم تشعر الفرس ومن معهم الا وحوافر الخيل تطأهم فاستيقظوا فزعين فأخذتهم السيوف وانهزم القوم إلى موضع يقال له الردم[115]، وقتل رئيسهم الحطم[116] بن ضبيعة قتله قيس بن عاصم بعد ان قطع عفيف بن المنذر التميمي رجله[117].

وانهزمت بكر بن وائل فلحقوا بالبراري والفلوات هائمين من سيوف المسلمين وهرب المنذر بن النعمان حتى صار إلى اهل جفنة فاستجار فاجاره وندم على ماكان منه وقيل اسلم[118]، وانهزم الفرس فصار بعضهم إلى موضع يقال له الزاره والقطيف ومضى بعضهم حتى لحق بكسرى فاخبره خبر الهزيمة واستأمن ايضا قوم من الفرس إلى العلاء فأمنهم فصاروا بالبحرين حراثين وزراعين[119].

وكتب العلاء الى من ثبت اسلامه من بكر بن وائل ومنهم عتبة ابن النهاس والمثنى بن حارثة وغيرهما يامرهم بالقعود للمنهزمين والمرتدين بكل طريق ففعلوا وجاءت رسلهم إلى العلاء بذلك وكتب العلاء إلى أبي بكر يعرفه هزيمة المرتدين، وارسل وفدا من جماعة الحطم إلى ابي بكر في المدينة ليعلنوا اسلامهم امام الخليفة.

وهكذا توطد الاسلام وسلطانه في المنطقة بمساعدة الذين بقوا صادقين للاسلام من اهلها، وقد قتل كثير من عمال الفرس وجالياتهم واجلى كثير منهم ايضا وجنح بعضهم إلى اعلان

---

(١١٣) ابن الاثير: الكامل جـ ٢ /٣٧٠

(١١٤) دارين وهي من بلاد البحرين وينسب اليها الطيب (ابن خلدون: جـ ١٩٧/٤)
عبر المشركون اليها فعبر اليهم المسلمون وقاتلهم هناك واستمر القتال شهران (ابن الاثير: الكامل جـ ٣٧٠/٢)

(١١٥) ابن الاعثم: جـ ٥٤/١

(١١٦) الطبرى جـ ٣٠٢/٣ وابن الاثير : جـ ٣٧١/٢

(١١٧) المصدر السابق

(١١٨) ابن الاثير جـ ٣٧١/٢

(١١٩) ابن الاعثم: جـ ٥٤/١

خضوعه لسلطان الاسلام فقبل العلاء منهم ذلك مقابل الجزية على ما سنه النبي لهم في حياته وهم مجوسى وكان في المنطقة جالية يهودية اعلنت خضوعها لسلطان الاسلام وتعهدت بالجزية ايضا فسمح العلاء بالبقاء مع الاحتفاظ بدينها(١٢٠).

وتعتبر حروب الردة في منطقة البحرين فاتحة لزوال النفوذ الفارسي على جزر البحرين ومنطقة الاحساء والقطيف.

بكر بن وائل وحروبها في خراسان :

اما في خراسان فقد كان لتعيين الربيع بن زياد الحارثي في أول سنة ٥١ هـ اهمية كبيرة في استيطان العرب في خراسان، ومنهم قبيلة بكر بن وائل، يذكر البلاذري «ان زياد بن ابي سفيان، ولى الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥١ هـ خراسان وحول معه من أهل المصرين زهاء خمسين الفا بعيالاتهم»(١٢١).

وحين سيطرت القيسية على خراسان بقيادة عبدالله بن خازم، سنة ٦٥ هـ قضى على قبائل بكر بن وائل في (مرو) والتى كانت بقيادة سليمان بن مرقد حاكم مرو واخيه عمر بن مرقد الذى عينه حاكما على (الطالقان) ودفع بهم الى (هراة) وهنا في هراة انضم اليها من بكور خراسان وولوا عليهم اوس بن ثعلبة وقالوا له : نبايعك على ان تسير الى ابن خازم، وتخرج مضر من خراسان كلها(١٢٢). ولكن ابن خازم تقدم نحو هراة بمساعدة تميم التى رأت الأمر يتعلق بمصالحها، واستطاع ابن خازم القضاء على بكر واستولى على هراة بعد ان تكبدت اكثر من ثمانية الاف بين قتيل وجريح(١٢٣).

وفى سنة ٩٦ اعلن قتيبة بن مسلم الباهلي الثورة على الخليفة سليمان بن عبدالملك وانحاز

---

(١٢٠) ابن الاثير جـ ٣٧١/٢

(١٢١) فتوح البلدان : ٤٠٠

(١٢٢) الطبرى : ٥٤٧/٥، وابن الاثير: ٦٦/٤

(١٢٣) ابن الاثير: ٦٦/٤

سبعة الاف من بكر على رأسهم الحصين بن المنذر ومعها قبيلة تميم والازد الى سليمان ضد قتيبة وقد اشار ابن توسعة محذرا بقوله[١٢٤]

تنمر وشمر يا قتيبة بن مسلم ... فان تميما ظالم وابن ظالم
وتأمن الثائرين ولا تنم ... فان اخا الهجاء ليس بنائم
ولا تثقن بالازد فالغدر منهم ... وبكر منهم مستحيل المحارم

بكر بن وائل تحارب مع علي (رضي الله عنه) :

ونرى بكر تحارب في وقعة الجمل عند الخريبة امام البصرة عام ٣٦ هـ (٦٥٩م) الى جانب علي[١٢٥] ولما وصل علي (رضي الله عنه) الى ذي قار في هذه السنة ارسل اليه فريق من بكر وفدا منهم عقد معه حلفا وحارب فريق آخر في صف خصومه ويقال انهم فقدوا (٥٠٠) رجل في هذه الوقعة[١٢٦] وقالت عائشة (رضي الله عنها) بكم يقول القائل :

وجاؤا إلينا في الحديد كأنهم ... من العزة القعساء بكر بن وائل[١٢٧]

وكان علي بكر بن وائل من اهل البصرة، علي بن الحارث بن نهار وكانت راية بكر من اهل الكوفة في بني ذهل، مع الحارث بن حسان بن خوط الذهلي[١٢٨] .

وبعد رجوع علي (رضي الله عنه) من صفين الى الكوفة انحاز عنه اثنا عشر الفا من القراء وغيرهم ولحقوا بحروراء[١٢٩]، وكان زعيمهم عبدالله بن الكواء اليشكري من بكر بن

(١٢٤) الطبري: ٥١٢/٦. والنقائض : ٣٥٨/١-٣٥٩

(١٢٥) الطبري: ٤٨٩/٤/٤٩٨

(١٢٦) المصدر السابق : ٥٠٦/٤و ٥٣٩/

(١٢٧) المصدر السابق : ٥١٦/٤

(١٢٨) المصدر السابق :٥٢٢/٤

(١٢٩) حروراء، قرية من قرى الكوفة، نزل بها الخوارج الذين خالفوا على بن ابي طالب (رضي الله عنه) وبها كان اول تحكمهم واجتماعاتهم (ياقوت: معجم، ٢٤٥/٢) وسموا هؤلاء الذين دخلوا حروراء، (بالحرورية)، المسعودي: مروج ٣٩٥/٢)

وائل، فخرج على (رضى الله عنه) اليهم، وقد خلوا جميعا الكوفة(١٣٠)، وتعتبر بكر بن وائل مع تميم وطي من قدماء الخوارج(١٣١).

قال معاوية لعبيد الله بن عمر: ان بكرا قد جاءت على علي فسر اليه، فمنعته زوجته (بحرية بنت هاني من قبيصة الشيباني)(١٣٢)، فلم يمتنع وقال لها لترين الاسارى من قومك حول خبائك وقد اقتتلوا اشد القتال وليس فيهم الأسل والسيوف ولكن قتل عبدالله وقال معاوية لامراته، كلمي قومك في جسد عبيدالله فاتتهم، فاذنوا لها في حمله ووثب شباب من بكر بن وائل فوضعوه على بغل وشدوه واقبلت امرأته الى عسكر معاوية فتلقاها وصلى عليه ودفنه(١٣٣).

موقف بكر بن وائل من عبدالملك بن مروان:

حين استقرت البيعة لعبدالملك بن مروان، اراد الخروج إلى مصعب بن الزبير وكان مصعب بن الزبير قد خرج بأهل البصرة والكوفة، والتقوا بين الشام والعراق، فما ان التقوا الا وحولوا وجوههم وصاروا الى عبدالملك فجاءه عبيدالله بن زياد بن ظبيان، وكان على خص بكر بن وائل، وكان مع مصعب، ولكن تحول عنه لقتل مصعب اخا عبيدالله واسمه النابئ بن زياد، وكان النابئ من سادات ربيعة وزعماء بكر بن وائل، ولهذا تحيز ما كان في عسكر مصعب من ربيعة(١٣٤).

وبالاضافة الى هذا فقد استطاع عبدالملك ان يحبب نفسه اليهم بفعل الاموال بعد ان كانت معارضة له، وهذا ما جاء على لسان شاعرهم عتبان بن وصيلة الذى يقول لعبدالملك(١٣٥):

فانك إلا ترضي بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب

(١٣٠) المسعودى: ٣٩٥/٢

(١٣١) محمود اسماعيل: ٣٧، وسرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية، ٨٥.

(١٣٢) ابن عبدالبر: الاستيعاب، ١٠١٠، والمسعودي ٣٨٥/٢

(١٣٣) الاستيعاب: ١٧/٥-١٨

(١٣٤) ابن عبد ربه: ٤١٠/٤

(١٣٥) ابن دريد: ٣٥٩

وحيث التقى جيش عبدالملك بجيش مصعب، كانت واقعة مسكن عام ٧٢هـ ولم يستطع مصعب بجيشه المزعزع وموقف القبائل العربية من ال الزبير ومنهم بكر بن وائل فقد غدر به داود بن قحذم ومال براية بكر وتبعته بقية القبائل، وجاء غلام لعبيدالله بن زياد فضرب مصعبا بالسيف فقتله عند دير الجاثليق وعند نهر يقال له الدجيل قال بن قيس الرقيات فى ذلك(١٣٦) :

لقد أورثت المصرين خزيا وذلة قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما نصحت لله بكر بن وائل ولا صبرت عند اللقاء تميم

وبعد ان قتل عبيدالله بن زياد مصعب جاء برأسه الى عبدالملك(١٣٧)، فلما نظر عبدالملك الى رأس مصعب خر ساجدا وأراد عبيدالله ضرب عنق عبدالملك وندم على عدم فعله وقال لو فعلت لأكون قتلت ملكى العرب في يوم واحد وقال فى ذلك :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني فعلت فادمنت البكا لاقاربه
فأوردتها فى النار بكر بن وائل والحقت من قد خر شكرا لصاحبه

وكانت بكر فى العراق أشد القبائل معارضة لعبدالملك، غير ان عبدالملك استطاع أن يحبب نفسه الى زعمائها بفعل الأموال التي كانت تدفع لهم(١٣٨). فقد قدم داود بن قحذم زعيم بكر بن وائل على عبدالملك بعد ان لاحظ فتورا بين قبيلته وبين عبدالملك ومعه مائتين منهم، وكان ذلك بعد مقتل مصعب بن الزبير، ودخل على عبدالملك فلما خرجوا قال عبدالملك : هؤلاء الفساق لولا أن صاحبهم جاءنى ما أعطاني احد منهم طاعته(١٣٩) .

---

(١٣٦) الطبرى: ١٦١/٦

(١٣٧) ابن عبد ربه: ٤١٠/٤، قيل ان عبدالملك حين جاءه عبيدالله بن زياد براس مصعب اثابه ألف دينار فابى ان يأخذها وقال: انى لم اقتله على طاعتك، وانما قتلته على وتر صنعه بي (الطبري: ١٥٩/٦)، وكان قد قتل مع مصعب ابنه عيسى، ودفن في المكان الذى وقعت فيه المعركة في (سكن) ويعرف موضع عسكره بخربة مصعب أو صحراء مصعب (الشابشتي: الديارات ٣٥١ ـ ٣٥٢) .

(١٣٨) ابن عبد ربه: ٤١٠/٤

(١٣٩) الطبرى: ١٨٩/٧ والمسعودي ١٠٤/٣- ١٠٩

موقف الحجاج من بكر بن وائل في العراق:

كان فريق من الخوارج من بني شيبان من بكر بن وائل يعيشون في دارا (بين نصيبين وماردين) وفي ارض الجزيرة والموصل[١٤٠] وكان زعيمهم صالح بن مسرّح، وكانوا على اتصال بالكوفة فقد نزحوا من موطنهم الأولى على الجانب الأيمن من نهر الفرات إلى صحارى الكوفة[١٤١] وكان صالح من مسرّح يقرىء اصحابه القرآن ويعظمهم داعيا الى الحمية لله والثأر للناس من مظالم الحكام[١٤٢]

وكان امرهم مع الحجاج في قرية يقال لها المدبح من أرض الموصل زحف اليهم بجيش من الكوفة وقتل منها قائدهم صالح بن مسرّح سنة ٧٦هـ وبايعوا بعد قتله شبيب بن يزيد بن نعم وهو من اسرة عريقة هي، مرة بن همام بن دخل بن شيبان.[١٤٣]

ثم هزم شبيب جيش الحجاج وقتل قائده سعيد بن المجالد بالقرب من النهروان، واقبل شبيب ظافرا يتابع الزحف ودخل المدائن سنة ٧٧هـ ، وطلب الحجاج من الخليفة ان يمده بجنود من الشام ليقاتل بها شبيب، فأرسل له الخليفة أربعة آلاف بقيادة سفيان بن الابرد الكلبي، وكان شبيب قد دخل الكوفة مع زوجته وأمه، وكانت زوجته (غزالة) قد نذرت ان تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين وتقرأ فيه سورة البقرة وآل عمران، ففعلت. وقد كانت غزالة من الشجاعة والفروسية بالموقع العظيم[١٤٤] ... وفي ذلك يقول الشاعر، عثمان بن وصيلة الشيباني[١٤٥]:

غزالة منا ذات نذرٍ حميـــــــدة   لها في سهام المسلمين نصيـــــــب

(١٤٠) الاشعرى مقالات الاسلاميين، ١٢٨

(١٤١) فلهوزن : ١١٠

(١٤٢) المصدر السابق

(١٤٣) وجماعته تسمى، الشبيبة، (البغدادى: الفرق بين الفرق، ٦٥)

(١٤٤) الطبرى: ٢٧٣/٦، والمسعودى: مروج ، ١٣٩/٣

(١٤٥) خليفه بن خياط تاريخ، ٢٧٤/١

اما الحجاج فقد تحصن في دار الامارة لحين وصول الجيش الذى ارسله له الخليفة وفي ذلك يقول الشاعر عمران بن حطان يؤنب الحجاج(١٤٦)

اسد على وفي الحروب نعامـــــــة ... فتخاء تجفل من صفير الصافـــــــر
هلا برزت إلى غزالة في الوغـــــــى ... بل كان قلبك في جوانح طائـــــــر
صدعت غزالة قلبـــــــه بفوارش ... تركت مناظرة كامس الدابـــــــر

وقتلت غزالة زوجة شبيب وأمه في المعركة التي وقعت بين جماعة شبيب وبـين جيش الحجاج عند السبخة امام الكوفة، وفرشبيب مع جماعته عابرين جسر الفرات، وعند محاولته عبور نهر الأحواز غرق في دجيل(١٤٧).

وبموت شبيب لم تعد جماعته بذات اهمية ولكن حركة الخوارج ظلت قوية في نواحي الموصل بين بني شيبان وسائر آل بكر وقامت لهم حركات من حين إلى آخر وتكاد معظم ثورات الخوارج التى نسمع بها في العصر الاموى المتأخر ان تكون قد خرجت من الموصل ومن آل بكر(١٤٨).

وحاربت بكر بن وائل مع عبدالرحمن بن الاشعث حينما عظم جمعه، خلع عبدالملك بن مروان وسمى نفسه (ناصر المومنين)، وانضمت بكر اليه ضد الحجاج عام ٨٢هـ، وكان على خمس بكر مقاتل بن مسمع.(١٤٩).

وفي رواية للطبرى، ان بكر بن وائل، انقسمت على نفسها ابان فتنة يزيد ابن المهلب عامل العراق، وهي الفتنة التى شبت في البصرة عام ١٠٢هـ، عقب وفاة عمر بن عبدالعزيز

---

(١٤٦) المصدر السابق : ٢٧٣/٢، وعمران بن حطان بن ظبيان بن سهل بن معاوية بن الحارث بن سدوس بن شيبان بن سنلن بن ذهل بن ثعلبة، وكل من الثراة، وكـان بن اخطب الناس وافصحهم (زهر الاداب: ٩٢٥/٤، ولاغاني: ٥٠/١٨)

(١٤٧) ابن خياط تاريخ ، ٢٧٤

(١٤٨) فلهوزن: ١٢٨-١٢٩

(١٤٩) الطبرى: ١٨٣/٨

عام ١٠١هـ فقاد بعضها عمران بن عامر بن مسمع، إلى جانب المهلب حسدا لابن عمه الذى دفع اليه عدى بن ارطأ، والى البصرة، راية بكر بن ارطأ، والى البصرة، راية بكر بن وائل، بعد ان انتزعها من عمران، والبعض الأخر من بكر بن وائل بقى على ولائه للحكومة، ولكن استطاع يزيد التغلب عليهم، فقد كثر جمعه بفضل ما اقطعه للناس من ذهب وفضة، بينما كان الوالي الأموى لا يعطى الا الدرهم والدرهمين، فانفض القوم عنه.(١٥٠).

اعود إلى وضع الجزيرة الفراتيه والحركات الخارجية فيها، فقد كانت منذ اواسط العصر الاموى اقوى المراكز للحركات الخارجيه، ولكنها ضعفت في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك، نتيجة لسياسته الحازمة، ثم عادت وشهدت الجزيرة على اثر وفاة الخليفة هشام عام ١٢٥هـ وتعاقب عدد من الخلفاء الضعفاء على كرسى الحكم في فترة قصيرة كثيرا من الفتن والاضطرابات فى كل مكان وخاصة فى العراق مسرح ثورات الخوارج.

فى هذه الفترة كان بطل من بنى شيبان - معن بن زائدة -(١٥١) قائدا لجيش ضخم من فرسان شيبان، ومن بكر بن وائل وربيعة كلها.(١٥٢) زحف بجيشه في عهد مروان بين محمد لقتال الضحاك بين قيس الشيباني الخارجي، واقتحم اسوار الكوفة، وطرد حامية الخوارج منها.(١٥٣).

(١٥٠) الطبرى: ٦/ ٥٨٠-٥٨١، وانظر عواد الاعظمي، في كتابه مسلمة بن عبدالملك يقول: خرج ابن المهلب يوم واسط بعد ان استخلف على البصرة مروان وخلع يزيد بن عبدالملك وقدم بن المهلب واسطا، فى مائة وعشرين الف ثم ترك يزيد بن المهلب واسطا بعد ان استخلف عليها ابنه معاوية، وجعل عنده المال والخزائن ولاسراء، ثم سار متجها الى الكوفة، وكان قد عين الخليفة يزيد بن عبدالملك اخاه مسلمة قائدا عاما للجيش، ومرت العمليات العسكرية بين جيش مسلمة بن عبدالملك ويزيد بن المهلب في وقعتين اساسيتن واقعة سورا، وواقعة عقر وقسم ابن المهلب جيشه الى ارباع، وهذا التقسيم القبلى، اي بالنسبة للقبائل العربية، وكان من بينهم قبيلة بكر بن وائل، ولكن فتنة بن المهلب لم تنجح، وقتل من قبل الفحل بن عياش بن حسان، (انظر التفاصيل) في كتاب الامير مسلمة بن عبدالملك لاعواد الاعظمي: ١٧٤ -٢٠٦)

(١٥١)معن بن زائده بن عبدالله بن زائده، واسمه عمرو بن قيس بن شراحيل بن همام بن مرعبن ذهل بن شيبان، وبقية النسب معروف الى بكر بن وائل (ابن خلكان: وفيات ٧٣٢/٥)

(١٥٢) الجومرد: يزيد بن مزيد، ٦٣

(١٥٣) المصدر السابق

حروب بكر بن وائل فى عهد الخلافة العباسية:

وحين تولى الخلافة المنصور، هرب معن بن زائدة، فقد جد المنصور فى طلبه فاستتر عنه مدة، ولم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية - يوم هاجمت الراوندية المنصور - سنة ١٤١هـ وكادت تقضى على حياته.(١٥٤). فخرج معن متنكرا ملثما، وتقدم إلى القوم وقاتل امام المنصور قتالا ابان فيه عن نجدة وشهامة، فلما افرج عن المنصور قال له: من انت ويحك؟ فكشف لثامه فقال: انا طلبتك يا أمير المومنين، معن بن زائده، فامنه واكرمه.(١٥٥).

وقد انقطع الشاعر مروان بن ابي حفصة لمعن بن زائدة، واشهر قصائد مروان فيه واحسنها القصيدة الامية، وله فيه من قصيدة:(١٥٦).

معن بن زائدة امن بذمته والمشترى المجد بالغالي من الثمن
يرى العطايا التى تبقى محامدها غنما اذا عدها المعطي من الغبن
بنى لشيبان مجدا لازوال له حتى تزول ذرى الاركان من حضن

ومازال مروان بن ابى حفصة يوالي مديحه لمعن حتى توفى عام ١٥٢هـ قتله قوم من الخوارج، ثم تتبع قتلة ابن أخيه يزيد بن مزيد - الاتي ذكره - فقتلهم عن اخرهم(١٥٧).

وحاربت بكر بن وائل ابا مسلم الخراساني داعية العباسيين ايام ابى جعفر المنصور(١٥٨) ونراها تنضم الى محمد ذي النفس الزكية، مع من انضم اليه من القبائل حين قام بثورته ضد ابى جعفر المنصور، وكما مر سابقا، كانت بكر بن وائل في البصرة تشكل قسما من اقسامها القبلية الخمسية وكانت معروفة بولائها للقضية العلوية، وظهرت عندهم حركة ابراهيم الحسني الذي اعلن ثورته بعد شهرين تقريبا من ثورة أخيه محمد النفس الزكية، الذى اعلنها سنة ١٤٥هـ /٧٦٢ على الخليفة ابي جعفر المنصور، وكان معه عشرون رجلا من

(١٥٤) الراوندية، جماعة من اهل خراسان (الطبرى: ٧/٥٠٥-٥٠٦)

(١٥٥) ابن خلكان: ٥/٢٤٤-٢٤٧

(١٥٦) المصدر السابق .

(١٥٧) المصدر السابق ص ٢٤٩، وقيل كانت وفاته سنة ١٥١هـ أو ١٥٢هـ أو ١٥٨هـ

(١٥٨) فاروق عمر فوزى: العباسيون الاوائل ، ١/١٩٦

اتباعه، الا انه سرعان ما انضم اليه عدد من الشيوخ مع قبائلهم حتى بلغ عدد اتباعه ٤ الاف من العرب البصرين.(١٥٩)

وفي مستهل سنة ١٦٠ هـ حدثت ثورة عارمة في خراسان اندلعت على أيدي الخوارج من فرقة (الحرورية) بقيادة رجل من مولى ثقيف في مدينة (بخارى) يدعى يوسف بن ابراهيم ويلقب يوسف البرم، وكان من اشد الخوارج قسوة وسفكا للدماء، واجتمع اليه جمع من الناس، وافتى بتكفير المهدي، وامر بخلعه ومناهضة سلطانه، وكانت حركته الأولى من نوعها في خلافة المهدي، فارسل اليه المهدي يزيد بن مزيد الشيباني،(١٦٠) فلقيه واسره، وبعث به الى المهدي، مع وجوه اصحابه وبقى يزيد بن مزيد في خراسان ليعيد الامن والاستقرار في ربوعها، وسار الحرس بالاسرى ومعهم يوسف البرم حتى بلغوا النهروان، فحمل يوسف البرم على بعير وقد حول وجهه إلى ذنب البعير واصحابه على بعير وادخلوه على المهدي فامر بضرب عنقه.(١٦١)

وماكاد الخليفة المهدي يصدر امره لغزو بلاد الروم - وكانت الحملة بقيادة هارون ومعه الوزير الربيع بن يونس - حتى كانت وفود يزيد بن مزيد، تتوارد اليه من بكر وتغلب من انحاء العراق، ومن كل مكان ، ثم امر المهدي بدفع مبلغ كبير من المال كنفقات للحملة التي كان عدد رجالها ٩٥،٠٩٣ الف وقتل في هذه الوقائع من الروم ٥٤ الفا، وعاد الامير هارون بحاشيته الى بغداد ومعه السبي والغنائم ووفد حكومة الروم يحمل الفداء والجزية والهدايا، ثم اقبل يزيد بن مزيد على رأس عسكره إلى بغداد، وكان ذلك سنة ١٦٦هـ.(١٦٢)

اما الدور الكبير الذي قام به يزيد بن مزيد في خلافة الرشيد، فقد خرج الوليد بن طريف الشاري(١٦٣) بقوات كبيرة في ديار ربيعة ومضر، وبدأ ثورته عام ١٧٨هـ فاحتل مدينة

---

(١٥٩) المصدر السابق ٢١٠/١

(١٦٠) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني وهو ابن اخي معن بن زائدة الشيباني المقدم نسبه حين الكلام عن معن بن زائده ،ويزيد من الامراء المشهورين والشجعان المعروفين وكان واليا بارمينية فعزله عنها الرشيد سنة ١٧٢ ثم ولاه اياها وضم اليها اذربيجان سنة ١٨٣هـ (ابن خلكان: ٣٢٧/٦). وانظر غرة العرب، يزيد بن مزيد الشيباني، للدكتور عبدالجبار الجومرد فقد كتب مفصل عن حياة يزيد.

(١٦١) الطبري: ١٢٤/٨

(١٦٢) المصدر السابق.

(١٦٣) هو الوليد بن طريف بن الصلت بن عمرو بن فدوكس بن عمرو بن مالك الشيباني، احد الشجعان الطغاة الابطال، كان راس الخوارج، كان مقيما بنصيبين والخابور (ابن خلكان ٣١/٦)

نصيبين وقتل عاملها (ابراهيم بن حزيمة) وجعلها مقرا له ثم اندفع نحو الشام فاخضع ارمينية، وانحدر بعد ذلك الى الموصل فاحتلها وقتل عاملها، والحق بجيشه من كان من الخوارج فيها وجلهم من ربيعة، ووصل الى الرقة، وكان عليه القائد العباسي المعروف عبدالملك بن صالح.[١٦٤]، ومازال ينحدر حتى بلغ مدينة بلد ففتحت ابوابها له، وخرج يريد بغداد[١٦٥].

فلم يتحمل الرشيد الوضع الذي وصلت اليه البلاد ومايهدد ملكه فقال كلمته المعروفة: لم يبق لهؤلاء الخوارج، (غير الاعرابي) يعني به يزيد بن مزيد[١٦٦] وعارض البرامكة هذا الاختيار بحجة ان بين يزيد والوليد بن طريف قرابة كلاهما من وائل، ووائل من ربيعه، وربيعة معروفة بعصبيتها القبلية، يخشى ان يحدث تضامن واتفاق بين الطرفين، فتكون لها قوة لايستطاع دفعها، ولكن الرشيد اصر على رأيه في ارسال يزيد بن مزيد لقتال الوليد بن طريف، وقال له حين دخل عليه: (قم على بركة الله، وخذ هذا السيف - ذو الفقار - واستعمله في حربك، فانك منتصر به ان شاء الله).[١٦٧]

وكان يزيد يراوغ والوليد يتبعه حتى لقيه فوق هيت عام ١٧٩ هـ فقتله وجماعة كانت معه، وتفرق الباقون فقال الشاعر:[١٦٨]

وائل بعضها يقتل بعضـــــا لا يفل الحديد الا الحديـــــد

وقيل شعرا آخر:

لا ترسلن الى ربيعة غيرهـــــا ان الحديد بغيره لا يفلـــــح

---

(١٦٤) الطبري: ٣٠٢/٨

(١٦٥) الاصفهاني: الاغاني، ٨/١١، وابن خلكان: ٣٢٧/٦

(١٦٦) المصدران السابقان، وسيف ذو الفقار، من سويف النبي (صلى الله عليه وسلم) اما كيف وصل الى يد الرشيد فانظر ابن خلكان، ٣٣٠/٦

(١٦٧) الطبري: ٢٦١/٨، وقيل الشعر لبكر بن النطاح التغلبي (ابن خلكان، ٣٢٨/٦) وينسبه البعض الى ليلى بنت طريف اخت الوليد. الجومرد، ١٨٨

(١٦٨) المصدر السابق

وقالت الفارعه حين قتل اخوها الوليد،(١٦٩).

ايا شجر الخابور مالك مورقـــــــا	كانك لم تجزع على ابن طريـــــف
فتى لا يحب الزاد الامن التقـــــى	ولا المال الامن قنا وسيـــــوف

وكانت الفارعة في جيش اخيها على فرسها وعليها الدرع ترجز وتنشد.(١٧٠) وقد جرح في هذه المعركة اسد بن يزيد بن مزيد، وكان في حاشية ابيه وهو شاب، فقد اشتهر من اولاد يزيد ثلاثة، هم اسد ومحمد وخالد.(١٧١).

وكان اسد على مقدمة جيش ابيه في حربه ضد خاقان الخزر فابلى بلاء حسنا، وكان الرشيد قد اختاره خلفا لأبيه في ولايته على (أرمينية واذربجان) وحين خرج الرشيد على رأس جيش كبير لاخماد ثورة رافع بن الليث في خراسان كان اسد في صحبته واحد القادة المنضوين إلى تلك الحملة، وحين توفي الرشيد عاد اسد بن يزيد بكتائبه مع من عاد الى العراق.(١٧٢) .

اما محمد بن يزيد فكان عند وفاة ابيه شابا فالحقه الرشيد في مجموعة قواده الناشئين ولحقه سنة ١٩٠هـ بحملته على صاحب القسطنطينية (نقفور) فكان اول من لبس ثياب النفاطين، وخاض النار التي اشعلها الروم، ثم تبعه الناس فكان النصر لجيش الرشيد.(١٧٣).

وغزا خالد بن يزيد بلاد الروم، وكان والي أرمينية في عهد ملكها (يتوفيل بن ميخائيل) فهزم جيوشه ومدحه عدد من الشعراء منهم ابو تمام حيث قال:(١٧٤) .

ولما رأى توفيل راياتك الـــــتي	اذا ما اتلأبّت لا يقاومها الصلـــــب
تولى ولم يال التردى في اتباعـــــه	كان الردى في قصده هائم صّــــب

(١٦٩) المصدر السابق

(١٧٠) ابن حزم: جمهرة انساب العرب ٢٨٩

(١٧١) الجومرد: ٢٦٧-٢٦٨

(١٧٢) المصدر السابق

(١٧٣) الاغاني : ٤٥/١٧

(١٧٤) ضيف: العصر العباسي الاول، ٢٧١

ويقول ابوتمام مادحا خالدا ومشيدا بانتصار قومه في يوم ذي قار على الفرس:(١٧٥)

لهم يوم ذى قار مضى وهو مفـــــرد وحيد من الاشباه لـه صحـــــب
به علمت صهب الاعاجم انـــــه به أعربت عن ذات انفسها العـــرب
هو المشهد الفصل الذي مانجابــــه لكسرى بن كسرى لاسنام وصلـــب

وكان هؤلاء الفتيه الثلاثة، اولاد يزيد بن مزيد في البلاط العباسي دعامة القومية وسندها الاكبر امام شعوبية الفرس والترك في عهدى المامون والمعتصم، حتى الواثق ، وكما قال الدكتور الجومرد في كتابه، يزيد بن مزيد(١٧٦)، بموت خالد بن يزيد انتهى فصل رائع من تاريخ العرب ادت فيه قبيلة شيبان اخطر ادواره، في عصرين كاملين وخطت سيوفها الاسطر الأولى والاخيرة منه، فلم تكد تنتهى حرب ذي قار في جاهليتها حتى كان المثنى بن حارثة اول سيف عربي يمتشق خارج الجزيرة للفتح الاسلامي

وكان خالد بن يزيد آخر سيوفها في الاحداث الجسام، وكان أبوه يزيد احدى الحلقات الرئيسية في سلسلة ذلك التاريخ .

وفي سنة ٢٠٧هـ قام بنو شيبان انفسهم (بخلق الفوضى والاضطرابات في الجزيرة، فامر المأمون والى الموصل بمحاربتهم ومن معهم(١٧٧).

وكان العباسيون قد اسسوا القواعد العسكرية في الجزيرة من اجل التصدي والقضاء على أي خطر يحدث مستقبلا، ولكن الجزيرة ظلت معقلا وماوى للخوارج الثائرين ضد الدولة العباسية مابين سنة ٢٤٧ هـ - ٣٣٤هـ، اما تاريخ بكر بن وائل بعد ذلك فمتصل بتاريخ الجزيرة، وخاصة ديار بكر(١٧٨).

---

(١٧٥) المصدر السابق، ٢٧٧

(١٧٦) الجومرد: ٢٧٩

(١٧٧) فاروق عمر: الفوضى العسكرية، ١٤٠، ١٤٢

(١٧٨) المصدر السابق .

وقد استجابت بكر بن وائل لنداء الخلافة عند دعوتها لها إلى الجهاد للتطوع في جيشها لرد المغول وتجلى ذلك في السنوات ٦٣٤ - ٦٤٢هـ، واعتبروا التصدى للمغول واجبا دينيا بالاضافة الى ضرورته السياسية.

المصادر والمراجع

ابن الاثير: (٦٣٠هـ) عز الدين على بن ابن مكرم محمد

١ - (الكامل فى التاريخ) بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

٢ - (اسد الغابة في معرفة الصحابة) القاهرة بلا

ابن اعثم الكوفى: (٣١٤هـ - ٩٢٦م) ابو محمد ابن اعثم الكوفى

(كتاب الفتوح) الركن ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م)

ابن حبيب : (٢٤٥هـ) محمد بن حبيب المحبر

مختلف القبائل ومؤتلفها ١٨٥٠م Gottingon

- بان حزم : (٤٥٦هـ ١٠٦٣م)، على بن سعيد الاندلسى

(جمهرة انساب العرب) مصر ١٩٤٨م

ابن حجر العسقلانى: (٨٥٢هـ ١٤٤٨م) احمد بن على

(تبصير المنتبة بتحرير المشتبة) القاهرة ١٩٦٧م

ابن خلدون : (٨٠٨هـ) عبدالرحمن بن محمد

(المقدمة) المجلد الثانى، بيروت ١٩٧٧م

ابن دريد: (٢٢٣هـ ٣٢١هـ) محمد بن الحسن بن دريد

(الاستقاق)، القاهرة ١٣٧٨- ١٩٥٨م

ابن سعد: (٢٣٠هـ ٨٤٤م) محمد بن سعد بن منيع البصرى

(الطبقات الكبرى)، بيروت ١٣٨٠- ١٩٦٠م

ابن عبدالبر: (٤٦٣هـ - ١٠٧١م) يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر

(الاستيعاب فى معرفة الاصحاب) القاهرة ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م)

ابن عبدر به: (٣٢٨هـ ٩٣٩م) احمد بن محمد بن عبدربه

(العقد الفريد) شرحه وضبطه، احمد امين، احمد الزين ابراهيم الانباري

ابن عساكر: (٥٧١هـ) على بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسن بن عساكر
(تهذيب بتاريخ ابن عساكر)، الشام ١٣٢٩هـ
ابن الفقيه: (٢٦٥هـ - ٩٧٥م) احمد بن محمد الهمدانى
(مختصر كتاب البلدان) طبعة ليدن ١٣٠٢م
ابن قتيبة الدينورى: (٢٧٦هـ) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى
(المعارف) الطبعة الأولى، المطبعة الاسلامية ، مصر ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م
ابن كثير: (٧٠١هـ ٧٧٤م) ابو الفداء اسماعيل
(السيرة النبوية)، القاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م)
(٢٠٤هـ - ١٨١٩م)
ابن الكلبى: هشام بن محمد بن السائب
(كتاب الاصنام)، القاهرة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م)
ابن هشام: (٢١٨هـ - محمد بن عبدالملك بن هشام
(سيرة النبى) ١٣٥٦ - ١٩٣٧م، القاهرة
ابو شهبه : محمد محمد
(السيرة النبوية في ضوء القران والسنة) القاهرة ١٩٧٣م
ابو عبيدة: (١١٢هـ) عماد الدين اسماعيل
(المختصر في اخبار البشر) مصر
ابو الفضل: محمد ابراهيم على محمد البجاوى
(ايام العرب فى الاسلام)، القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)
ابو يوسف : (١٨٢هـ - ٧٩٨م) يعقوب بن ابراهيم
(كتاب الخراج)، القاهرة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م
الاشعرى: (٣٢٤هـ) على بن اسماعيل
(مقالات الاسلاميين، واختلاف المصليين) نرانز شتايز بقبسبادن، ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م)
الاصفهانى : ٣٥٢هـ - ٩٦٧م) ابو فرج على بن الحسن
(الاغانى) ، بيروت ١٩٥٩م

الاعظم: عواد عبدالمجيــد
(الامير مسلمة بن عبدالملك) بغداد، ١٩٨٠م
الالوسي: محمود شكـــرى
(بلوغ الارب في معرفة احوال العرب) مصر ١٣٤٢هـ
الايوبي: ياســين
(معجم الشعراء فى لسان العرب) الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠م
اسماعيل: محمـــود
(قضايا في التاريخ الاسلامى) ، بيروت ١٩٧٤م)
بكاريوس : للعلم اسكندر بكاريوس الارمنى
(نهاية الارب في اخبار العرب)، مرسليا ١٨٥٢م
البكري: (٤٨٧هـ - ١٠٩٤م) عبدالله بن عبدالعزيز الاندلسى
(معجم مااستعجم من اسماء البلاد والمواضع) القاهرة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م
البلاذري: (٢٧٩هـ) احمد بن يحيى بن جابر
١ - (فتوح البلدان) القاهره ١٩٥٩م
٢ - انساب الاشراف، القدس ١٩٣٦م
البغدادي : (٤٢٩هـ - ١٠٣٧م) عبدالقاهر بن الطاهر البغدادي
(الفرق بين الفرق، وبيان الفرقة الناجية منهم) ، القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م
البغدادي: (٧٣٩هـ - ١٣٣٨م) صفى الدين بن عبدالمؤمن بن عبدالحق
(مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع) الطبعة الأولى القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م)
البغدادي: (١٠٩٣م) عبدالقادر عمر
(خزانة الادب ولب لباب لسان العرب) القاهرة ط ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م
بلات : شارل
(الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء) ترجمة ابراهيم الكيلانى دمشق ١٩٦١م
التبريزى: (٥٠٢هـ ١١٠٨م) زكريا يحيى بن على
(شرح ديوان الحماسة)، القاهرة ١٣٢٣هـ

حـــتى : فيليـــب
(تاريخ العرب) بيروت ١٩٧٤م
حســن: ابراهيم حسن
(تاريخ الاسلام السيـاسي والديني والثقافي والاجتماعي) الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٦١م
حســن : علي ابراهيم
(التاريخ الاسلامي العام الجاهلية والدولة العربية، والدولة العباسية) القاهرة ١٩٧٢م
جســن : ناجي
(القبائل العربية في المشرق) بيروت ١٩٨٠م
حمـادي: محمد جاسم
(الجزيرة الفراتية والموصل دراسة في التاريخ السياسي والاداري)، بغداد ١٩٧٧م
الخضري: محمــد
(تاريخ الامم الاسلامية)
الخوارزمي : ٣٨٧هـ - ٩٩٧م) محمد بن احمد بن يوسف الخوارزمي
(مفاتيح العلوم) مصر ١٣٤٢هـ
خليفـة: (٢٤٠هـ - ٨٥٤م) ابن خياط
(تاريخ خليفة بن خياط) الطبعة الثانية، بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
جاد المولـى: محمد احمد، واخرون غيره في
(ايم العرب في الجاهلية) الطبعة الأولى ، مصر ١٣٦١هـ ١٩٤٢م)
الجومرد: عبدالجبار
(غرة العرب، يزيد بن مزيد الشيباني) الطبعة الأولى - بيروت ١٩٦١م
دائرة المعارف الاسلامية: مادة بكر بن وائل
دروزة محمد عزة
(تاريخ الجنس العربي في مختلف الاطوار والادوار والاقطار) الطبعة الأولى ، بيروت - صيدا ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م

الدينوري: (٢٨٢هـ - ٨٩٥م) احمد بن داود

(الاخبار الاطوال) الطبعة الأولى، ليدن ١٨٨٨م

ديوان الاعشى: شرح وتعليق محمد محمد حسين، بيروت ١٩٧٤م

ديوان طرفة بن العبد: تحقيق وشرح كرم البستاني، بيروت ١٩٥٣م

ديوان عدى بن زيد العبادي: حققه محمد جبار المعيد، بغداد ١٩٦٥م

الذهبي: (٧٤٨ هـ - ١٣٤٩م) شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان قيماز

(تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام) القاهرة ١٣٦٩هـ

الزبيدي: (١٢٠٥ هـ - ١٧٩٠م) محب الدين محمد مرتضى الصنى الواسطى الزبيدى الحنفى

(تاج العروس فى جواهر القاموس) بنغازى بلا

السمعاني: (٥٦٢هـ - ١١٦٦م) عبدالكريم بن منصور التميمى السمعانى

(الانساب)، الطبعة الأولى، حيد راباد الدكن - الهند، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م

سرور: محمد جمال الدين (الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة) الطبعة الخامسة، القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

سورة الانعام: آية ١٥١

السويدي: محمد امين البغدادي،الشهير بالسويدى

(سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب)، النجف ١٣٤٥هـ

السيوطى: (٩١١هـ ١٥٠٥م) جلال الدين عبدالرحمن

(تاريخ الخلفاء)، الطبعةالرابعة القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

سيديو: ل.أ

الشابشتى : (٣٨٨هـ - ٩٩٨م) على بن محمد

(الديارات الطبعة الثانية، بغداد ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م

الشمنترى: (٤٧٦هـ) يوسف بن سليمان بن عيسى

(ديوان طرفة بن العبد) تحقيق دريد الخطيب ولطفى الصقال، دمشق ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

شيخو: لويس شيخو اليسوعى

الطبرى: (٣١٠ هـ ته ططام)محمد بن جرير بن زيد بن خالد
(تاريخ الرسل والملوك) الطبعة الثانية، مصر ١٩٧١م
العبيدى: خضير نعمان
(البحرين من امارات الخليج العربى) بغداد ١٩٦٩
العدوى: ابراهيم احمد
(التاريخ الاسلامى، افاقه السياسية وابعاده الحضارية) القاهرة ١٩٧٦م
العظم: رفيــــق
(اشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة)، الطبعة الخامسة ، مصر ١٣٦٠هـ - ١٩٤١
العقاد : عباس محمود
(عبقرية خالد) القاهرة ١٩٧١م
على جواد
(المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام) الطبعةالاولى، بيروت ١٩٧٠م
عمر فوزى: فاروق
١ - (العباسيون الأوائل)، بيروت ١٩٧٠م
٢ ـ (الفوضى العسكرية) بغداد ١٩٧٤م
فلهوزن : يوليـــوس
(الخوارج والشيعة) ترجمة عبدالرحمن بدوى، القاهرة ١٩٥٨م
القرمانى: (١٠١٩هـ ١٦١٠م) احمد بن يوسف بن احمد الدمشقى
(اخبار الدول واثار الاول فى التاريخ) بغداد ١٢٨٢هـ
القيروانى: (٤٥٣هـ) ابراهيم بن على الحصرى
(زهر الاداب وثمر الالباب) ، بيروت ١٩٧٢م
كحالة : عمـــر
١ اعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام) الطبعة الثانيــة، دمشق ١٣٧٨هـ- ١٩٥٩م

٢ - (معجم قبائل العرب) القديمة والحديثه)، بيروت ١٩٦٨م

الكرملي: انستاس ماری

(لغة العرب) مجلة ادبية علمية، بغداد ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

المسعودی: ٣٤٦هـ - ٩٥٧م) على بن الحسين بن على

(مروج الذهب ومعادن الجوهر) الطبعة الأولى بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م

المقدسی: (٣٨٠هـ - ٩٩٠م) شمس الدين محمد بن احمد بن ابى بكر البناء

(احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) الطبعة الثانية ليدن ، ١٩٠٦

النجـــم: عبدالرحمن

(البحرين فى صدر الاسلام) رسالة ماجستير، على الالة الكاتبة، ١٩٧١م

نتنج: انتونی

(العرب انتصاراهم، وامجاد الاسلام)، القاهرة ١٩٧٤م

الهمذانی: (٣٣٤هـ - ١٩٤٥م) ابو الحسن محمد .... اليمن بن الحائر

(صفة جزيرة العرب) القاهرة ١٩٥٣م

ياقوت: (٦٢٦هـ - ١٢٨١م) شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومى الحموين البغدادى (معجم البلدان) لبيزك ١٨٦٦م وطبعة اخرى بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م

القزاز: (الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية) ، النجف - ١٣٩٠ - ١٩٧٠م

الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية

تأليف

د/ عبدالله سلوم السامرائي

عرض

د/ ناجية عبدالله ابراهيم

فى كل يوم يتأكد موقف العراق شموخا واعتزازا وثقة، وهو موقف بلا ريب يمثل امتدادا لمواقف الامس التى رفع منارها الاجداد مشاعل الهداية والنور فى سبيل تحرير انفسهم وتحرير العالم وانقاذه من الجهل والوثنية والشرك.

لقد سطر العرب المسلمون باحرف من نور ملاحم الفداء والبطولة فى الابلة والبويب والقادسية ، وجلولاء ، ونهاوند. وكان شعارهم يومئذ هداية الناس للايمان باله واحد «عقيدة التوحيد» والتخلص من انظمة الحكم الفاسدة التى كانت تخيم على العالم آنذاك.

لقد حرر المسلمون الاوائل انفسهم فكانوا نموذجا لتحرير الاخرين من نير العبودية والظلم. وقد بذلوا دماءهم سخية لكى تعلو راية «لا اله الا الله، محمد رسول الله» مؤكدين فى ذلك ان تحرير البشرية واجتثاث ما كانت تعانيه من امراض واهوال، هو غايتهم المنشودة.

وفعلا استطاعت جيوش الحق الزاحفة ان تهدى شعوب العالم فأضاءت شموع المعرفة وقناديل الخير الى كاشغر فى اقصى الشرق الاسيوى والى جنوب فرنسا فى اقصى الغرب الاوربى.

كان المسلمون يفتحون كتاب الله وقلوبهم عامرة بالمحبة لاستقبال الناس فدخل الكثيرون منهم بقلوب مؤمنة، وكانوا مادة الدولة العربية الاسلامية التى تفجرت عن حضارة عظيمة لا زالت آثارها ناطقة حتى اليوم.

ولكن من بين الرماد ومن تحت انقاض الثنوية ونزعات الاستعلاء والاعتداء والتوسع ظلت عناصر ترى فى الدولة العربية الاسلامية ، والدين الاسلامى القوة التى ذهبت بعروشها واستغلالها وطغيانها وسيطرتها، فحقدت على الاسلام والامة العربية وراحت تفتش عن وسائل تنتقم فيها من هذه القوة، فوجدت ان خير طريقة تواجه بها تلك القوة هى الدخول فى الاسلام والعمل تحت رايته والمباشرة بهدمه من الداخل بصورة تدريجية.

لقد تحركت هذه القوى المعادية فى اطار الاسلام وعملت عبر مبادئه ومن خلال طقوسه فكانت حركتهم خطرة وكان عملهم فى اطار حركة الغلو، عملا خطيرا، حيث تشبثوا بالاسلام وعملوا بمبادئه وحاولوا دفع بعض المبادئ عن مواقعها وبعض الشخصيات عن حدودها

وتحميل المبادئ والاشخاص فوق طاقتهم لكـي يسقطوا بذلك تلك المبادئ والاشخاص باعتبارها مواقع واسس مركزية فى الديانة الاسلامية.

ولم يكتف هؤلاء بالغلو وسيلة للحرب، انما ذهبوا اكثر من ذلك ليشنوا معركة عنيفة على الاسلام ومبادئه تحت غطاء حركـة اخرى هى الزندقة وحينما وجدوا الفرصة سانحة اخذوا يكيلون التهم وينسبون النواقص الى الامة العربية وتاريخها وراحوا يفتشون عن قضية قديمة أو حديثة فيها مجال للحط من شأن العرب والحاق الاذى بهم فابتدأوا يهولون فيها اشباعا لاحقادهم وعدوانهم.

تلك كانت معركة عنيفة كما ذكرت ابتدأت من قبل اقوام جاء الاسلام لهدايتهم وتولى العرب المسلمون حمل هذه المسؤولية بامانة الا ان اولئك وجدوا فى الدين الجديـد والدولة الجديدة قيما ومثلا تتناسب واطماعهم ومصالحهم فكانوا مادة اساسية لشن عدوان كبير على الدولة العربية والامة العربية.

لقد بقيت بعض الفئات والاتجاهات تحمل فى طياتها حقدا وعدوانا على الامة العربية ورسالتها الانسانية، مما يؤكد ان تلك الفئات لم تومن اصلا بالاسلام ولم تنضو تحت رايته، وانما بقيت متمسكة بمبادئ التنويه وافكار الاستعلاء والاستغلال والتوسع، وظلت تحن الى امجادها الغابرة القائمة اصلا على العدوان والتوسع وللأسف فان صراعا ظل محتدما بين الاسلام ومبادئه السمحاء وبين اولئك الذين بقوا على تنويتهم وافكارهم الاستعلائية التوسعية.

وكتاب «الشعوبية: حركة مضادة للاسلام والامة العربية» الذى وضعه الدكتور عبدالله سلوم السامرائى ، يلقي اضواء كثيرة ويكشف حقائق كبيرة عن حقيقة الشعوبية الفارسية ودورها التخريبى ضد الامة العربية لا سيا فى عصورها الاسلامية الاولى.

صدر الكتاب عن دار الرشيد للنشر، وزارة الاعلام، بغداد ١٩٨٠ وهو يقع فى (٢١٢) صفحة ويتألف من مقدمة واربعة فصول يغلب عليها التناسق والترتيب.

فى المقدمة يستعرض المؤلف هدف الدراسة للشعوبية كونها حركة مناهضة للامة العربية بدأت اثر ظهور الاسلام وقيام دولته العربية.

ملفتا النظر الى أن المقاومة التى اصطدمت بها الدول العربية حين تولت نشر الاسلام والسعى لهداية الناس فى الأقاليم المجاورة، كانت على أشدها فى البلاد الايرانية.

وكان لهذا التصادم آثاره البعيدة فى تاريخ العرب تمثلت فى جوانب عدة من حياتهم، حيث عملت الشعوبية على تشويه آثار العرب وتاريخهم ودينهم ، وكانت بالتالى وراء معظم الاحداث التى واجهت الامة العربية وعملت على محاربتها.

ان المؤلف وهو يعالج هذا الموضوع بروح موضوعية عالية، لا تنشد غير الحقيقة العلمية، يطالعنا فى الفصل الاول من كتابه الذى يتناول فيه اسباب قيام الحركة الشعوبية ، ان ظهور هذه الحركة يرجع الى عاملين اساسين هما :

١ ـ الاول الكيان الايرانى الذى يبعث فى شعوبه روح التحدى فى وجه القوى المناوئة له.

٢ ـ اما العامل الثانى فهو ظهور الاسلام الذى تسبب فى قيام الدولة العربية وأدى إلى ازدهار الحضارة العربية الاسلامية التى اصطدمت مع الحضارة الايرانية بصورة مباشرة فادى ذلك الاصطدام الى ازالة السلطان الايرانى الذى كان يتمتع بسعة الملك وعلو اليد على جميع الامم، وجلالة الخطر فى نفسه بحيث كان الايرانيون يسمون انفسهم الاحرار والاسياد وكـانوا يعدون سائر الناس عبيـدا لهم. فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم.. تعاظم الأمر وتضاعفت المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى اوقات شتى، ومن هنا يلخص المؤلف الى ان الشعوبية هى نتاج التصادم بين الحضارة الايرانيـة والحضارة العربية.

ولما كانت الشعوبية تمثل التحدى فى أجلى مظاهره، فان المؤلف هنا يميز بين نوعين من عوامل هذا التحدى، نوعا يثير وعيا وآخر يثير حقدا وكراهية وعلى هذا فالشعوبية هى مجموع لهذه المواقف التى تقوم على العداء والتحدى والتى كان يثيرها الوعى خينا فتراها منظمة تسلك سبيلا مدروسا. فهى على حد تعبير أحد الشعوبيين «نرفض فى الظاهر ما بيننا من العداوة، ونظهر موافقتهم ومساعدتهم وندخل فى دين محمد، ونؤمن به، ثم نفسد عليهم دينهم بلطيف الحيل، وندرك منهم مالم يمكن ادراكه بالقهر والغلبة».

وهناك مواقف اخرى يثيرها الحقد والكراهية فتراها مواقف منفعلة متعصبة غير منظمة تكيل التهم جزافا «وتدفع العرب عن كل فضيلة ، وتلحق بهم كل رذيلة، وتغلو فى القول ، وتسرف فى الذم، وتبهت فى الكفر، وتكابر العيان».

. وفى الفصل الثانى من الكتاب يتناول المؤلف دراسة مظاهر الحركة الشعوبية وفيه يتضح ان المقاومة ضد العرب عملت فى مجالين: أحدهما لمواجهة الاسلام حيث استهدفت محاربته وتشويه مبادئه بكل الصيغ والاساليب. وقد تمثلت هذه المقاومة فى حركتين كبيرتين هما حركة «الغلو»(١) وحركة «الزندقة»(٢) وقد اطلق المؤلف عليها اسم «الشعوبية الدينية» لا ستغلالها آيات القرآن الكريم، ووضع آرائها ومعتقداتها الثنوية «وهى الديانة المشتركة لجميع الديانات الايرانية.. الزرادشتية والمانوية والمزدكية ، وغيرها التى تومن بإلهين، احدهما للخير والآخر للشر». على اساس تأويل تلك الآيات تأويلا يتفق وميولها السياسية ومعتقداتها الدينية.

ومن المفيد أن نقتبس هنا بعض ما اورده المؤلف من آراء هذه الفرق لكى نوضح نواياها العدوانية ازاء الاسلام وقيمه العليا.

فقد ادعى ابوشاكر الديصانى مثلا ان فى القرآن الكريم آية هى قوله تعالى:

«وهو الذى فى السماء اله، وفى الارض اله» ليبرر قوله فى وجود الهين فى حين انه ليس هناك ثمة علاقة بين عقيدة الثنوية وهذه الآية ذلك ان الله ربنا هو فى السماء اله، وفى الارض اله، وفى البحار اله، وفى القفار اله، وفى كل مكان اله.

---

(١) ظهرت هذه الحركة فى صدر الاسلام، والغلاة هم الذين غالوا فى حق أشخاص، حتى أخرجوا بهم إلى ما فوق الإنسانية.

(٢) أطلقت الزندقة على من بدل دينه الإسلامى بدين آخر، وعلى من طعن فى القرآن وأنكر بعض آياته وعلى من قال بالقدر وادعى الربوبية، كما أطلقت على من أنكر التوحيد وقال بوجود الهين. وأطلقت على المانوية والدهرية وعلى المجون والظراف كذلك، فهي إذن مظهر أساسى من مظاهر الشعوبية وهى تمثل أعلى مراحل التحدى الدينى والفكرى والاجتماعى للإسلام، وكانت إلى الزرادشتية أقرب.

ولكى يبرر الغلاة قولهم بالحلول والتناسخ ادعوا فى قوله تعالى «فاذا سويته ونفخت فيه من روحى» تأكيد لفكرة الحلول والتناسخ ، وتبريرا لاحلال روح الله فى الانبياء والائمة.

اما المقاومة الثانية فقد استهدفت الطعن على العرب وتشويه حضارتهم وهدم سلطانهم وتفضيل الشعوب الاخرى عليهم، وقد اطلق المؤلف عليها اسم «الشعوبية العنصرية». وهنا يؤكد ان الشعوبية العنصرية ابتدأت دعوتها بالتستر بالاسلام لتبرير موقفها واخذت تردد الآية الكريمة «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم» واستغلتها لفترة طويلة ، وادعت ان لفظ الشعوبية مشتق من الشعوب (مفرده شعب) وهو اوسع من القبيلة، فاعتبرت القبائل للعرب والشعوب للعجم.

وقد خلص المؤلف من ذلك الى ان العنصريـــة هى سمة للتعصب لجنس على آخر واستطاع من خلال تقصيه للحقائق التاريخيـة ان يحدد سمة العنصريـة فى هذه الحركـة الشعوبية الفارسية عبر المواقف التالية: ـ

١ ـ مواقف الاشخاص :

وقد تناول المؤلف مواقفهم من خلال مؤلفاتهم واقوالهم واشعارهم، حيث اورد نماذج كثيرة لعدد من الشعراء والكتاب الذين تعصبوا للعجم وقالوا الشعر فى الفخر بهم ، وذموا العرب ودفعوا عنهم كل فضيلة والحقوا بهم كل رذيلة ليحطوا من شأنهم امثال الشاعر اسماعيل بن يسار، وابى عبيدة معمر بن المثنى، وعلان الوراق، وسهل بن هارون، والشاعر ابونواس، وآخرين غيرهم.

٢ ـ اشراف الفرس ومواقفهم الشعوبية

وقد اراد المؤلف باشراف الفرس الذين كانوا يمثلون دور القادة فى الحركة الشعوبية، والذين تآمروا على الدولة العربية وطمعوا فى الانقضاض عليها. وقد اورد اشارات عديدة تؤكد هذا الجانب منها رواية عن «الهرمزان» وهو القائد المجوسي الذى تآمر مع ابى لؤلؤة عبدالمغيرة بن شعبة لاغتيال الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ورواية عن القائد «زادويه» الذى

تآمر مع الخوارج لاغتيال الامام علي بن أبى طالب رضى الله عنه على يد المجرم عبدالرحمن بن ملجم.

وقد ادخل المؤلف فى هذا الباب كل من تآمر على الدولة العربية وكان له موقعا كبيرا فى الدولة، كالوزير أبى سلمة الخلال الذى تآمر على الدولة العباسية من خلال ايقاعه الفتنة بين العلويين والعباسيين وكذلك تآمر ابومسلم الخراسانى على الدولة العباسية ابان عهد الخليفة المنصور لاجل اعادة الملك الى الفرس، ثم دور البرامكة فى ايقاع الفتنة بين الهادى والرشيد ودور بنى سهل وخاصة الفضل منهم حين اشعل نار الفتنة بين الاخوين الامين والمأمون.

٣ ـ العامـــة

واراد بهم المؤلف «الموالى» وهم المسلمون من غير العرب. وكانوا مادة خصبة لتحقيق اهداف الحركة الشعوبية وقد برز نشاطهم من خلال الحركات التى اشتركوا فيها والتى قامت فى وجه الدولة العربية واستهدفت القضاء عليها. ومن ذلك اشتراكهم فى الفتن التى راح ضحيتها الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) والخليفة على بن ابى طالب (رضى الله عنه) وكذلك اشتراكهم فى حركة المختار بن ابى عبيدة الثقفى حيث انخرط فى جيش ابراهيم بن الاشتر الذى اعده المختار لمقاتلة الامويين (٢٠) ألف رجل كان جلهم من ابناء الفرس بالكوفة.

ومما يسترعى الانتباه ان بعض اولئك الموالى كان يحقدون على العرب وقد عبروا عن سخطهم على لسان قائدهم كيسان . وقد استمر نشاطهم فيما بعد وكانوا كذلك مادة خصبة لحركة الدعوة العباسية.

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن المؤلف انتبه الى نشاط الشعوبية وما افترضه من فرضيات موهومة لكى تبرر هجومها على العرب، والحط من مكانتهم. فمن ذلك ادعاؤها «ان الفرس من ولد اسحق بن ابراهيم (عليه السلام) والعرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم وان اسحق بن سارة الحرة، واسماعيل ابن هاجر الامة، فهم أفضل من العرب لأنهم الأحرار، وأما العرب فبنوا اللخناء.

ان هذا ان دل على شيء، فانما يدل على عنصريتها البغيضة، وانها فعلا حركة تقوم على اساس عنصري يدفعها الحسد والحقد.

اما الفصل الثالث من الكتاب فيعالج المؤلف فيه اساليب الحركة الشعوبية واهدافها. وقد اهتدى من خلال معالجته تلك الى ان الشعوبية الدينية كانت حركة منظمة لها اساليبها الخاصة في العمل وتنظيماتها المحكمة في اعداد الدعاة والاتصال بالناس. وقد تجلت تلك التنظيمات في التعليمات التي كانت تصدرها لدعاتها ولا بأس من الاشارة هنا الى الشروط التي كانت تقررها الشعوبية في الداعي لدعوتها لكي يكون سبيلا لتحقيق مآربها العدوانية وهي «ان يكون عارفا بالوجوه التي تدعى لها الاصناف، فليست دعوة الاصناف من وجه واحد بل كل صنف من الناس وجه يدعى منه».

وهنا يشير المؤلف الى ان الفرق الغالية وجدت في التظاهر بالاسلام ستارا لنشاطها فوضعت آراءها ومبادئها على اسس من الدين، وفسروا آيات من القرآن الكريم تفسيرا يتناسب واهدافهم ومعتقداتهم . فكان مبدأ الحلول والتناسخ تأويلا لقوله تعالى: ـ «ونفخنا فيه من روحنا» فقالوا ان عيسى روح القدس، وان روح القدس هو الله. وعلى هذا الاساس اعلن عبدالله بن سبأ «ان عليا اله الخلق». مما دفع بالامام علي (رضى الله عنه) الى حرقه كما وجدت تلك الفرق في الالتفاف حول آل البيت ستارا كثيفا لحركتها لذلك اتخذت احد افراد آل البيت وجعلته محورا لنشاطها وغلوها . وقد كشف الغلاة اسباب التفاهم حول آل البيت، فقالوا «انا ان اظهرنا الذي نعتقد رمينا بالكفر والزندقة. وقد وجدنا اقواما ينتحلون حب علي (رضي الله عنه) ويظهرونه ثم يقعون بمن شاءوا ويعتقدون ما شاءوا ويقولون ما شاءوا فنسبوا بذلك الى الترفض فلم نر لمذهبنا امرا الطف من انتحال هذا الرجل ثم نقول ما شئنا ونقع بما شئنا. فلان يقال لنا رافضة احب الينا من ان يقال زنادقة كفار. وما علي عندنا احسن حالا من غيره ممن نقع بهم» ص ١٢٦.

اما الشعوبية العنصرية فيذكر المؤلف انها لم تكن حركة منظمة تنظيما يحدد معالمها واساليبها ويوحدها في حركة واحدة لانها لم تكن قائمة على عقيدة معينة، ولا تستند الى اسس محدودة انما هي نزعة عدائية تتمثل في مواقف منفعلة . الا ان هؤلاء الشعوبيين العنصريين حينما

واجهوا مقاومة عنيفة من الجانب العربي عمدوا الى اتباع اساليب مختلفة لستر مواقفهم المعادية.

ومن اجل تحقيق اهدافهم كانوا يرفعون شعار المساواة كلما وجدوا حاجة الى ذلك وكانوا يستغلون الآية الكريمة (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل...» التي أشرنا اليها سابقا لدعم شعارهم .

وقد وجد الشعوبيون العنصريون في التظاهر بالولاء القبلي والسياسي حماية لهم ووسيلة للتهجم على العرب وحضارتهم . وخير من يمثل هذا الولاء المصطنع الشاعر اسماعيل بن يسار الذي كان ولاؤه القبلي الى قبيلة تيم بن مرة . أما ولاؤه السياسي فكان ينتقل من حزب الى آخر. فهو تارة ينضم الى آل الزبير وتارة أخرى إلى عبدالملك بن مروان وولده. ناهيك عن اساليبهم الاخرى التي اعتمدوها في دعم رجال الفكر والادب والشعر لاستقطابهم بشتى الوسائل في حركة الترجمة والبحث في مثالب العرب والطعن بهم والتفاخر بالفرس وهنا لابد من الاشارة الى ان متابعة المؤلف الدقيقة لنشاط الحركة الشعوبية أوقفته على اهدافها التي كانت تتركز في ثلاث نقاط اساسية هي:ـ

١ ـ تشويه مبادئ الاسلام وهدمها من الداخل بكل الاساليب.
٢ ـ محاربة الامة العربية والعمل على ازالة سلطانها وتشويه الحضارة العربية.
٣ ـ احياء الحضارة الايرانية واعادة السلطان الفارسي.

بعد ذلك يوضح المؤلف في الفصل الاخير من كتابه موقف العرب من الشعوبية متتبعا ذلك في مواقف الدولة العربية منذ قيامها ايام الرسول محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) وحتى خلافة المعتصم بالله، حيث تنتهي فترة البحث المحددة.

وقد اتضح للمؤلف ان تلك المواقف كانت تسير في خطين متوازيين ومتكاملين، مواقف كانت تعمل على تثبيت الكيان العربي وازدهار الحضارة العربية وتركيز مبادئ الاسلام. وقد تجسدت هذه المواقف في الخلفاء الراشدين (رضوان الله عليهم) الذين عملوا بجهدهم على تثبيت المبادئ الاسلامية وتعبئة القوى لحمل الرسالة ونشرها وتحرير البلاد العربية من نير

الاستعمار الى جانب اهتمامهم الشديد بالحفاظ على مقومات الامة التى كانت «اللغة العربية» أبرزها، ولاسيما فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه). ثم مواقف الخلفاء الذين جاءوا بعدهم.

وهناك اجراءات اخرى لمقاومة الشعوبية ورد هجومها، أشار اليها المؤلف، وقد تمثلت بمواجهة الامام علي (رضى الله عنه) لحركات الغلو والزندقة كحركة عبدالله بن سبأ. ثم جاءت حركة المختار فى زمن مصعب بن الزبير، وحركة عبدالرحمن بن الاشعث فى زمن عبدالملك بن مروان وغيرها. الا ان المؤلف هنا يلفت الانتباه الى ان اخطر الاجراءات التى اتخذتها الدولة العربية خلال العهد الاموى هو اعلان اللغة العربية، لغة رسمية فى جميع معاملات الدولة الاسلامية. وبذلك حلت اللغة العربية محل اللغة الفارسية فى العراق وخراسان كما حلت محل اللغة الرومية فى بلاد الشام، واللغة اليونانية والقبطية فى مصر وغيرها.

ثم استمرت المقاومة ازاء الشعوبية وحركتها فى العهد العباسى الاول. حيث وقف الخلفاء العباسيون بشدة امامها. وقد اورد المؤلف شواهد كثيرة توضح هذا الجانب.

ولن ينسى المؤلف التعرض فى هذا الفصل الى موقف الشعب العربى ازاء الشعوبية وحركتها المناهضة للاسلام وللامة. وقد عرض حقائق كثيرة تعبر عن مواقف الفقهاء والكتاب والشعراء الذين اشتركوا فى المعركة ضد الشعوبية باقلامهم وافكارهم واثاروا الشعب ودفعوه فى وجه الشعوبية فقاوم نشاطها ومزق كتبها وحال دون تحقيق اغراضها. ولا بأس ان نذكر بعضا منهم كالامام جعفر بن محمد الصادق حيث كانت له مواقف جريئة فى الرد على أعداء الإسلام ودحض آرائهم، والامام أبى حنيفة ومن أعلام الحديث الامام مالك بن أنس، والشافعى، واحمد بن حنبل، ومن الأدباء: الجاحظ ، وابن قتيبة الدينورى وغيرهما.

كما لم يغفل المؤلف ان يتناول مواقف المعتزلة ايضا من الشعوبية الدينية لدورها الكبير فى دحض آراء الغلاة والزنادقة.

ثم يختتم المؤلف كتابه بقائمة من المصادر القديمة والحديثة اضافة الى مجموعة من المراجع الاجنبية بلغ تعدادها جميعا (١٦٨) كتابا. ثم فهرس بموضوعات الكتاب.

ان كتاباً يمثل جهدا كبيرا «نال به صاحبه مرتبة الماجستير» لا غنى للقارئ عنه لكي يطلع على الخطط والاساليب الهدامة التى اعتمدتها الشعوبية الفارسية لمواجهة الاسلام ودولته العربية. فنحن اليوم احوج ما نكون الى فضح المؤمرات الصهيونية والدسائس الشعوبية القائمة اصلا على تحطيم الامة العربية وتدمير مثلها القديمة واجهاض نهوضها الحضارى الجديد، الذى بزغ نوره الجديد من ارض العراق، ارض البطولات والامجاد والاحفاد بقيادة بطل التحرير القومي السيد الرئيس صدام حسين الذى حمل رسالة العروبة لاحياء تراثها المجيد.

مطالعات في الكتب التي صدرت حديثاً

بقلم

محمد جاسم حمادي

١ ـ كتاب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال لابى الحجاج يوسف المزى (ت، ٧٤٢هـ)

حققه، وضبط نصه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف(١)

حقق الاستاذ الدكتور بشار عواد معروف كتاب تهذيب الكمال للمزى، تناول فى بداية هذا المجلد الأول، سيرة المزى، وكتابه تهذيب الكمال، ومنزلة الكتاب بين الكتب من بابته وبيان تفضيله على جميع الكتب السابقة واللاحقة فى فنه، وكذلك دراسة عناية العلماء بهذا الكتاب.

والكتاب فى الاساس اختصار لكتاب (الكمال للحافظ عبدالغنى المقدسى) وقد عثر المحقق على عدة نسخ من تهذيب الكمال، ويقع الكتاب فى اربعة عشر مجلدا بخطه، ووضع المزى كتابه فى مئتين وخمسين جزءا حديثيا، وللمزى كثير من التحقيقات العلمية والمقابلات فى كتابه هذا.

وبذل الدكتور بشار جهدا متميزا فى سبيل ضبط النص، وبعد رجوعه إلى عدد كبير من المصادر مخطوطها ومطبوعها لاسيا تلك التى أخذ عنها مؤلف الكتاب ، وقارن المحقق بين مادة هذا الكتاب (التهذيب) بمادة كتاب الكمال، مقارنة دقيقة، وأكثر من التعليق على النص وعلى الأوهام القليلة التى وقع بها صاحب الكتاب.

أما محتويات الكتاب فانها تبدأ بدراسة وافية عن السيرة النبوية الشريفة التى استغرقت حوالى ثلث هذا المجلد، وبعدها يبدأ بذكر تراجم العلماء مبتدءا بذكر من اسمه احمد، ذاكرا اسم كل عالم ، ونسبه وشخصيته، ومن روى عنه من تلاميذه وعمن روى هو، من شيوخه ومن ثم توثيقه وتجريحه، ووفاته، وبعض المعلومات الاخرى، وقد قام عدد من العلماء باختصار تهذيب الكمال، ولعل ابرز هذه الاختصارات ما قام به ابن حجر العسقلانى فى كتابه (تهذيب التهذيب).

(١) نشرته مؤسسة الرسالة فى بيروت ١٩٨٠م.

ويعتبر كتاب تهذيب الكمال للمزى من المصادر المهمة فى كتب الرجال، التى تعتبر مصدرا مهما للمؤرخين والمحدثين نصا.

واخيرا فان الكتاب محقق تحقيقا علميا عاليا، طبق فيه المحقق منهجا علميا دقيقا فى التحقيق منذ بداية المجلد وحتى نهايته.

٢ ـ كتاب تأريخ ابى زرعة الدمشقي: للحافظ عبدالرحمن بن عمرو بن عبدالله بن صفوان النصرى (المتوفى سنة ٢٨١هـ).

دراسة وتحقيق: شكرالله نعمة الله[٢]

حقق الاستاذ شكرالله نعمة الله كتاب تأريخ ابى زرعة الدمشقي، وهو من الكتب المهمة فى التاريخ والتراجم معا، ويعتبر مصدرا مهما للمؤرخين والمحدثين، وقام السيد المحقق بتقديم دراسة مستفيضة عن عنوان الكتاب، ووصف المخطوط، ومصادر ابى زرعة فى تاريخه ومنهجه فى عرض مادة تاريخه.

ويبدأ الكتاب بذكر السيرة النبوية بما فى ذلك البعثة ، وحياته، وغزواته، ويتكلم عن الخلافة الراشدية حتى نهاية عهد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ويتحدث عن احداث بارزة فى التاريخ الاسلامى كمعركتى الجمل، وصفين، وحنين، وخلافة معاوية، والصوائف والشواتى ويقدم قائمة باسماء خلفاء بنى أمية وتواريخ مقادير خلافتهم بايجاز، ويذكر بعدها قائمة باسماء خلفاء الدولة العباسية حتى نهاية وفاة الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩٣هـ، ويقدم بعد ذلك قائمة بقضاة مدينة دمشق منذ فتحها حتى نهاية القرن الثانى الهجرى، وقضاة فلسطين، وقضاة مرو.

ويتناول الجزء الثانى الذى ابتدأه بذكر اخبار الصحابى عبدالله بن يسر المازنى ، وذكر الوقائع بالشام فى خلافة ابى بكر وعمر (رضى الله عنهما) ومن توفى من الصحابة فى معركة اجنادين وتواريخ فتح مدن الشام، ووفاة الصحابة والتابعين واتباع التابعين.

ويذكر ابوزرعة وفيات بعض شيوخه، واخـــر تاريخ وفاة يذكرها هو سنة ٢٤٩هـ هى سنة وفاة شيخه محمود بن خالد المسلمى ، وذكر معلومات مهمة عن بعض العلماء الاعلام، وذكر قائمة باسماء الصحابة النقباء والانصار ، ويتضمن الكتاب معلومات حضارية قيمة ونصوصا فريدة فى مختلف الشؤون، وأهمية الكتاب تتمثل فى احتوائه على معلومات قيمة وفريدة عن القرنين الأول والثانى للهجرة، توضح لنا بعض النواحى عن الحياة الثقافيـة والاجتماعيـة

(٢) نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت (١٩٨٠)

والادارية فى تلك الفترة، ويحتوى هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من الأسانيد يتجاوز الألفين ومئتين وخمسين سندا.

وقد بذل المحقق جهودا ممتازة فى تحقيقه لهذا الكتاب، ووضع له فهارس جيدة.

سليمان أفندي

قائمقام الحلة سنة ١٨٦٧

مير بصري
زميل الجمعية الآسيوية الملكية
لندن

طالعت البحث القيم الذى وضعه السيد محمد حسن علي مجيد عن «ولاة الحلة وحكامها فى القرن التاسع عشر» وقد نشر فى المؤرخ العربى العدد (٢٠) (١٩٨١) والحقيقة أنه استطاع ان يجمع مادة غزيرة اكثرها مجهول فى هذا الموضوع المتصل بتأريخ العراق فى أواخر العهد العثمانى.

وقد رأيت انه فاته ذكر قائمقام الحلة سليمان افندى مفتى كركوك السابق، وهو القائمقام الذى زاره الرحالة الهولندى «ليكلاما آنيهولت»

(١٨٣٧ ـ ١٩٠٠) سنة ١٨٦٧. ونيهولت هوى السفر شابا، وقام برحلة طويلة من ١٨٦٥ ـ ١٨٦٨ فزار روسية والقفقاس وايران والعراق وكردستان وسورية وفلسطين وتركية. والف فى ذلك كتابا فى اربعة اجزاء باللغة الفرنسية وخص معظم الجزء الثالث المطبوع فى بروكسيل سنة ١٨٧٤ بالعراق الذى وصله عن طريق البصرة فى مساء ٢٨ تشرين الثانى ١٨٦٦ وغادره فى ٤ حزيران ١٨٦٧ بطريق خانقين الى كرمنشاه.

سجل نيهولت احوال القطر العراقى فى نهاية عهد من تأريخه قبيل ولاية مدحت باشا وافتتاح قناة السويس.

وقد أمضى نحو ستة اشهر فى بغداد، وزار الحلة والكوفة والنجف وكربلاء وسلمان بك وسامراء وبعقوبا، وقابل الوالى نامق باشا. ودون مشاهداته الفريدة، وذكر فى رحلته امورا ذات شأن يتعلق بتأريخ بغداد وحالتها فى عهده وزراعتها وتجارتها ومناخها وعادات اهليها وسائر شؤون الاديان والمذاهب والملابس ومراسم الزواج والعزاء والاثار والعشائر الخ.

ترجمت معظم مباحث هذه الرحلة المفيدة التى تلقى ضوءا ساطعا على بلادنا فى منتصف القرن التاسع عشر ونشرتها متسلسلة فى جريدة البلد البغدادية لصاحبها الصديق الكريم الاستاذ عبدالقادر البراك من ١٩٦٧/١/٢٠ إلى ١٩٦٧/٦/٦ وكان ذلك بمناسبة مرور مائة عام على الرحلة.

زار رحالتنا الحلة فى نيسان ١٨٦٧ حاملا توصية من والى بغداد. قال انه ترك بغداد ومياه الفيضان قد طغت فيها ووصل فى اليوم الثانى الى المحاويل ونزل فى الخان الذى شيده الحاج

محمد صالح كبة من اغنى تجار بغداد. ثم غادر المحاويل وقطع اربعة فراسخ فبلغ الحلة حيث استقبله قائم مقامها سليان افندى، مفتى كركوك السابق، احسن استقبال وانزله فى دار محمود آغا الجادرجى (وهو جد رفعت الجادرجي رئيس بلدية بغداد فى أواخر العهد التركى وابو جد روؤف وكامل الجادرجى) . وقال نيهولت ان سليان افندى كان رجلا جم الادب، مطلعا على شؤون الجغرافية والسياسة وله رغبة فى اظهار معلوماته ، والدار أو بالاحرى السراى التى يسكنها، تقع فى أحسن ناحية على شاطئ النهر ازاء جسر السفن الكبير الذى يربط الصوبين. ولما عرض الرحالة عليه رغبته فى مشاهدة البلدة ارسل معه اثنين من كتابه رافقاه فى جولته فى كل جهة وقال ان الحلة من البلدان الجميلة تبلغ نفوسها نحو ١٥ الفا، وقد بنيت على منكبى الفرات واسواقها لطيفة كثيرة الحركة واهلوها مؤدبون.

وفى خلال جولته زار آمر المدفعية العقيد الحاج مصطفى بك الذى يقيم فى الثكنة العسكرية. وقوة الجيش المرابط كبيرة بالنظر الى اهمية الموقع السوقية.

وكان استقبال العقيد له وديا كاستقبال القائممقام ، فدخل الرحالة قاعة اجتمع فيها كل ضباط الحامية ووقفوا يردون تحيته بادب . وكان على أحدى المناضد قفص فيه طير كنارى صغير بح صوته وهو يغنى محاولا تغطية المكالمة . وقال الحاج مصطفى ان طيور الكنارى لا تعيش فى بغداد ، فالحر يقتلها ولا يوجد الحب الذى نطعمه وقد أتى بهذا الكنارى من استانبول وحمل معه الحبوب التى يأكلها فزرعها فى الحلة وجادت زراعتها.

وختم الرحالة جولته بزيارة دائرة البرق التركية وقابل مديرها نورى افندى الذى رحب به كثيرا ، ويعزو الرحالة المجاملات التى لقيها الى توصية الوالى نامق باشا، لكنه مع ذلك يعترف بان الرجال الثلاثة الذين تكلم معهم لم يكن فيهم قصور من ناحية الفضل والاداب.

وزار الرحالة بعد ذلك خرائب بابل، ثم واصل سفره الى الكفل والكوف).

ميــر بصــرى

CONSULTATIVE BOARD

Serial No	Subject	Page No
5 —	The Higher Court in Islam or Consideration of Iniquities of the Public.	63
6 —	Policy of the Prophet (P.B.U.H.) in His Conquests against the Jews. **By Dr. Ihsan Thuragga,** Turkey.	91
7 —	Highlights From The History of lebanese People Uprising. **By Professor Sadeg Hasan Al- Sudani,** Faculty of Literature, Baghdad University.	
8 —	Abu Is'haq Ibrahim bin Hilal Al- Sabié as a Historian **By Professor Abdurrahman Hussein Al- Azawi,** Faculty of Literature, Baghdad University.	177
9 —	Bakr Ibn Wa'el Tribe and Their Wars in Islam, **By Dr. Ramziya Muhammad Al- Atraqji,** Baghdad University.	199
10 —	A shu'ūbiya as an Anti- Islamic and Anti- Arabist Movement. **By Dr. Abdullah Salum Al- Samurray.** **Editor: Dr. Najiya Abdullah Ibrahim.**	243
11 —	Readings From The Recently Issued Books. **By Professor Muhammad Jasem Hamadi**	255
12 —	Sulaiman Afandi, District President of Al- Hillah 1867 A.D. **By Professor Mir Bassry,** Fellow, The Royal Asian Association, London.	261

Contents of Issue No. 24/1984
From
«THE ARABIAN HISTORIAN»

Serial No		Subject	Page No
		Introduction **By Dr. Hussein Amin,** Sec. Gen, of The Arab Historian Association.	7
1	—	Cultural Relation ships between Andalusia and Baghdad during the Abbaside Age **By Dr. Hussein Amin** Sec. Gen. of The Arab Historians' Association.	
2	—	The Trade Importance of the Arabian Gulf and Its Resources During The Middle Islamic Ages. Research Submitted to the Conference of the Historical Studies on the Eastern Arabian Peninsula. **By Dr. L. Ibrahim Ahmad,** Faculty of Literature, Basra University.	
3	—	The Prophet Sunnah Versus The Obscurities of Orientalism **By Professor Anwar Al- Jundi,** Egypt.	37
4	—	Public Openion on the Beginning of Islam. Its Meanings, First Manifestations and Trends **By Dr. Adel Muhyedeen Al- Alusi,** Faculty of Education, Baghdad University.	49

IN[illegible]

THE COM[illegible]